مفاتيح المدائن

حوارات حول ظاهرة التخلف والعلاج الديني لها

د. نور الدين أبو لحية

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

تهدف هذه الرواية إلى البحث عن المفاتيح التي وضعها الله للبشر لتحقيق الاستخلاف المثالي وعمارة الأرض، ورعاية سنن الله في الكون والمجتمعات.

وقد حاولت أن تستلهم من قصة المعراج الواردة في الأحاديث النبوية الشريفة، والتي رحل فيها النبي ﷺ إلى السموات العلا، ورأى الكثير من المشاهد العجيبة التي تدل على حقائق الأشياء التي لا نراها في عالمنا.. وقد كان دليله فيها جبريل عليه السلام الذي كان يجيب رسول الله ﷺ كل حين عن حقيقة ما يراه.

وهذه الرواية تنهج نفس المنهج، ولكن عبر رحلة أرضية يحاول فيها الراوي بصحبة معلمه [معلم السلام] أن يخرج من المتاهة التي وقع فيها.. وقد أعانه معلمه على ذلك بسبب معرفته بالأبواب التي تنقذه من المتاهة، ومعرفته بالمفاتيح التي تفتحها، إلى أن يصل الراوي أخيرا بصحبة معلمه إلى مدائن السلام.

وهي تناقش في المحاورات التي تجري بين التلميذ ومعلمه أسباب التخلف، وتحاول أن تضع الحلول المختلفة لعلاجها انطلاقا من استبصار سنن الله في الآفاق والأنفس، والتي تضمن تفاصيلها القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، ولهذا تحاول أن تستلهم منهما القيم المختلفة التي تخرج بالأمة من التخلف، وتعيدها إلى وعيها، وإلى بناء المدائن العادلة التي كلفت ببنائها.

وقد تضمنت الرواية 27 مفتاحا، كل مفتا منها يدل على باب من أبواب التمدن والرقي وتحقيق الاستخلاف المثالي للإنسان على الأرض، وهي تبدأ بباب الاحتساب الذي ينطلق من الإخلاص لله، والطمع في فضله، وتنتهي بباب الشهادة الذي يعني مسؤولية الأمة عن إعطاء نموذج مثالي لسائر الأمم لتسير خلفها وتنتهج نهجها،

وبذلك تحقق رسالة ربهـا في ظهـور الإسـلام على الـدين كله.

معلم السلام

كانت تغمرني سعادة عظيمة عندما جاءني معلم السـلام هذا الصباح، فقال: أرى البسمة في عينيك، فهـل اسـتحدثت شيئا من العلم؟

قلت: إن الكنوز التي رأيتها في مـدائن الفقـراء الربـانيين ملأت نفسي سكينة وسرورا، فقررت أن أعيش حياتهم، فما أجملها من حياة، وما أسعدهم من أناسي؟

قال: نعم هم سعداء بما قسم الله لهم، ولكنهم يعيشـون في وضع مختلف عن وضعك.

قلت: لكني سأعيش في وضع كوضعهم، ألم يجعـل اللـه الخيار لنا في اختيار الحياة التي نريدها؟

قـال: بلى، ولكن وفـق مـا وضـعك اللـه فيـه من أنـواع البلاء .. أرأيت لـو أن جنـديا أعجبتـه حيـاة مـريض قعـد بـه المرض عن الجهاد لما رأى من تفرغه لعبادة اللـه، فـأراد أن يقتدي به في ذلك .. هل يصح منه ذلك؟

قلت: لا .. فلا ينبغي للمجاهد أن يغادر ثغـره، وإلا أتي من قبله.

قـال: فكـذلك أنت .. وكـذلك كثـيرون غـيرك .. أنتم على ثغور الحق، فلا تتركوها لهجمات الباطل..

قلت: ولكن السـعادة والرضـى والسـكينة لا تتحقـق إلا بذلك الجو الهادئ الجميل الذي اكتمل لهم.

قال: السعادة والرضى والسكينة في طاعة اللـه .. فإنـك إن أطعت الله أسعدك ولو في أتون النيران، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الانبياء: 69

)؟

قلت: ولكن ذلك هو إبراهيم ﷺ .. وهو خليل الله.

قال: فكن إبراهيم .. وارتفع لتصير خليلا لله .. فهل منع الله أحدا من عباده أن يصير خليلا له؟

قلت: كلا ..

قال: فارفع همتك عن نفسك لترى السلام في التوجه لله .. ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 115)

قلت: وماذا أصنع حتى أرتفع؟

قال: لقد عرفت سكينة الفقر، فاعرف ثورته، وعرفت علاج فقر الفرد، فأسرع لعلاج فقر المجتمع.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لنرحل إلى مدائن الحضارة لنتسلم مفاتيح أبوابها.

قلت: أي مدائن .. وأي حضارة .. الحضارات كثيرة والمدائن أكثر.

قال: الحضارات الراشدة .. والمدائن الربانية ..

قلت: تلك حضارات عضها الزمن بنابه .. فلا تراها في غير دفاتر الوراقين.

قال: نحن نبحث عن الحقائق، لا عن التواريخ.

قلت: فكيف نرحل؟.. وأين؟.. أهناك أعماق أخرى سنتجول فيها؟

قال: لا .. سنرحل إلى متاهة نمر فيها على أبواب

كثيرة .. كل باب يسلمنا إلى باب إلى أن نصل إلى مدائن الحضارة .. وسنرى أشياء كثيرة .. فلا يشغلنك شيء عن طريقك.

قلت: متاهة .. أخاف أن أتيه فيها، فلا أرجع إلى أهلي.

قال: لا تخف، فمعنا خارطة لذلك، وبوصلة تدلنا على الطريق.

قلت: أي خارطة .. لا أرى معك أي خارطة، ولا أي بوصلة.

قال: هي كتاب ربك وهدي نبيك.. فما وصل من وصل إلا بهما.

***

فجأة وجدت نفسي في صحراء لا زرع فيها ولا ماء، ولا أثر فيها لحي أو لميت، فالتفت حولي، فلم أر إلا الموت يتربص بي، فالشمس بأشعتها المحرقة تكوي جلدي، والعطش يكوي حلقي، وأحشائي قد عضها ثعبان الجوع، وفوق كل هذا تعصف الرياح الشديدة حاملة معها ذرات الرمال لتعمي عيني، وتصم أذني.

صحت: أين أنت يا معلم؟ .. أجئت بي للموت؟

فجأة ظهر كشعاع النور يقول لي: هل تألمت لهذا المصير الذي صرت إليه؟

قلت: بل كدت أموت جزعا وحزنا .. كيف تخرجني من بيتي الهادئ لترميني في هذه الصحراء القاحلة؟

قال: لتبصر حقيقة ما أنتم فيه .. فلا يمكن أن تعالجوا أدواءكم قبل أن تعرفوها.

قلت: لا .. نحن في أحسن الأحوال، فالسماء تدر علينا بأمطارها، والأرض تدر علينا بنفطها، فنحن بين بحرين، بحر يروينا، وبحر يطعمنا ويكسونا.

قال: لا .. بل أنتم في صحراء عارية من الحياة .. لأنكم تلبسون حياة غيركم، بعد أن خلعتم لباس حياتكم.

قلت: فكيف نسترد لباسنا؟

قال: بالدخول إلى مدائنكم، ففيها تجدون الملابس على مقايسكم.

قلت: ومن أين ندخل مدائننا؟

قال: من أبوابها، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ (البقرة: 189)

قلت: فما في هذا من العلم؟

قال: إن أردتم أن تدخلوا مدائنكم .. مدائن الحضارة الراشدة .. فعليكم أن تفتحوا الأبواب المغلقة دون ذلك .. كل باب يسلمكم إلى باب إلى أن تصلوا إليها.

قلت: وأين هي هذه الأبواب؟

قال: افتح عيني بصيرتك لتراها.

فتحت عيني بصيرتي، وحدقت، فلم أر شيئا، قلت: يا معلم، فتحت عيني بصيرتي، فلم تر أبوابا ولا نوافذ .. لا أرى غير الصحراء القاتلة.

قال: لا يمكنك أن ترى الأبواب، وأنت ترى الصحراء.

قلت: ولكني في صحراء، فكيف لا أراها.

قال: الصحراء لا علاقة لها ببصيرتك ولا بروحك، إن علاقتها لا تعدو جسدك .. فإن رأيتها ببصيرتك فإن ذلك دليل على استيلائها عليك وتأثيرها فيك، واستعمارها لك.

قلت: أتقصد أن أعيش ببصيرتي في الجنان، مـع أني في الحقيقة أعيش في الصحراء؟

قال: الحقيقة ما تعيشه روحك، لا ما يعيشه جسدك.

قلت: ولكن قومي يعتبرون هـذا من الـوهم الـذي يبعـدك عن الحقيقة.

قـال: دعـك من قومـك، وامتلأ بالحكمـة الـتي لا تعـرف الزمان والمكان.

قلت: فهمت قولك .. فلا زالت قيود قومي تمسك بي.

قال: فافتح بصيرتك الآن .. فسترى أبواب المدائن.

فتحت بصيرتي، فرأيت الصحراء قـد انـزاحت رمالهـا من حولي وبين يدي، ثم رأيت بابـا عظيمـا مفتوحـا، وقـد علقت عليه لافتة كتب عليها قولـه تعـالى: ادْخُلُوهَـا بِسَـلامٍ آمِنِينَ) (الحجر:46)

قال: هلم بنا لنـدخل هـذه المدينـة من بابهـا .. وإيـاك أن تـدخل إلا من الأبـواب الـتي آذن لـك في دخولهـا، فبعضـها سراديب ومصايد.

قلت: يا معلم .. وأين مفاتيح أبوابها؟

قـال: مفـاتيح أبوابهـا هي الحقـائق .. ليس لهـا مفـاتيح غيرها.

قلت: فهي ككنوز الفقراء إذن.

قال: بل هي ككل أبواب الدنيا وكنوزهـا، فمفـاتيح أبـواب الكون هي الحقائق.

قلت: ولكن حقائق أبوابهـا عنـدك، فهلم لنـدخل المـدائن من غير أن نضيع أوقاتنا في الأبواب.

قال: لن يؤذن لك بالدخول إلا بعد أن تحمل مفتاحـك، فلا

يصح التطفل في هذه البلاد، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (الاسراء: 15)

قلت: بلى.

قال: فهلم نتبصر الحقائق، ونفتح الأبواب.

مفتاح الاحتساب

كان أول باب قابلنا بعد دخولنا من الباب الأكبر بابا يحمـل صـورا لنـاس خـاملين كـادوا يـذوبون من فـرط خمـولهم .. وفجـــأة لاح نـــور عظيم ســـرى إلى عقـــولهم ومنهـــا إلى أجسادهم، فهبوا بأعظم نشاط.

وقد سرى إلي من ذلك النـور مـا جعلـني أشـعر بنشـاط وحيوية عجيبة، سألت المعلم عن سر هذا الباب، فقال: هـذا باب الاحتساب.. ولن ندخل منه حتى ننال مفتاحه.

قلت: ومن أين لنا أن نحصل على مفتاحه؟

قال: عندما تعي ضرورة هذا الباب، وتدرك أهميته ستنال مفتاحه.

قلت: وكيف لي أن أعرف ذلك؟

قال: هل تحتاج إلى من يشرح لك وجه الحاجة إلى المـاء والطعام؟

قلت: لا .. فالحس الضروري البداهي يجعلني أدرك ذلك.

قال: فإذا عرفت بذلك الحس البداهي حاجتك للاحتسـاب ستنال مفتاحه.

قلت: فما الحاجة إلى الاحتساب؟

قال: الاحتساب أول مراتب السعي، فإن النفس الخاملة، والهمـة المنحطـة، والعجـز القاعـد، لا ينهض بهم إلا مـا ينفخ فيهم روح النشاط، ويحيي فيهم نشاط الروح.

ضـحكت، وقلت: نحن نطلـق على هـذا لقب التشـجيع.. ونحن نسـتعمله في العـادة في مباريـات في كـرة القـدم،

فنشجع فريقا من فرقها؟

قال: دعنا من لغوكم وصـراعكم، فمـا هـذه الكـرة الـتي تهتفون بها سـوى لغـو من لغـو الشـيطان ينفخـه فيكم كمـا تنفخون جلدها.

قلت: ولكنها رياضة؟

قال: الرياضة لمن يمارسها .. لا لمن يتفـرج عليهـا .. هي كالعلم تماما هو لمن يعمل به لا لمن يصفه ويتحدث عنه.

قلت: ولكنها تنشئ فينا نشاطا وحيوية وشبابا؟

قال: ولكنها تنشئ بينكم صراعا، وتفرغ لكم جيوبا، وتهدر لكم طاقات.

قلت: صدقت، فنحن نصرف عليها مصاريف ضخمة.

قال: لو أنكم وفرتموها لاستطعتم توفير أسباب الرياضـة لشعوبكم جميعا لا لأفراد محدودين.

قلت: صـدقت، فنحن في عصـرنا لا نتعامـل مـع أفـراد الشـعوب، بـل نتعامـل مـع ممثليهم والنخبـة منهم، فننفخهم وندللهم ونسمنهم.

قال: وتتركون غيرهم يموت هزالا.

قلت: صـدقت في ذلـك.. فهـذا هـو الواقـع المـر الـذي نعيشه.. عد بنا إلى ما كنا فيه.

قال: إلى من يتوجه قومك بالتشجيع؟ وكيف؟

قلت: رويـدك يـا معلم، فقـد سـألت سـؤالين كـل واحـد منهما يحتاج موسوعة خاصة به.

قال: فقل لي أولا: من هم الأشخاص الـذين يتوجـه إليهم قومك بالتشجيع؟

قلت: أولهم الحكام، فما إن يخطب الحاكم خطبـة، حـتى

ينهض الشعب من سباته العميق يحمل لافتات ضخمة، وصورا كثيرة تمجد الحاكم وتسبح بحمده.

قال: ويتركون أشغالهم لأجل ذلك؟

قال: بل إن المرأة لتذهل عن رضيعها لأجل ذلك، فتصيح مع الجموع لتسكت بصياحها صياح ابنها.

قال: ومن تشجعون أيضا؟

قلت: الفنانين.

قال: أتقصد الذين يتذوقون الجمال فينشرونه شعرا أو نثرا؟

قلت: لا .. أقصد الذين يتفننون في إضحاك الناس أو في إخراج الدموع من مآقيهم.

قال: بالوعظ والإرشاد، أو بالتعليم والتدريب؟

قلت: بل بالصياح والنفير، والرقص والصفير.

قال: أعادت جاهلية المكاء والصفير.

قلت: تلك جاهلية أولى، أما جاهليتنا فأكثر إبداعا وتفننا.

قال: فمن تشجعون أيضا؟

قلت: أصحاب الرياضات المختلفة كما ذكرت لك، وخاصة كرة القدم.

قال: أنتم لا تشجعون أصحاب الرياضات، وإنما تشجعون من يمثلهم.

قلت: نحن في كل الأشياء نفعل ذلك.

قال: فمن تشجعون أيضا؟

قلت: من يقدمون لنا خدمات إنسانية.

قال: هذا شيء جميل.

قلت: رويدك يا معلم، فنحن لا نشجع هذا الصنف إلا بعد أن يأوي إلى الثرى، أو يكاد يأوي إلى الثرى.

قال: فما فائدة التشجيع حينذاك؟

قلت: لنحذر من يسلك سبيلهم من الغرق في متاهة النسيان.

قال: فكيف تشجعون؟

قلت: أما الأثرياء، فنشجعهم بزيادة ثرائهم، وأما االفقراء والمحتاجون، فنشجعهم بشهادات تقديرية.

قال: فهل تشجعون العمال الذي يعتمد رزقكم على اجتهادهم؟

قلت: العمال هم طبقة المنبوذين في مجتمعنا.

قال: ولكن طبقة المنبوذين طبقة هندية لها علاقة بالديانات الهندية.

قلت: ألم تسمع قوله ﷺ:(لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي أخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع، قيل: يا رسول الله! كفارس والروم؟ قال: ومن الناس إلا أولئك)(1)

قال: وكيف يعيش هؤلاء العمال بدون تشجيع؟

قلت: يلتهمهم وحش الروتين القاتل الذي يعيشونه، أو تشغلهم أنواع اللهو التي يستهلكونها.

قال: فلماذا لا يطالبون بالتشجيع؟

ضحكت، وقلت: هم يعرفون أن هذا الاسم لا يرتبط إلا بمن ذكرت، فإذا تجرأ أحدهم، وطالب بالتشجيع، قيل له: ارتق أولا من طبقة المنبوذين التي تعيش فيها إلى طبقات

---

1) رواه البخاري.

الفنانين والرياضيين والحكام لنشجعك.

قال: قد عرفنا رياح الجاهلية، فهيا لنعرف سلام الإسلام.

قلت: فهل يضع الإسلام لهؤلاء العمال جوائز؟

قال: جوائز أعظم من الجوائز التي ينالها حكامكم أو فنانوكم.

قلت: فما الغرض من وضع هذه الجوائز .. وما حاجة العمال لها؟

قال: ألم تقرأ في كتب الفقه ما ورد في النصوص من الترغيب في الوضوء والصلاة والصيام، وكل الأعمال الصالحة؟

قلت: بلى، بل لقد كتب المنذري في ذلك كتابا عظيما سماه (الترغيب والترهيب)، وكتب النووي كتابه المشهور (رياض الصالحين)، وكتب ..

قاطعني، وقال: فما غرضهم من ذلك؟

قلت: بعث الهمم إلى العمل الصالح.

قال: ودخولهم إلى العمل بالنية الصالحة.

قلت: لم أفهم؟

قال: من علم أن الله تعالى أعد أجرا معينا لعمل معين دخله مؤمنا محتسبا، ومن دخل العمل مؤمنا محتسبا أعطاه الله ما طلب من أجر.

قلت: لكأني بك تشير إلى النصوص الكثيرة التي تقيد بلوغ الأجور لأصحابها باحتسابهم، كقوله ﷺ:(من لقي الله لا يشرك به شيئا وأدى زكاة ماله طيبة بها نفسه محتسبا وسمع وأطاع فله الجنة)(1)

---

1) رواه أحمد.

قال: وقوله ﷺ:(من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر لـه ما تقـدم من ذنبـه)(1)، وقولـه:(من قـام ليلـة القـدر إيمانـا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه)(2)

قلت: وأحاديث أخرى كثيرة .. ولكن ما فائدة هذا؟

قال: أن ينتقل العمل من العادة إلى العبادة، ومن قصره على أجر الدنيا إلى العروج به إلى سموات الآخرة، بالإضافة إلى ما يحدثه في النفس من سكينة وطمأنينة.

ثم التفت إلي، وقال: ما الفرق بين من يعمل العمـل، ولا ينتظـر عليـه من الجـزاء إلا مـا يعطيـه مسـتأجره.. إلى أي شيء يكون نظره؟

قلت: إلى الأجـر، فـإن عظم حصـل الإتقـان، وإن قصـر قصر الإتقان.

قــال: ولكن من عمــل وهــو لا ينتظــر فقــط أجــر من استأجره، بل ينظر ـ كذلك، وقبله وبعـده ـ إلى الأجـر الـذي أعد الله له.

قلت: سيكون إتقانه أعظم، وأجره أوفر، بالإضافة إلى ما يكسبه من راحة نفسية.

قـال: بالإضـافة إلى هـذا .. ألا تـرى أشـياء كثـيرة تطبـع مدنكم وشوارعكم بصور لا تليق؟

قلت: كالقمامات مثلا، وكأبنية مهدمة لم تجد من يرممها، أو أنابيب طالها الصدأ لم تجد من يصلحها..

قال: وأشياء أخرى كثيرة ..

قلت: إن المكلف بذلك يزعم أن القيام بكل تلك الأعمال يحتاج ميزانية ضخمة ينوء بها ظهر الخزانة.

---

1) رواه البخاري.

2) رواه مسلم.

قال: هنا يبدو فضل الاحتساب، وفضل مفتاح التشجيع.

قلت: كيف؟

قال: إذا انتشر في الأمة وعي ــ بفضل هذا المفتاح المعتمد على الاحتساب ــ ستؤدى جميع هذه الأعمال، وبإتقان عظيم، ومن غير أن ترهق أحدا.

قلت: كيف؟

قال: إذا عرفوا فضل تنظيف شوارعهم، والأجور التي أعدها الله لذلك، والرضوان العظيم الذي ينتظر من فعل ذلك سيتنافسون بل يتزاحمون في رفع القمامات، وترميم الجدران، وإصلاح العيوب ..

قلت: لقد ذكرتني بقوله تعالى: فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (الكهف: 77)

قال: هذه الآية الكريمة تشير إل هذا المعنى، فبالرغم من الأذى الذي حصل لموسى والخضر ــ عليهما السلام ـ من أهل القرية، إلا أن ذلك لم يمنع الخضر ﵇ من أن يقيم جدارا كان يهم بالسقوط من غير أن ينتظر على ذلك أجرا، بل إنه لم يرض عندما سأله موسى ﵇ أن يبتغي الأجر بذلك العمل.

قلت: ولكن ذلك سيشجع الدولة على حبس خزانتها على أهوائها وترك الشعب للاحتساب.

قال: هذه أوهام تتوهمونها لا مخاوف حقيقية، فمن المستفيد من الضياع الذي تعيشه مجتمعاتكم؟ أنتم تتهمون الفقر، ولكن الفقر لا يمنعكم من أن تنظفوا بيوتكم وأفنيتكم وثيابكم وتكونوا كالشامة بين الناس.

إن مثلكم كمثل من أصيب بعض ثوبه بوحل الطريق، وكان في إمكانه تنظيفه، فغضب على نفسه وخاض في

الوحل بيديه ورجليه وصدره ورأسه، فما يغنيه ذلك؟ .. وكذلك مثلكم أنتم .. كان الفقر لباسا خفيفا لامس بعض جوارحكم، فأبيتم إلا أن تجعلوه لباسا لكيانكم كله.

قلت: فالاحتساب إذن علاج للفقر؟

قال: لا .. بل هو علاج لنهضة الأمة جميعا .. فلا يمكن أن يؤدى أي عمل بإتقان تام إذا لم يطلب فيه وجه الله، أو ما وظف الله من الأجور.

قلت: كيف؟

قال: المدرس الذي ينال أجره الدنيوي، ولكنه لعلو همته لا يكتفي به، بل يبتغي بعمله وجه الله والدار الآخرة، فيقول: سأربي من وكلت بتدريسهم، وأنقل لهم كل خبرتي ليساهموا في نهضة أمة محمد ﷺ، وسأنال على ذلك من الأجر بكل حرف أقوله، ففي كل ثانية تنهال علي الأجور والدرجات والرضوان ما يملؤني بالسعادة .. أهذا المدرس سينجح في ما وكل إليه من مهام؟

قلت: لا ينجح فقط، بل لو أن كل المدرسين سلكوا سلوكه لتحولت بلادنا إلى عالم غير الذي نراه.

قال: وهكذا التاجر والصانع والفلاح الذين لا يكتفون بما تدر عليهم أعمالهم من أرباح، بل ينتظرون من أجور الله ما يجعلهم يشعرون بأنهم عمال عند الله لا عند الناس.

قلت: لو أن هذا سرى بين الناس لتبدلت الأرض غير الأرض .. ولكن هل ذلك ممكن؟

قال: كل شيء ممكن.

قلت: كيف؟

قال: بالتشجيع.

قلت: أللتشجيع كل هذه القيمة؟

قال: ولذلك كان أول باب من أبواب السـعي .. فالنهضـة لا تقوم إلا على الهمم العاليـة، والهمم لا تعلـو إلا إذا وجـدت من يرتقي بها.

قلت: ولكن من يقوم بالتشجيع؟ .. أئمة المساجد ..

قال: لا الأمة جميعا بكـل طاقاتهـا .. ألسـتم تسـتخدمون وسائل الإعلام لإشهار السلع؟

قلت: بلى، فنحيي الميت، ونحول من المعـدوم موجـودا، ومن الدميم جميلا، ومن القذارة طهارة.

قال: ويقبل الناس على ذلك مصدقين.

قلت: بل ومتهافتين.

قال: فقـد صـدقوكم وأنتم تكـذبون، فكيـف لا يصـدقوكم وأنت تصدقون؟

قلت: ولكن وسـائل الإعلام لا تسـمح بتلـك الإعلانـات الإشهارية إلا بعد أن تنال أجورها.

قال: فلتحتسب بعض أجورها، ألم نعرف بـأن الاحتسـاب ركن أساسي من أركان نهضة الأمة؟

قلت: بلى ..

لاح لي أربعة أبواب داخل مدخل باب التشـجيع، فسـألت معلم السـلام عنهـا، فقـال: هـذه الأبـواب هي الـتي تحـوي الجوائز التي ينالها العمال المحتسبون.

قلت: وما هي؟

قال: الأجور المضاعفة، وتكفير الخطايا، ورفع الـدرجات، وزيادة البركات.

الأجور المضاعفة:

اقتربت من الباب الأول، فقـال المعلم: هـذا بـاب الأجـور

المضاعفة.

قلت: فما هي هذه الأجور؟

قال المعلم: لقد ورد في النصوص اقتران السعي في الأرض طلبا لفضل الله بأعمال لها من الأجور ما لا يمكن احتسابه.

قلت: لماذا؟

قال: أرأيت لو أن شخصا كلف بوظيفة، فسأل عن الأجر الذي يعطاه، فقيل له: سنعطيك أجر الوزير أو الحاكم، أو سنجعل أجرك وأنت وحدك كأجر جماعة تعمل أعمالا مرهقة.

قلت: إن هذا أجر عظيم، وأنا ضامن بأن هذا الشخص سينبعث إلى عمله بنشاط عظيم، بل لعله سيضيف من عنده أعمالا أخرى يشكر بها من قدم له هذا الأجر، ويستبقي وده.

قال: فلهذا ورد في النصوص المقدسة اقتران السعي بأعمال لا حدود لأجرها.

قلت: فما هي هذه الأعمال؟

قال: أولها الجهاد، ألا تعلم ما أعد الله للمجاهدين من الثواب؟

قلت: بلى، فقد اعتبر القرآن الكريم الجهاد في سبيل الله من أعظم أبواب الجنة، فقال تعالى: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة:111)

وفضل الله المجاهدين على غيرهم من المؤمنين، فقال تعالى: لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ

وَالْمُجَاهِـدُونَ فِي سَـبِيلِ اللّهِ بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ فَضَّـلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَـةً وَكُلّاً وَعَـدَ اللّهُ الْحُسْـنَى وَفَضَّـلَ اللّهُ الْمُجَاهِـدِينَ عَلَى الْقَاعِـدِينَ أَجْـراً عَظِيماً﴾ (النساء:95)

وأخبر ﷺ بأن الحركة البسـيطة في سـبيل اللـه خـير من الدنيا وما فيها، فقال:(لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها)(1)

وأخبر عن الجزاء المعد للمرابط في سبيل الله، فـاعتبره لا يقل عن جزاء الصائم القائم القانت الذي لا يقعد عن ذلك طيلة غياب المجاهد في سبيل اللـه، فقـال: (مثـل المجاهـد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفـتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله)(2)

قال: أليست هذه أجور عظيمة؟

قلت: كيف لا تكون عظيمـة؟ .. بـل إن هـذه الأجـور هي التي تحرك القلوب المؤمنة المحتسبة للنهوض في وجه كـل ظالم، ونصرة كل مستضعف.

قال: وهذه النصوص نفسها هي التي أخبرت بأن للعامـل إن احتسب من الأجر ما لا يقل عن أجر المجاهـد، فقـد رأى بعض الصحابة شاباً قوياً يسـرع إلى عملـه، فقـالوا: لـو كـان هذا في سـبيل اللـه! فـرد رسـول اللـه ﷺ عليهم بقولـه: (لا تقولوا هذا ؛ فإنه إن كان خرج يسعى على ولده صـغاراً فهـو في سبيل الله، وإن كـان خـرج يسـعى على أبـوين شـيخين كبيرين فهو سبيل اللـه، وإن كـان خـرج يسـعى على نفسـه يعفُّهـا فهـو في سـبيل اللـه، وإن كـان خـرج يسـعى ريـاء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان)(3)

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه الطبراني في الكبير.

قلت: يا معلم كيف هذا؟.. والمجاهد يذهب بنفسه وماله وقد لا يعود بواحد منهما، بينما العامل مطمئن في بيته يسعى على رزقه.

قال: لأن كليهما مجاهد في سبيل الله.

قلت: كيف!؟ .. فإن فهم هذا صعب.

قال: الجهاد الذي هو حمل السلاح لا يكون في الشريعة إلا لطارئ، وهو أشبه بالجراحة التي يقوم بها الطبيب لنزع علة معينة، أما الجهاد الذي هو حمل الفأس والضرب في الأرض، فإنه لعمارة الدنيا التي أمرنا بعمارتها، فلا يليق أن نملأ الدنيا التي هي دار الضيافة الإلهية بالجهاد المدمر، ولا نملؤها بالجهاد المعمر.

قلت: ولكن فضل الشهادة عظيم؟

قال: وفضل الحياة الممتدة في سبيل الله أعظم، بل إن الله تعالى قدم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضله على المجاهدين، فقال:﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (المزمل: 20)

قلت: أجل، لقد قرن الله تعالى في هذه الآية بين الجهاد والضرب في الأرض.

قال: بل قدم الضرب في الأرض على الجهاد، فلا يمكن للمجاهد أن يجاهد لولا وجود من يضرب في الأرض.

قلت: فإن كثيرا من أغرار قومي قرأوا ما ورد في فضل الجهاد والموت في سبيل الله، فراحوا يحملون السلاح على كل غاد ورائح.

قال: فأخبروهم عن فضل العمل، وفضل الحياة في سبيل الله، وأعطوهم بدل أسلحتهم ما يرفع هامتكم ويحصن ثغوركم.

قلت: حصوننا محمية بجيوش لا قبل لأحد بها، وبأسلحة هي في غاية التطور.

قال: ولكنكم تغزون علميا واقتصاديا وإعلاميا .. أنت تغزون في بيوتكم كل حين ولكنكم لا تشعرون.

قلت: وعيت هذا.. فما غيره؟

قال: لقد قرن الله تعالى السعي في عمارة الأرض بالعبادة، فقال:﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة:10)

قلت: وورد اقتران الكسب بالحج، فقال تعالى:﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ (البقرة:198)، فمن الأقوال في تفسير قوله تعالى:﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُم﴾ (الحج: 28) أن المنافع (الأجر في الآخرة والتجارة في الدنيا)

قال: أتدري ما أسرار هذا الاقتران؟

قلت: ماهي؟ فأنا لا ألحظ أي سر في ذلك.

قال: إن كلام الحكيم مرتب ترتيبا بديعا، فلا يقرن شيء بشيء إلا لأهميته، أرأيت لو قال لك شخص:(أعطيك مليار دينار ودينار)؟

قلت: أضحك على هذا، وأقول: ما يساوي الدينار أمام المليار، بل لعلي أقول له:(دع الدينار لك، فأنا يكفيني أن تعطيني المليار)

قال: فقد رأيت إذن أنه لا يقرن الأجر العظيم إلا بالأجر العظيم.

قلت: نعم، فهمت، فلولا ما في العمل من القيمة ما قرن بالصلاة والحج اللذين هما من أركان الإسلام.

قال: وبالإضافة إلى هذا، فقد ورد في النصوص ما يدل على أن كل منتفع بعمل العامل يصب في أجره، فقد قال قال ﷺ في إحياء الأرض:(ما من امرئ يحي أرضا فتشرب منها كبد حرى، أو تصيب منها عافية إلا كتب الله تعالى له به جرا)(1)، وقال في أجر من أحيا أرضا ميتة:(من أحيا أرضا ميتة فله فيها أجر، وما أكلت العافية منها فهو له صدقة)(2)، وقال في غرس الغرس:(ما من مسلم يزرع زرعا أو يغرس غرسا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كانت له به صدقة)(3)، وقال:(ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقة وما سرق منه صدقة، وما أكل السبع فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة)(4)

قلت: هذه أجور عظيمة.

قال: فما تأثيرها فيمن يفقهها؟

قلت: لن يترك دقيقة واحدة من عمره تمضي إلا وهو يحي الأرض وينميها لينال من الأجر ما يناله.

قال: فإذا لم يجازه الناس على جهده هذا؟

قلت: لقد وعده الله بالأجر، فما انتظاره لأجوره الناس؟

قال: ولهذا قال ﷺ:(إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها)(5)

رفع الدرجات:

---

1) رواه الطبراني في الكبير.

2) رواه أحمد والترمذي وابن حبان ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

3) رواه أحمد والترمذي.

4) رواه مسلم.

5) رواه أحمد وعبد بن حميد، والبخاري في الأدب.

اقتربت من الباب الثاني، فقال المعلم: هذا باب (رفع الدرجات)

قلت: فما باب الدرجات؟

قال: ما هو منتهى آمال العمال عندكم غير الأجور؟

قلت على البديهة من غير تفكير: الترقية.

قال: وما الترقية؟

قلت: أن ينتقل العامل البسيط إلى نائب لرئيس للعمال، وأن يرتقي النائب إلى درجة الرئيس، وهكذا ..

قال: ألأجل الأجر المرتفع للمنصب الأعلى؟

قلت: ليس ذلك فقط، بل أحيانا لا يكون هناك اختلاف كبير في الأجور، ومع ذلك يطمح كل عامل في منصب أرقى.

قال: لماذا إذن؟

قلت: هذا شيء نفسي، فكل إنسان يحب أن يكون له من المناصب أرفعها .. لقد عجن هذا في طبيعة الإنسان عجنا.

قال: فما تسمونه بالترقيات تسميه النصوص بالدرجات، وهي من أنواع الجزاء التي ينالها الساعي المحتسب .. وهي من الجزاء الذي وضعه الله لملء تلك الحاجة الإنسانية الطالبة للترقي.

قلت: فما هي هذه الدرجات؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى: وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (التكوير:7)، وقوله: وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً (الفرقان:13)

قلت: أجل، لقد ورد في تفسير هذه أن المراد منه الجمع

بين النظراء أو الأشكال منهم كل صنف إلى صنف.

قال: أتجد تشبيها لهذا في واقع قومك؟

قلت: أجـل، بـل مـا أسـهل تشـبيه هـذا، فنحن مثلا في مؤتمراتنا ننزل كـل نظـير مـع نظـيره، فأصـحاب المقامـات العالية نـنزلهم الفنـادق الفخمـة، ومن دونهم نـنزلهم مـا هـو دونها، وهكذا، حتى لا يبقى إلا المتفرجون، فننزلهم الشـوارع والساحات.

قال: فاجمع بين هذين المعنـيين وابحث في سـير الكمـل من عباد الله، فسيتضح لك علـو المقامـات والـدرجات الـتي ينزلها الساعي والعامل المحتسب.

قلت: فمن هم الكمل، وكيف كانوا؟

قال: أكمل الكمل هم الأنبياء ــ عليهم الصـلاة والسـلام ـ وقد كانوا كلهم عمالا يأكلون من عمل أيديهم.

قلت: صدقت.. فقد ورد في الآثـار أن نوحـا كـان نجـارا يأكل من كسبه، وأن إدريس كان خياطا، وأن إبــراهيم كــان بــزارا .. وأن داود كــان يأكــل من كســبه.. وغــيرهم عليهم الســلام.. ولكن في النفس شــبهة أريــد أن تــأذن لي في ذكرها، وتصبر علي في طرحها، وفي الإجابة عليها، فـإن لهـا بين قومي نظيرات.

قال: تريد أن تقول بأن في السـعي انحطـاط عن الهمـة العلية، كما قال ابن عطاء الله:(إرادتُكَ التجريدَ مع إقامةِ الله إِيَّاكَ في الأسباب من الشَّهوة الخفيةِ، وإرادتُكَ الأسـبابَ مـع إقامةِ اللـه إِيَّاكَ في التجريـد انحطـاطٌ عن الهِمَّةِ العَلِيَّةِ) .. أو تريـد أن تقـول مـا روي عن يوسـف بن الحسـين:(إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص والكسب، فليس يجيء منه شيء) ؟

قلت: هو ذا ما أردت، فالله تعالى قال في كتابه: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (الذريات:56)، وفي الاشتغال بالكسب ترك ما خلق المرء لأجله وأمر به من عبادة ربه.. وقال تعالى: وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (طه:132)، والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فالمراد أمته، فقد أمروا بالصبر والصلاة وترك الاشتغال بالكسب لطلب الرزق، فالله قد ضمن الرزق لعباده، ولا أظن ابن عطاء الله إلا استنبط قوله:(اجتهادُكَ فيما ضَمِنَ لكَ، وتقصيرُكَ فيما طَلَبَ منكَ، دليلٌ على انْطماسِ البصيرةِ منْكَ) إلا من هذه الآية.. وقال ..

قال المعلم: رويدك .. هذه شبهة تحتاج إلى تأن في طرحها، وهي شبهة قديمة، لذلك سنعرض ما تستند إليه واحدا واحدا، لنبين وجه الحق فيه ووجه الباطل.

قلت: نعم، فقد رسخت في بعض آثار هذه الشبهة من كتب قرأتها، ومن واقع عشته.

قال: أما الآيتين اللتين أوردتهما، فإن الذي قالهما هو الذي حث على السعي في الأرض ابتغاء لرزق الله، فقد قال تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (الملك:15)، أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات.

قلت: ولكن الله تعالى ضمن الرزق لعباده، فقال: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (هود:6)

قال: وهذا صحيح، وهل تتصور الإنسان بسعيه يسعى لأجل صنع رزقه؟

قلت: ولم يسعى إذن؟

قال: هو يسعى للحصول على رزقه وأكله، أما الرزاق فهو الله.

قلت: اشرح لي هذا، فإنه يصعب علي فهمه.

قال: لو تـأملت جميـع أسـباب الـرزق الـتي يرتـزق منهـا الإنسان لوجـدتها جميعـا لا يمكن تحققهـا من دون اللـه، أمـا سعي الإنسان فهو مجرد تناول لـذلك الـرزق وأكـل لـه، ألم تسمع قوله تعالى: أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (الواقعة:63 ـ 67)؟

قلت: بلى، فما فيها من العلم؟

قال: إن الله تعالى ينفي عنا في هذه الآيات الوهم الـذي نحمله في نفوسنا من أننا نحن المتسببون في حصول الزرع والثمار اللذين هما الغذاء الأساسي للإنسان.

قلت: هذا ليس وهما، بل هذه حقيقة.

قال: لو كانت هذا حقيقة لمات الخلق جميعا من الجـوع، لأن ذلك سيستدعي موظفين يرعون النبتة ويمدونها بالحيـاة وأسباب الحيـاة إلى أن تثمـر، ولـو اجتمـع الخلـق جميعـا أن يفعلوا ذلك بنبتة واحدة لم يطيقـوا، بـل اللـه هـو الـذي يمـد النبتة بالقوى التي تمكنها من استغلال مـا حولهـا من الميـاه والتربة والهواء والضوء لتنتج لنا بعد ذلك ما شاء الله لنـا من رزق.

قلت: فأنت تقول بتأثير الأسباب؟

قال: أي شيء تقوله في هذا صحيح، عـزلت الأسـباب أو أثبتها، فالله هو الخالق، خالق العلة وخالق المعلول.

قلت: فهمت هذا، وأنا لا أجادل فيـه، ولكـني أتحـدث عن المقامات الرفيعة التي تهفوا إليها نفوس العارفين، ويخافون أن ينشغلوا عنها بأي مكسب أو رزق.

قال: سادة العارفين هم الأنبياء، وقد عرفت أحـوالهم في طلب الرزق، ولم نطالب بالاقتداء الكامل إلا بهم، ألم تسمع قولـه تعـالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ هَـدَى اللَّهُ فَبِهُـدَاهُمُ اقْتَـدِهْ

(الأنعام: 90)

قلت: ولكن الأنبياء لا يشغلهم شيء عن الله.

قال: تريد من دونهم.. فأولياء الأمة وصالحوها كـانت لهم أشـغالهم وحـرفهم الـتي لم تلههم عن الرسـالة الـتي وكلت لهم من حفظ هذا الدين وتبليغه.

قلت: أنا لا أنكر السعي، ولكن ..

قال: أنت تتحدث عن الهمة العالية .. أجبـني أيهمـا أرفـع همة المتكسب الذي يسعى لينال رزقه، وينال الناس رزقهم بسببه، أم القاعد الذي ينتظر رزقه أن يأتيه؟

قلت: إن اشتغل ..

قاطعني، وقال: قبل أن تجيبني اسمع لهذه القصـة الـتي رويت عن عن شـقيق البلخي، وقـد كـان من أهـل العبـادة والزهـد، فقـد ودَّع صـديقه إبـراهيم بن أدهم لسـفره في تجارة عزم عليها. ولم يلبث إلا مدة يسـيرة، ثم عـاد، ولقيـه إبراهيم، فعجب لسرعة إيابه من رحلته، فسأله عما رجع بـه قبل أن يتم غرضـه، فقصَّ عليـه قصـة شـهدها، جعلتـه يغـير وجهته ويلغي رحلته، ويعود قافلاً.

ذلك أنه نزل للراحـة في الطريـق، فـدخل خربـة يقضـي فيها حاجتـه، فوجـد فيهـا طـائراً أعمى كسـيحاً لا يقـدر على حركة، فرَقَّ لحاله، وقال: من أين يأكـل هـذا الطـائر الأعمى الكسيح في هذه الخربة؟ ولم يلبث أن جاء طائر آخر يحمـل إليه الطعام ويمده به، حتى يأكل ويشبع، وظـل يراقبـه عـدة أيام وهو يفعل ذلك، فقال شقيق: إن الذي رزق هذا الطـائر الأعمى الكسـيح في هـذه الخربـة لقـادر على أن يرزقـني! وقرر العودة.. أتدري ما قال له إبراهيم بن أدهم؟

قلت: ما قال؟

قـال: قـال لـه:(سـبحان اللـه يـا شـقيق! ولمـاذا رضـيت لنفسك أن تكون الطـائر الأعمى العـاجز الـذي ينتظـر عـون

غيره، ولا تكون أنت الطائر الآخر الذي يسعى ويكـدح ويعـود بثمـرة ذلـك على من حولـه من العمي والمقعـدين؟! أمـا علمت أن النبي ﷺ قال:(اليد العليا خير من اليد السفلى)؟

فقـام إليـه شـقيق وقبَّل يـده وقـال: أنت أسـتاذنا يـا أبـا إسحاق!

قال: فأيهما أرفع همة من تشبه بصـفة اللـه (الـرزاق) أم من تشبه بصفة العبد المرزوق؟

قلت: صــحيح هــذا .. ولكن ألا تشــغل المكاســب عن السلوك إلى الله؟

قال: السلوك الصـحيح لا يكـون إلا في الواقـع، فلا يمكن أن تأخــذ النــاس إلى الفلــوات لــتربيهم، وقــد كــان بعض المشايخ المـربين يقـول:(مـا أجمـل أن يجعـل الفلاح فأسـه مِسبحته، ويجعـل النجـار منشـاره مِسـبحته، ويجعـل الحـداد مطرقته مِسبحته، وهكذا)

وقد حكى ابن عطاء الله ـ الذي أسأت فهم حكمته ـ عن بداية صلته بشيخه أبي العباس المرسي، فذكر أنه سمع من أصـحابه من طلبـة العلم أن الـذي يصـحب مشـايخ الطريـق يضمُر حظه في العلم الشرعي الظاهر، قال: فشقَّ عليَّ أن يفوتني العلم، وشقَّ عليَّ أن تفوتني صُحبة الشيخ.

فلما ذهب إلى الشيخ كان أول ما بادره به أن قـال:(نحن إذا صحبنا تاجر، ما نقول له: اترك تجارتك وتعال، أو صـاحب صنعة، ما نقول له: اترك صنعتك وتعـال، أو طـالب علم، مـا نقول له: اترك طلبك وتعال، ولكن نقر كل أحـد فيمـا أقامـه الله فيه، وما قسم له على أيدينا فهو واصل إليه.

قال: وقد صحب الصحابة رسول الله ﷺ، فما قال لتاجر: اترك تجارتك، ولا لذي صنعة: اترك صنعتك، بل أقــرَّهم على أسبابهم، وأمرهم بتقوى الله فيها.

تكفير الخطايا:

اقتربت من الباب الثالث، فقال المعلم: هـذا بـاب تكفـير الخطايا.

قلت: أهذه جائزة تشجيعية؟

قال: بل من أعظم الجوائز التشجيعية.

قلت: فاضرب لي مثالا على ذلك أعيه، ويعيه قومي.

قال: أتعلم أخطر ما يقف في وجه المجـرم الـذي تنـاهى في الإجرام، فيحول بينه وبين التوبة؟

قلت: نفسه الأمارة بالسوء، وشيطانه الرجيم الذي يـزرع في نفسه ما ينبت تلك الجرائم.

قال: وتلك النظرات القاسـية الـتي يجـدها في المجتمـع، إمـا نظـرات الخـوف أو نظـرات الاسـتعلاء .. فلـذلك لا يجـد علاجا يمسح به جرائمه إلا المزيد من الجرائم.

قلت: هو إذن كالواقع في الإدمان يعالج الداء بالداء.

قال: نعم هو كذلك ..

قلت: أريد توضيحا أكثر لهذا، أعيه ويعيه قومي.

قـال: أرأيت لـو أعطيت مـا شـئت من الأمـوال على أن تتحمل جريمة من الجرائم الخطيرة، بأن تنسـبها إليـك، ولـو لم تفعلها، على أن يضمن لك البراءة من الملاحقة، أترضــى بذلك؟

قلت: لا .. ولا أظن أن هناك من يرضى، فالمال لا يمكنـه أن يغسـل الوسـخ الـذي ينشـئه رمـيي بتلـك الجريمـة في المجتمع.

قال: فالبراءة إذن فوق الأجور؟

قلت: بل أحيانا فوق الـدرجات، فالمسـؤول الكبـير ينهـار من برجـه العـاجي الـذي بنـاه طـول حياتـه بسـبب فضـيحة

واحدة تسببها شهوة من شهواته.

قال: فقد أقررت إذن بأن تكفير الخطايا جائزة.

قلت: نعم، فما أعظم أن يمسح السجل الإجرامي للمجرمين.

قال: فقد أخبر ﷺ إذن بأن التعب الذي ينال الإنسان جراء سعيه على رزقه الحلال مكفر لخطاياه، ألم تسمع قوله ﷺ:(ما يصيب المؤمن من نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا حزن ولا أذى، ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه)(1) ؟

قلت: بلى .. وقد ورد في حديث آخر ما هو أصرح من ذلك، فقد روي انه ﷺ قال:(من بات كالا في طلب الحلال بات مغفورا له)(2) ، فهذا أجر عظيم قد جعله الله لطالب الرزق الحلال.

قال: ويمكنكم أن تستثمروا هذا النوع من الأجر في الدنيا قبل الآخرة.

قلت: كيف، والمغفرة لها علاقة بالآخرة فقط.

قال: ألا تعلم أن الله يحب تشبه عباده بصفات كرمه، فهو كريم يحب الكرماء، رحيم يحب الرحماء، وقد قال ﷺ: (الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)(3)؟

قلت: بلى، فهذه حقيقة تدل عليها النصوص الكثيرة.

قال: فيمكنكم استثمار هذا إذن، فتضعوا لمن تعاقبوهم من الفرص ما يستعيدون به طهارتهم.

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه ابن عساكر.

3) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

قلت: كيف ذلك، ونحن نعاقبهم؟

قال: فلماذا لا تجعلوا نيتكم من عقوبتهم أن تطهروهم؟

قلت: ولكن الحق العام يأبى ذلـك، فهـو يريـد أن يشـفي غليله من المجرمين.

قال: وذلك لا يمنعه من تطهيرهم، بل الحق العام يستفيد من طهارتهم أكثر من استفادته من مجرد عقوبتهم.

قلت: ولكن كيف يحصل ذلك؟

قال: أنـا لا طاقـة لي بوضـع اقتراحـات لكم، فـأنتم أعلم بأمور دنيـاكم، ولكن إن تصـدقوا في البحث، فسـتجدون من فرص الطهارة التي تضعوها بين يدي المجـرمين، مـا يجعـل منهم طاقــات حيــة نافعــة لا قــاذورات مهملــة مرميــة في الزنــازن والسـجون تقتلهـا الكآبـة، أو ترتـع فيهـا وسـاوس الشياطين.

زيادة البركات:

اقتربت من الباب الرابع، فقال المعلم: هـذا بـاب (زيـادة البركات)

قلت: فما الجائزة التي يختزنها هذا الباب؟

قال: هي من الجوائز التي ينالهـا صـاحبها في الـدنيا قبـل الآخرة، ألم تعلم بأن الله تعالى يعجل لعباده الصالحين بعض جوائزهم في الدنيا قبل الآخرة؟

قلت: بلى، فقد قال تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَــنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (النحل:97)

قــال: وأخــبر تعــالى عن تـنزل البركـات على المؤمـنين المتقين، فقال: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَـذَّبُوا فَأَخَـذْنَاهُمْ بِمَـا كَـانُوا يَكْسِبُونَ (لأعراف:96)

قلت: فما البركات؟

قال: هي أن يصبح القليل كثيرا، والصغير كبيرا، والضعيف قويا؟

قلت: كيف ذلك، ولا أرى أنه من الممكن تحول قنطار قمح إلى قنطارين، فكيف يصبح القليل كثيرا؟

قال: ألم تسمع حكمة ابن عطاء الله: (رب عمر اتسعت آماده، وقلت أمداده.ورب عمر قليلة آماده، كثيرة أمداده)؟

قلت: بلى، فهو يتحدث عن شيء واقعي ممكن، فقد يرزق الله من فضله صاحب العمر القصير من الأمداد والفوائد ما لا يظفر به المعمرون.

وقد أشار إلى هذا في الحكمة الأخرى التالية لهذه، بقوله:(من بورك له في عمره أدرك في يسير من الزمن من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة، ولا تلحقه الإشارة)

قال: فقد فهمت ـ إذن ـ معنى البركة.

قلت: لقد فهمت معنى البركة في العمر، فهو لا بآماده، بل بأمداده، وعلى هذا وردت النصوص، كقوله ﷺ:(إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر)(1)، وورد في الحديث أن صلة الرحم تزيد في العمر، فقد قال ﷺ:(من سره أن يبسط له رزقه وينسأ له أثره فليصل رحمه)(2) .. لكني لم أفهم بعد كيف يصبح القليل كثيرا ..

قال: ألم تقرأ الاحاديث التي ورد فيها تكثير الطعام لرسول الله ﷺ؟

قلت: بلى، فقد حصل ذلك مرات كثيرة كما يذكر علماء

---

1) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه

2) رواه أحمد وابن ماجة.

السير.

قال: فقد رأيت فيها أن القليل الذي لا يشبع النهم تحــول إلى الكثير، فيطعم أمة من الناس.

قلت: ولكن هذا يذكر على سبيل المعجـزة، فهـو معجـزة لنبينا ﷺ، لا يذكر كسنة عامة تشـمل جميـع النـاس، وحـديثنا هنا عن العموم لا عن الخصوص.

قال: ألم تسمع قوله تعـالى: ﴿وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ الْقُـرَى آمَنُـوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَـا عَلَيْهِمْ بَرَكَـاتٍ مِنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَـذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَـا كَـانُوا يَكْسِـبُونَ﴾ (لأعـراف:96)، أفهـذه الآيـة خاصة بالأنبياء، أم بأمم الأنبياء؟

قلت: بل بأمم الأنبياء.

قال: فقد وعد الله بتنزل البركـات عليهم، وهـو يعـني مـا ذكرنـاه من تحـول القليـل كثـيرا، والضـعيف قويـا، والهزيـل سمينا ..

قلت: أنـا لا أنـاقش في هـذا، ولكن أنـاقش في تصـوره، فلم أر في حياتي تحول الموازين ولا المقاييس.

قــال: أرأيت إن خــيرت بين أن تــرزق مــالا قليلا، ولكن يبارك لك فيه، فلا تستهلكه إلا فيما يفيدك، ويمتعك، وبين أن تــرزق مــالا كثــيرا، ولكن تــرزق معــه من البلاء كــالأمراض والأشغال ما يفنيه ويحوله قليلا لا يكاد ينفعك.

صـحت: بـل أرضـى بالقليـل، فمـا فائـدة الكثـير الـذي يرهقني، ثم لا أستفيد منه.

قال: فهذا القليل تحول بسبب مباركة اللـه لـه إلى كثـير، بل إلى ما هو أفضل من الكثير .. أجبني .. لو خــيرت بين أن يكون لك عشرة من البنين، وكلهم عـاق ومنحـرف، وبين أن يكون لك ولد واحد، ولكنه بر تقي وصول، فأيهما تختار؟

قلت: بل الولد الواحد، فما فائدة العشرة التي لا تزيـدني

ولا تزيدهم إلا ضياعا وضلالا.

قال: فقد بورك إذن في الولد الواحد بسبب تقواه فصـار أفضل من العشرة.

قلت: فقـد فهمت إذن، فالشـيء يبقى هـو نفسـه، ولكن اللـه تعـالى يبـارك فيـه بحمايتـه من الآفـات، فيصـبح بتلـك الحماية كافيا.

قال: ليس هذا فقط، بل إن الله برحمته وبركته يمده من الزيادة ما لا نستطيع أن نتعرف عليه .. فليس العالم شـهادة فقط .. وكما للحكمة مظاهرها، فللقدرة مظاهرها.

قلت: لقـد نبهتـني إلى نـوع مهم من الغـنى لا يفطن لـه كثير من الفقراء.

قال: ما هو؟

قلت: إن الله يبارك في كثير من أولاد الفقراء، فينجحون في حياتهم، بل يكونـون سـببا في خـروج آبـائهم من ضـائقة الفقر، بينما يتيـه أولاد كثـير من الأغنيـاء في أوديـة الغفلـة .. فهذا من بركات الفقر على أهله.

قـال: لا تفهمـني خطـأ، فالبركـة تشـمل الغـني والفقـير، ونحن لا نفضل أحدهما، بـل للبركـة أسـبابها الـتي تحـل بمن تحقق بها.

قلت: فما أسبابها، فقد شوقتني إليها؟

قال: أولها الالتزام الذي أشار إليه قولـه تعـالى: وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ الْقُـرَى آمَنُـوا وَاتَّقَـوْا لَفَتَحْنَـا عَلَيْهِمْ بَرَكَـاتٍ مِنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِـبُونَ (لأعـراف: 96)

قلت: عرفت هذا .. فهل هناك أسباب أخرى؟

قال: القناعة، فهي من أعظم أسباب البركة.

قلت: أجل، وقد صرحت الأحاديث بـذلك، فقـد قـال ﷺ : (إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبـارك لـه فيـه، كالـذي يأكل ولا يشبع)(1)

قال: ومن أسبابها الصدق، فقد قـال ﷺ:(البيعـان بالخيـار ما لم يتفرقا، فإن صـدقا وبينـا بـورك لهمـا في بيعهمـا، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما)(2) .. ومن أسبابها النشاط ..

قلت: وما النشاط؟

قال: عدم الخلود إلى الكسل في أوقات البركة؟

قلت: أهناك أوقات للبركة؟

قال: نعم، والعاقل هو الذي يبحث عنها.

قلت: أين؟

قال: في الشريعة والواقع.

قلت: أي في النصوص الشـرعية، وفي البحث في سـنن الحياة.

قال: نعم، فكلاهما كتاب الله تعالى.

قلت: فاضرب لي مثالا على ذلك.

قال: ما ورد في النصوص من استحباب التبكير، فقد دعا ﷺ لذلك، فقال:(اللهم بارك لأمتي في بكررها)(3)

قلت: فهمت هـذا، ولعلـه سـبب مهم جـدا من أسـباب الفقـر، فـإني أرى في الواقـع الرجـل ينهض وقت الضـحى يتثاءب كسلا، ليطلب رزقه، ثم يشكو من سد أبـواب الـرزق

---

1) رواه مسلم.

2) رواه البخاري.

3) رواه أحمد.

في وجهه.

قال: ليس هذا فعل رجل واحد فقط، بل كلكم يفعله.

قلت: كيف؟

قال: أنتم تبدؤون يومكم من نصفه لا من أوله.

قلت: كيف؟

قال: ألا تدعون الشمس حتى تطلع، لتنطلقوا في أعمالكم؟

قلت: هذه مواقيت عالمية للعمل.

قال: وما دخل العالم بهذا .. هي مصالحكم وأنتم أدرى الناس بها، ولو لم تناموا ليلا ولا نهارا من أجل الحفاظ عليها لم يناقشكم أحد فيها.

قلت: وعيت هذا.. فللبركة أسبابها إذن؟

قال: لكل شيء سببه، ألم تسمع قوله تعالى:عن ذي القرنين: { إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً} (الكهف:84)، فهل نجح ذو القرنين في المهمة التي وكلت له من غير اتباع الأسباب؟

قلت: كلا، فقد قال الله تعالى:{ فَأَتْبَعَ سَبَباً} (الكهف:85)

قال: ولكن قومك المشغوفين بتحريف المعاني حرفوا معنى البركة تحريفا عظيما.

قلت: أجل .. فهم يذهبون إلى من شهروه بينهم بالولاية يلتمسون بركاته.

قال: فما بركاته؟

قلت: كسر خبز، أو قطع مناديل، أو حبات تمر.

قال: فما يفعلون بها؟

قلت: يعالجون بها أسقامهم، ويقضون بها حاجاتهم.

قال: فمرهم بالتوبة إلى الله، فببركات الله لا تنال إلا من يد الله، ولا تمد اليد إلى الله إلا إذا يئست من غير الله.

بمجـرد أن قـال هـذا شـعرت بقناعـة عظيمـة بضـرورة التشجيع والتحفيز وأنه لـولاه لمـا اسـتطعنا أن ننهض من أي كبوة، ولا أن نقوم بأي عمل.. بعد هذا الشـعور مباشـرة فتح الباب.. لكنا ما إن سرنا قليلا حتى بدا لنا بـاب جديـد، فقـال المعلم: هذا باب العلم، ولا يصح دخول سائر الأبواب إلا بعــد حمل مفتاحه.

قلت: لماذا تتشدد هكذا؟

قال: هـذا ليس تشـددا، هـذه حقيقـة، فـالعلم هـو البـاب الأول لكل شيء، ألم تسمع قوله تعالى: وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا (البقرة: 31)؟

قلت: أجــل، وقــد قــرأت اختلاف المفســرين في هــذه الأسماء، وقرأت كذلك وجـه التفضـيل لآدم ﷺ حين عـرض الله تعالى تلك الأسماء على الملائكة، فلم تعلمها كما علمهـا آدم ﷺ، قال تعالى: ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَـا إِلَّا مَـا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (البقرة:32)

قال: أفتستدلون بهذا على فضل آدم ﷺ على الملائكـة ـ عليهم السلام؟

قلت: أجل، بل لا أحد إلا ويستدل بذلك على هذ المعنى.

قــال: أخطــأتم، فاللــه تعــالى لم يعــرض الأســماء على الملائكة ـ عليهم السلام ـ ليتحـداهم، بـل عرضـها لهم ليـبين لهم أن آدم ﷺ قـد زود من العلـوم مـا يؤهلـه للخلافـة في الأرض.

قلت: ولكنهم لم يعرفوا الأسماء التي عرضت عليهم.

قال: وما الحاجة إلى أن يعرفوها، ألم يقولوا: سُـبْحَانَكَ

لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾؟

قلت: بلى، فما وجه الاستدلال في هذا؟

قال: إن الملائكة ــ عليهم الصلاة والسلام ــ وهبوا من العلوم ما يناسب وظائفهم، كما وهب آدم ﷺ من العلوم ما يناسب وظيفته، فلا تفاضل في هذا ولا تزاحم.

قلت: هذا واضح، ولكن ..

قال: تريد مثالا على هذا؟

قلت: أجل، فبالمثال يتضح المقال.

قال: أرأيت لو أن شخصا أراد أن يدرس الطب فهل يمتحن في العلوم المرتبطة به، أم يمتحن في الفلك والجغرافيا؟

قلت: بل يمتحن في المواد المرتبطة بتخصصه.

قال: فكذلك الأمر مع آدم ﷺ والملائكة، فلها من العلم ما ليس لآدم، وله من العلم ما ليس لها، ألم تسمع حديثه ﷺ عن الملك الموكل بنفخ الروح؟

قلت: بلى، فقد قال ﷺ:(يدخُلُ الْمَلَكُ على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة فيقول: يا رب، أشقى أم سعيد؟ فيكتبان، فيقول: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه، ثم تطوى الصحف ولا يزاد فيها ولا ينقص)(1)

قال: فهل يمكن لبشر أي كان أن يعلم العلوم التي علمها هذا الملك؟

قلت: لا، فقد قال تعالى:﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد:8)

---

1) رواه مسلم.

قال: فالملك ـ إذن ـ أعلم من الإنسان؟

قلت: في هذا المقام فقط.

قال: بل في كل مقام له علاقة بوظيفته، فالله تعالى إذا خلق خلقا أعطاه من العلوم ما يوفر له أسباب الهداية، كما قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه: 50)

قلت: هذا صحيح .. ولكنا يا معلم تهنا عن مقصدنا.

قال: بل لم نته عنه، نحن في لبابه.

قلت: كيف؟

قال: ألا نتحدث هنا عن العلم الذي هو باب من أبواب المدائن؟

قلت: بلى.

قال: أفتظن أنا نحتاج إلى تلقين جميع العلوم لمن نريد أن نعلمهم دخول المدائن؟

قلت: ذلك أحسن.

قال: ولكن العمر لا يساعد عليه، والهمم لا تستطيع الوفاء به.

قلت: فما هي العلوم التي نحتاج إليها؟

قال: ما يفي بخدمة ما تريدونه.

قلت: فاذكر لي تلك العلوم وأقسامها.

قال: أنتم أعلم بأمور دنياكم.

قلت: فمجامعها وأصولها.

قال: علمان لا بد من كليهما، لولا معرفتي بتقصيركم في الجمع بينهما ما ذكرتهما.

قلت: ما هما؟

قال: الأصول النظرية لأي عمل، والتطبيقات العملية المرتبطة به.

قلت: فهل ترانا مقصرين في هذا؟

قال: لستم مقصرين في أفراد العلمين، ولكنكم مقصرون في الجمع بينهما، فأنتم إما أن تدرسوا علوما ترهقون فيها أنفسكم وأوقاتكم، ثم لا تجدون لها أي ثمرة واقعية، أو تتعاملون مع واقع وتطبيقات من غير أن تفهموا لها أصولا نظرية، والكمال في الجمع بينهما.

الأصول النظرية:

قلت: فماذا تريد بالأصول النظرية؟

قال: سنن الله في كونه، فهي أصل الأصول النظرية، وأنتم تقصرون فيها تقصيرا عظيما.

قلت: كيف؟

قال: إن استغلال أي سنة من سنن الله قد يوصلكم إلى مراكز من الرقي لم تكونوا لتصلوا إليها بدون تلك السنة.

قلت: اضرب لي مثالا على ذلك.

قال: قوة البخار، لقد رأيتموها ورآها أجدادكم، فاكتفيتم بالنظر إليها، أو بمد أيديكم إليها لتشعروا ببعض الدفء.

قلت: وهل لها غير الدفء؟

قال: نعم .. لها قوى كثيرة .. رأى بعضها رجل فتح له في فهم قوة هذا الخلق، فاستعان به على تلك المراكب الحديثة، ثم بقي التطور يتبع بعضه بعضا إلى أن وصلتم إلى ما وصلتم إليه.

قلت: وكل ذلك بنظرة ثاقبة إلى سنة من سنن الله.

قال: وكل ذلـك جـزء من تلـك النظـرة، ألم تسـمع قولـه تعالى عن ذي القرنين: إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (الكهف:84)، أتعلم مـا السـبب الـذي أوتيـه ذو القرنين؟

قلت: نحن لا نبحث عن الأسباب التي أو تيها ذو القـرنين، بل نبحث عمن هو ذو القرنين؟

قال: وما يجديكم أن تعرفوا من هو؟

قلت: بالمناسبة، هل كان نبيا، وهل كان له قرنان، وكيف كان اسمه .. وهل حقا كان أحد ملـوك اليمن، والسـد الـذي بناه هو سد مأرب، أو هو كورش الكبير الملـك الاخميـني، أم هو الاسكندر المقدوني، ولكنـه لم يشـتهر عليـه أنـه بـنى أي سد .. أم هو ..!؟

قال: وما يجديك أن تعلم كل هذا؟ ألا يغنيك ما في كتـاب الله؟

قلت: لقد ذكر الله قصته، فشوقنا لمعرفته.

قال: شوقكم للحقائق التي تنطوي عليها قصـته، أمـا هـو فعبد من عباد الله، ويكفيكم ذلك.

قلت: ولكن البشر يحب الفضول.

قـال: فليكن فضـولكم فيمـا ينفعكم .. لقـد سـألتك عن الأسباب التي أوتيها ذو القرنين.

قلت: السبب في اللغة يعني الحبل المستخدم في تسلق النخيل، كمـا قـال تعـالى: مَنْ كَـانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُـرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (الحج:15)

قال: فهل كل ما أوتي ذو القرنين هو حبل؟

قلت: لعله حبل كعصا موسى عليه السلام.

قال: أنتم تبـالغون في البحث عن المعجـزات لتفـروا بهـا من علاج واقعكم، بحجة أنه ليس لديكم عصا كعصـا موسـى ﷺ، أو خاتم كخاتم سليمان ﷺ أو حبل ..

قلت: فما الأسباب إذن؟

قال: هي استعمال كل الوسائل الممكنـة المرتبطـة بـأي إنجاز ..

قلت: مثل ماذا؟

قال: لكل شيء أسبابه الخاصـة بـه، وسـننه الـتي يـدخل إليه منها، وفي القرآن الكريم إشارة إلى بعض ذلك.

قلت: أين؟

قال: في قصة ذي القرنين نفسها .. ألم يقل الله تعـالى: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ (الكهف:85) ولم يكتف بذلك، بل كررها ثلاث مرات.

قلت: فما فائدة هذا التكرير؟

قـال: ليس هـذا تكريـرا، فلكـل شـيء سـببه الخـاص بـه وسننه التي ينطلق منها، ولا يمكن الدخول إليه إلا من بابها.

قلت: فهمت هــذا، فهــل في قصــة ذي القــرنين حكمــة أخرى؟

قال: كلها حكم .. ما اللفظ الرابط بين هذه الآيات الثلاث التي وردت في قصة ذي القرنين، بين قوله تعالى:﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَـدَ عِنْـدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ (الكهف:86)، وقولـه تعـالى:﴿ حَتَّى إِذَا بَلَـغَ مَطْلِـعَ الشَّـمْسِ وَجَـدَهَا تَطْلُـعُ عَلَى قَـوْمٍ لَمْ نَجْعَـلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَـا سِـتْراً ﴾ (الكهف:90)، وقوله تعالى:﴿ حَتَّى إِذَا بَلَـغَ بَيْنَ السَّـدَّيْنِ وَجَـدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ (الكهف:93)

قلت على البديهة: (وجد) .. إن هذه اللفظـة هي اللفظـة

المتكررة في الآيات الثلاث.

قال: أتعلم ما الحكمة من تكريرها؟

قلت: لا.

قال: متى تقول عن شخص:(إنه وجد شيئا)؟

قلت: عندما يبحث عنه، أو يكون له اهتمام به.

قال: فذو القرنين لم يكن ـ كما تتصورون ـ رجل حرب يبحث عن توسيع امبراطوريته، بل كان رجلا بحاثة عالما يبحث في الأرض، ليكتشف قوانين الله وسننه فيها.

قلت: هذه دعوى تحتاج إلى دليل، فما ذكرته لا يكاد يكفي.

قال: لقد ذكر الله تعالى ما وجده ذو القرنين في الغرب والمشرق وبين السدين.

قلت: لقد قال تعالى في المغرب: حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً (الكهف:86)، وقال عن المشرق: حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً (الكهف:90)،وقال عن المكان الذي بين السدين: حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (الكهف:93)

قال: فتأمل في جوامع الأشياء التي وجدها.

قلت: هناك التضاريس، وما يرتبط بها من مناخ، وهناك الشعوب وما يرتبط بها من طباع.

قال: والعلاقة الرابطة بين الشعوب والتضاريس والمناخ ..

قلت: نعم كل ذلك يظهر جليا في قصة ذي القرنين ..

لكـأني بهـا تتحـدث عن اكتشـافات جغرافيـة لا عن محـارب يقود جيشا.

قال: بل كان أكثر من مجرد كشافة .. كان عالما مصلحا، ألم يلجأ إليه الأقوام الساكنين بين السدين؟

قلت: لا أزال أتعجب من علمه بلغتهم، فقـد قـال تعـالى: ﴿ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾

قال: وهذا يصب فيمـا ذكرنـا من اجتهـاده العقلي وبحثـه عن سنن الله للتعرف على أسـرارها واتباعهـا.. سـألتك عن لجوء أولئك الذين لا يكادون يفقهون قولا إليه.

قلت: نعم لجـأوا إليـه ليحميهم من يـأجوج ومـأ جـوج .. بالمناسبة من هم؟

قال: دعك من هذا، فإنه جـدل، وقـد اشـترطت عليـك ألا تجادلني.

قلت:﴿ لا تُؤَاخِـذْنِي بِمَـا نَسِـيتُ وَلا تُـرْهِقْنِي مِنْ أَمْـرِي عُسْراً﴾ (الكهف: 73) .. نعم لقـد نص القـرآن الكـريم على قصة طلبهم من ذي القرنين الحماية، فقال تعالى:﴿ قَالُوا يَـا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَـا وَبَيْنَهُمْ سَـدّاً قَـالَ مَـا مَكَّنِّي فِيـهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَـلْ بَيْنَكمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمـاً آتُـونِي زُبَـرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ (الكهف:94 ـ 97)

قـال: ألا يـدلك هـذا على أبعـاد أخـرى في شخصـية ذي القرنين؟

قلت: نعم إنه مهندس عظيم، عـرف كيـف يخطـط لبنـاء هذا السد، وكيف يحمي أولئك القوم من شر المعتدين.

قال: بماذا فعل ذلك؟

قلت: بما أوتيه من علم الأسباب.

قال: فذاك مـا سـميناه بالأصـول النظريـة، فلا يمكن لأي عمل أن يقام إلا بتلك الأصول، وهي في مجموعها تعـود إلى سنن الله التي أمرنا بالنظر إليها والتعبد بتسخيرها.

التطبيقات العملية:

قلت: فماذا تريد بالتطبيقات العملية؟

قـال: لـو أن ذا القـرنين اكتفى بمـا عرفـه نظريـا، ولم يستقد منه عمليا أكان في إمكانه أن يبني ذلك السد؟

قلت: لا .. بـل يحتـاج إلى المـزج بين الأمـرين، فـالنظر يحتاج إلى التطبيق، كما أن التطبيق يحتاج إلى النظر.

قال: فلذلك لا يمكن للتـدريب أن يـؤتي أكلـه إلا إذا مـزج بين الأمرين.

قلت: هذه حقيقة، ونحن بحمد الله نطبقهـا، فقـد أسسـنا مراكز كثيرة للتدريب على المهارات المختلفة.

قال: لا، بل تقصرون فيها تقصيرا عظيما.

قلت: كيف؟

قـال: أنتم تقصـرون التـدريب على بعض الحـرف، وعلى بعض ما تحتاجه الحرف، ثم تقصـرون كـل ذلـك على فئـات محدودة.

قلت: فهل تقترح حلولا؟

قـال: أنـا لا أقـترح .. فـأنتم أعلم بـأمور دنيـاكم، ولكـني أؤصل الحقائق التي عن طريقها تقترحون ما ترونه مناسبا.

قلت: فما هي أصول الحقائق في هذا؟

قال: إشاعة التعليم وشموليته وتبسيطه ومجانيته.

قلت: هي أربعة أصول إذن.

قال: وكلها مما ورد في النصوص المقدسة الأمر به.

قلت: فاشرح لي مرادك منها ، وعلاقتها بالتدريب.

الإشاعة:

قال: أما الإشاعة.. فالعلم لا ينبغي أن يحصر في فئة محدودة من الناس، بل يترك لكل راغب.

قلت: ونحن نفعل ذلك.

قال: لا .. أنتم تعقدون الأمور كثيرا.

قلت: بل نيسرها، ولكن قل الراغبون.

قال: فهل تأذنون للشيخ الكبير في دخول المدارس.

قلت: نحن نشترط سنا معينة للدراسة.

قال: وليس ذلك من الإشاعة .. فالعلم من المهد إلى اللحد، ألم تقرأ قول أحمد، وقد دخل إلى السوق ومعه المحبرة، وقد كان شيخا، فقيل له:(لا تزال تحمل المحبرة؟) ن فقال:(مع المحبرة إلى المقبرة)، أي لا نزال نواصل العلم إلى الموت.

قلت: بلى فقد قرأت في ترجمة العالم الفلكي الرياضي، والمؤرخ اللغوي الأديب، والعالم بالشريعة ومقارنة الأديان أبى الريحان البيروني أنه مات وهو يتعلم مسألة في الفرائض.

قال: أفكان العلماء يتقاعدون عن طلب العلم أو تعليمه كما تفعلون اليوم؟

قلت: لا، بل إن نشاطهم يزداد في أواخر أعمارهم.

قال: وذلك لما اكتسبوه من خبرة بعد أن صقلتهم الأيام.

قلت: وأرى أن تباشير شمس الاستفادة من الشيوخ بدأت تطل علينا، فقد أثبتت المؤتمرات التي جرت في نقاط متعددة من العالم أن الأفراد في السنين الأولى المشرفة على الشيخوخة إذا كانوا مستعدين لمرحلة الشيخوخة يمكنهم أن يظلوا إلى سنين مديدة من المسنين الشباب، بل نشطين منتجين، وهذا ما أدركته الأقطار المتقدمة وخططت له مما منحها نتائج جيدة.

قاطعني، وقال: أنت تتحدث عن المؤتمرات بثقة عظيمة، وكأن بيدها الحل.

قلت: لقد كان ﷺ يحب التفاؤل.

قال: ولكنه لا يحب الأماني.

قلت: فإن لم يأت منها الخير، فمن أين يأتي؟

قال: من الشوارع والطرقات، وتلك المساكن الضيقة التي تفوح منها روائح الجوع.

قلت: متى، وكيف؟

قال: إذا عرفت كيف تستثمر الكنوز التي تختزنها.

قلت: فهل تقصد بإشاعة العلم إشاعته للشيوخ فقط؟

قال: لا .. العلم من المهد إلى اللحد .. للمرأة والرجل .. للفقير والغني في المدارس والمستشفيات والأسواق .. في وسائل الإعلام، وفي الملاعب والطرقات .. في كل مكان.

الشمولية:

قلت: وعيت هذا .. فما تريد بالشمولية؟

قال: أنتم تدربون على بعض الصناعات فقط؟

قلت: أجل .. لأن بعضها يكاد يكون من العلم المكتوم.

قال: تقصد من أسرار المهنة.

قلت: نعم، لأن في إشاعته إضرارا بالحرفيين.

قال: تخطئون عندما تتصورون ذلك، وتفعلون ذلك، فليس في العلم كما في الدين أسرار .. ولكنه الجشع والحرص والخوف الذي يمتلك قلوبكم.

قلت: فما الحل الذي تراه لتحقيق شمولية العلم؟

قال: نشر العلوم .. كل العلوم .. فالتجارة تحتاج إلى التدريب مثلها مثل الصناعة، والحكيم هو الذي ينقل خبرته لغيره، ولا يترك غيره يتخبط بحجة حرصه على مصالحه.

التبسيط:

قلت: وعيت هذا .. فما تريد بالتبسيط؟

قال: أنتم تعقدون العلوم.

قلت: ولكن العلوم تأبى إلا أن تعقد.

قال: وأين نور البصيرة الذي وهبه الله لكم؟

قلت: نور البصيرة نكتشف به العلوم، ونفهمها به.

قال: فمن فهمها منكم يمكنه أن يبسطها لمن لم يفهمها.

قلت: قد يتحقق ذلك بجهد.

قال: فذلك الجهد واجب، ألا ترى إلى علماء أمتك كيف نشروا العلم وبسطوه حتى علمه الخاصة والعامة؟

قلت: بلى، فإني أقرأ ما كتبوا فأجد له لذة، وأجدني أستوعبه بسهولة ويسر، ولكن العلوم في هذ العصر تعقدت كثيرا.

قال: ألا ترى الكتاب الذي شرفكم الله به، فمع أنه يحوي دقائق العلوم ومجامعها إلا أنه يعبر عنها جميعا بسهولة ويسر وجمال؟

قلت: بلى، فقد قال تعالى في كتابه: وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (القمر:17) .. ولكن هذا كلام الله.

قال: ألم يأمرنا الله برفع الهمة والترقي للتشبه بكمالات الله.

قلت: بلى، لقد عرفنا أدلة ذلك في مواضع مختلفة.

قال: فتشبهوا بالله في التيسير والتبسيط، أليست كل صناعاتكم التي تفخرون بها تقليدا لمخلوقات الله؟

قلت: بلى، والقرآن الكريم يدل على ذلك، فقد قال تعالى: فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (المائدة:31).. ولكن كيف نبسط العلم ونيسرها؟

قال: ألم أقل لك بأنكم أعلم بأمور دنياكم؟

قلت: بلى، ولكنك تعلم ما نحن فيه، فدلنا على ما تراه من وسائل التبسيط؟

قال: أنتم تسرفون في اللهو وتستعملون وسائل الإعلام لتغذية هذا اللهو، فاجعلوا من لهوكم علما؟

قلت: كيف؟

قال: انشروا العلم وبسطوه وأشيعوه عن طريق ما ننتج وسائل إعلامكم من برامج.

قلت: نحن نفعل بعض هذا.

قال: ألا تعلم أنك لن تتعلم العلم حتى تهبه كلك!؟

قلت: بلى .. ولكن الهمم كما تعلم ..

قال: ابدأوا فقط، أما الهمم فلها رب يتولاها، ألم يأمرنا الله بالاستعداد على حسب ما في وسعنا، فقال تعالى:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ (لأنفال: 60)؟

قلت: بلى ..

قال: اربطوا العلم بالله، وحينذاك سيرتبط العلم بالإيمان، وحينذاك يهب عليه من نسيم الإيمان ما ينشرح له الصدر، ويعيه العقل .. ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْأِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (الروم:56).. فالعلم لا يفهمه على حقيقته إلا من أوتي الإيمان.

المجانية:

قلت: وعيت هذا .. فما تريد بالمجانية؟

قال: أنتم تتاجرون بالعلم وتبيعونه.

قلت: نحن نبيع كل شيء، فكيف لا نبيع العلم؟ .. ولكن ما الحرج في ذلك؟..

قال: العلم لا يباع، بل ينشر .. بل يرغب في التعلم، ولا يحتكر، ألم تر الرسل، وهم ينشرون العلم متبرئين من كل أجر، قال تعالى على لسان كثير من أنبيائه ــ عليهم الصلاة والسلام ـ:﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء:109)، وقال مخبرا عن رسوله الخاتم ﷺ:﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (الفرقان:57)

قلت: ولكن هؤلاء أنبياء؟

قال: وهل أمرنا بالاقتداء بغير الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ـ ألم يجمع الله بين الأمر بالاقتداء بهم وتبرئهم من الأجور، فقال تعالى:﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: 90)!؟

قلت: بلى، ولكن لو لم يبع العلماء علمهم لماتوا جوعا.

قـال: ألم أخـبرك أنـه لم يمت أحـد من النـاس جوعـا .. ولكن الحـرص والشـره والفـراغ الـذي يعانونـه هـو الـذي يجعلهم يبيعون العلم ويغالون في بيعه، ولـو فقهـوا عن اللـه لباعوا علمهم لله.

قلت: كيف .. أالله العليم يشتري العلم؟

قال: كما يشتري الصدقات .. فهو يتقبلها ويجـزل الثـواب لأهلها.

قلت: فما تعني، أو ما تنصح؟

قال: أنصح هؤلاء العلمـاء ومن سـواهم بـأن يعلمـوا بـأن جزاء العلم عند الله لا عند البشر، فليقنعوا بما عنـد اللـه من الأجور.

قلت: لقد رأيت ناسا من أهل العلم لا يتحركون إلا بمبالغ طائلة تغريهم، ولا ينشرون كتبهم إلا بحقوق عظيمة يطالبون بها.

قال: فهؤلاء لا يختلفون عن الذين يكتمون العلم، ألم يقل الله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَـا أَنْزَلْنَـا مِنَ الْبَيِّنَـاتِ وَالْهُـدَى مِنْ بَعْـدِ مَـا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَـابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (البقرة:159)؟

قلت: ولكن هؤلاء لا يكتمونه، بل يطلبون عليه أثمانا.

قال: ومـا الفـرق بينهمـا، إن علمهم سـيبقى مكتومـا عن الذين لا يملكـون.. ثم .. ألم تسـمع قولـه تعـالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنـاً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة:174)؟

قلت: بلى.

قال: فاقرأ هذه الآيـة عليهم، فقـد جمـع اللـه بين كتمـان العلم وبيعــه ليــبين العلاقــة بينهمــا، والــتي تعيشــونها في

واقعكم.

قلت: ولكنهم سيقولون ..

قاطعني، وقال: أعلم أنهم سيظلون يجادلون.

بمجرد أن قال هذا شعرت بقناعة عظيمة بضـرورة العلم بأصوله النظرية والعملية وأنه لـولاه لمـا اسـتطعنا أن ننهض من تخلفنا، ولا أن نقوم بأي دور حضاري.. لكنا مـا إن سـرنا قليلا حتى بدا لنا باب جديد، وقد علقت عليه لافتة في منتهى الجمال مكتوب عليها:(إن الله تعـالى يحب إذا عمـل أحـدكم عملا أن يتقنه)(1)

فسألت المعلم عنه، فقال: هذا باب الإتقان.

قلت للمعلم: نعم، هذا بـاب مهم جـدا، فنحن في عصـرنا نشكو كثيرا من أضرار التفريـط في الإتقـان، فحسـب أكـثر العمال عندنا أن ينهوا أشـغالهم دون اهتمـام بمـدى إتقـانهم لأعمالهم.. وهذا هو الذي يجرهم في أحيان كثيرة إلى الفقر، فالعامل عندنا إذا اشتهر بعدم إتقانـه لم يطلبـه أحـد، وذلـك طريق لفقره .. فما سر عدم الإتقان يا معلم؟

قال: سره هو الخواء الـذي تعيشـونه في نفوسـكم، فهـو الـذي جعلكم تنظـرون إلى الكم، ولا تنظـرون إلى الكيـف، وتهتمون بالكثرة ولا تهتمون بالنوعية.

قلت: فما علاجه؟

قال: الإيمان.

ابتسـمت، وقلت: حسـبتك سـتذكر الرقابـة الـتي تهتم بالبحث عن مدى الجودة لتقر بعدها العمل أو ترفضه.

قال: ولكني لم أنكر الرقابة، وهي من مقتضيات الإيمان، بل هي جزء من آثار الإيمان.

قلت: رقابة الشرطة .. لا أظن أن لها علاقة بالإيمان؟

قـال: ومـا علاقتنـا بالشـرطة، نحن الآن نتعلم السـلام، والذي يتعلم السـلام لا يعـرف الشـرطي ولا الجنـدي ولا أي

(1) رواه البيهقي في الشعب.

قوة من القوى، ولا يحتاج لها.

قلت: فرقابة من إذن؟

قال: رقابة الله، فإنها إذا حلت في القلب لم يحتج الخلق إلى أي رقابة أخرى .. هل تتصور أن في الجنة شرطة؟

قلت: هذا مستحيل، فهي دار السلام.

قال: فكذلك المؤمنون الذين يعيشون في جنة الدنيا لا يحتاجون إلى هؤلاء الشرطة.

قلت: فالرقابة إذن هي السبيل الوحيد لتحقيق الإتقان؟

قال: لا، بل هي جزء من ذلك السبيل، أو هي المرتبة الأخيرة منه.

قلت: فهل هناك مراتب أخرى؟

قال: أجل، هناك التشبه، والقدوة، والجزاء، ثم تأتي بعدها الرقابة.

قلت: فهي إذن أربع.

قال: نعم أربعة معان إيمانية من تحقق بها رزقه الله الإتقان، وجعله خلقا من أخلاقه لا يتكلف فيه ولا يتصنع.

التشبه:

قلت: فبمن يكون التشبه، أبدول العالم المتطور التي تحرص على إتقان أعمالها؟

قال: لا .. المؤمن لا يرى إلا الواحد.

قلت: تقصد القطب الواحد، فنحن الآن محكومون بقطب واحد؟

قال: أقصد القطب الواحد الذي يتوجه له الكل .. السموات والأرض والعرش والفرش .. والذرة والمجرة ..

قلت: تقصد الله؟

قال: وهل هناك غيره، فالله هو خالق الخلق وأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الصافات:96)

قلت: فكيف نتشبه به؟

قال: ألم يقل الله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (الملك:3 ـ 4)

قلت: بلى، فهذه الآية تخبر عن مدى الإتقان الذي صمم به خلق السموات والأرض، فلا ترى فيها أي فطور.

قال: بل إن الله تعالى يأمرنا بإعادة النظر والتحقق للتأكد من سلامة خلق الله من أي عيب.

قلت: وكأنه بذلك يدلنا على الطريقة التي نكتشف بها عيوب أعمالنا، فلا نكتفي بالنظرة البدائية البسيطة التي قد تكتفي بالانبهار، بل يدلنا على النظرة النقدية المحققة.

قال: وهو يدلنا كذلك على عرض أعمالنا على غيرنا، لأنا قد لا نرى من عيوب أعمالنا ما يراه غيرنا.

قلت: فالله يؤدينا ـ إذن ـ بهذه الآيات.

قال: نعم، هو يؤدينا كما يؤدب أحدنا ولده عندما يقف أمامه المواقف المختلفة ليبين له كيف يتصرف التصرف السليم.

قلت: ولهذا وصف رسول الله ﷺ بأنه (كان خلقه القرآن)(1)

قال: أجل، فالله تعالى يربينا بأوصافه كما يربينا بأوامره .. ولهذا، فإنه عندما يقول على لسان إلياس u:

---

1) رواه ومسلم.

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ (الصافات:125)، فإنه في الحقيقة يقول لنا:(ربكم أحسن الخالقين، فكونوا أنتم أحسن العاملين)

قلت: فاضرب لي أمثلة من القرآن الكريم، وبين لي كيفية سماعها والاستجابة لها.

قال: سنذكر أربعة أمثلة قرآنية لها علاقة كبرى بحياتنا.

قلت: فما **المثال الأول**؟

قال: الإنسان.

قلت: كيف؟

قال: ألم يأمر الله الإنسان بالنظر إلى نفسه، والاعتبار به؟

قلت: بلى، فقد قال تعالى:﴿ فَلْيَنْظُرِ الْأِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (الطارق:5)، وقال تعالى: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (الذريات:21)

قال: فقد ذكر الله تعالى إتقانه لخلق الإنسان فقال تعالى:﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:4)

وذكر إتقانه صورة الإنسان، فقال:﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (التغابن:3)

قلت: لقد أثبت العلم الحديث كل هذه المعاني إثباتا دقيقا، فجسم الإنسان في غاية الحسن والقوة.

قال: ولذلك من الله على الإنسان بأنه صوره فعدله، كما قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الْأِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار:7 ـ 8)

قلت: لماذا لم يمن عليه بالخلق وحده؟

قال: لأن الخلق وحده كالعمل قد يكون خيرا، وقد يكـون شرا، ولكن إتقانه وتحسينه هو الذي ينقله إلى الخيرية.

قلت: فما **المثال الثاني**؟

قال: الحديث الحسن، فحديث اللـه تعـالى لا يختلـف عن خلقه في الحسن.

قلت: لقد قال الله تعالى يخبر بأنه نزل أحسن الحديث: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُـودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُـوبُهُمْ إِلَى ذِكْـرِ اللَّهِ (الزمر:23)

قال: وهذا يدعونا إلى أن نلتمس كـل الأسـاليب المـؤثرة الحسنة التي تغير من نفوس من نخاطبهم.

قلت: كيف؟

قـال: ألا تعلم أن الكلام قـد يكـون حقـا، ولكن قولنـا لـه وطريقة إلقائنا تحولـه شـرا، ولهـذا ورد في القـرآن الكـريم ذكر الحسن مرتبطا بالقول في مجال الدعوة، فقال تعـالى: وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (فصـلت:33)، بـل إن اللـه تعـالى لم يـأمر بالحسن فقط عند المجادلة، بل أمر بالأحسـن، فقـال: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (النحل: 125)

قلت: هذا صحيح، فنحن نعرض الإسلام بصورة مشـوهة، ثم نتأسف على انصراف الناس عنه.

قـال: وتحكمـون عليهم بالضـلال، ولا تحكمـون على أنفسكم بالإضلال.

قلت: ولكن منا الشعراء والقصاصون ..

قال: تركتموهـا لغـيركم يعبث فيهـا، ويملؤوهـا بـالمجون، واكتفيتم بعـرض الإسـلام وحقـائق الإسـلام بجفـاء وغلظـة

وجفاف يفسد أكثر مما يصلح، ويبعد أكثر مما يقرب.

قلت: فما الطريق؟

قال: هو ذا القرآن الكريم أمامكم، أليس هو الكتاب الهداية الأبدية الشاملة!؟

قلت: ولكن القرآن الكريم جاء ليهدينا، لا ليعلمنا كيف نتكلم.

قال: القرآن الكريم جاء لكل شيء، ولكن الشأن أن تفهموه، وترتقوا للاستفادة منه.

قلت: فاشرح لي ذلك.

قال: لذلك محله، فاصبر، فالعلم لا ينال بالعجلة.

قلت: ولكنك تظل تشوقني إلى المعاني الجميلة، ثم تتركني حائرا.

قال: الشوق هو بداية التعلم، ومن لم يشتق إلى العلم كما يشتاق الخليل إلى خليله لم يتعلم.

قلت: أجل، فقد ذكرتني بحديث لرسول الله ﷺ فيه إشارة إلى هذا المعنى، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر:(لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه)(1) فقد كان بإمكانه ﷺ أن يستدعي من يريد إعطاءه الراية من غير أن يشوقهم إليه.

قال: الأمثلة على ذلك كثيرة، والسنة طافحة بذلك، فيمكنكم استثمارها كاستثمار القرآن الكريم والاستفادة منها في تحسين كلامكم، ألم يقل رسول الله ﷺ:(ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه)(2)

قلت: فما المثال الثالث؟

---

(1) رواه البخاري.

(2) رواه أحمد وأبو داود.

قال: الرزق الحسن، ألم يأمر الله تعالى بالنظر في رزقه، فقال تعالى:﴿ فَلْيَنْظُرِ الْأِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (عبس: 24)، وقال:﴿ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام:99)

قلت: بلى، فقد وصف الله تعالى رزقه بالحسن، فقال:﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (الحج:58)

قال: لتعرف مدى ما يحمله رزق الله من الحسن قارن بين أرزاق الله التي تحملها سنابل القمح وحبات الثمر وأعشاب الأرض وبين السموم التي تصنعونها كل حين.

قلت: صدقت، فأرزاق الله غذاء ودواء، وأرزاقنا داء وسموم.

قال: ذلك لأنكم انشغلتم بالأكل، فعبدتموه من دون الله، فهم أحدكم من يومه جميعا ما يأكله وما يشربه، فلم تكتفوا بما خلق الله لكم من أصناف الموائد التي تتناسب مع أجهزتكم، بل رحتم تبدلون وتغيرون وتتفننون مما أوقعكم في الهلكة، وأوقع أجهزتكم في العطب.

قلت: فما **المثال الرابع**؟

قال: خلق الكون بهذا البناء الرائع الذي لا تملك القلوب المؤمنة إلا التسبيح عند رؤيته .. ألم يأمر الله بالنظر في السموات والأرض؟

قلت: بلى، فقد قال تعالى:﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس:101)

قال: ففي كون الله من آيات الإتقان والحسن ما يحرك القلوب المؤمنة، لا لمجرد التسبيح فقط، بل للاقتداء، ألا تعلم من أحب شيئا ظهر عليه؟

قلت: بلى، فهذه حقيقة لا شك فيها، فمن يستطيع كتم

أشواقه ومحبته.

وأفضحَ من عينِ المحبِّ لسرهِ ولا سيما إِن أطلقتْ عبرة تجري

قال: ولهذا يذكر الله تعالى خلقه السموات والأرض، بل يذكر خلقه لها بهذه الصيغة التي لا يستطيع اللسان التعبير عنها، قال تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذريات:47)

قلت: والله تعالى يصف نواحي الكمال في خلق الكون مما يحفز الهمم للبحث فيها ..

قال: لا البحث فقط، وإنما التشبه والاقتداء ..

القدوة:

قلت: عرفنا التشبيه، وهو طريق العارفين الذائقين في تحصيل الإتقان، فما القدوة، وبمن تكون؟

قال: القدوة هي انصهار المقتدي وذوبانه في المقتدى نتيجة إعجابه وحبه له.

قلت: فبمن تكون؟

قال: لقد ذكر الله مثالين للقدوة في العمل، أحدهما من جنسنا، والآخر من غير جنسنا.

قلت: فمن من جنسنا؟

قال: عباد الله الصالحين المحسنين، فقد قال تعالى في شأنهم: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب:21)، وقال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء: 125)

قلت: فكيف نقتدي بهم؟

قال: بالبحث عن سيرهم وسلوكهم واتخاذ مواقفهم دستورا تنتهجونه وتمشون على خطاه، ألم يكن النبي ﷺ يستعيد مواقف الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ ويجدد الحياة فيها؟

قلت: بلى، فقد ورد في السيرة المطهرة أنه لما كان يوم فتح مكة، ورسول الله ﷺ بمكة أرسل إلى من حاربه منهم، فقال:(مثلي ومثلكم كما قال يوسف لإخوته: لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (يوسف: 92) (1)

قال: لقد استعاد رسول الله ﷺ موقف يوسف ﷺ مع إخوته، فعامل الذين آذوه أبلغ الإيذاء بنفس الأسلوب.

قلت: ومثل ذلك ما ورد في الحديث أن رسول اللّه ﷺ قسم قسماً، فقال رجل: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه اللّه، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال:(رحمة اللّه على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر)(2)

قال: ومثل الأنبياء الصالحون الذين ذكرت أوصافهم في القرآن الكريم، والتي تمتلئ كتب السير والطبقات بنماذجها.

قلت: فهذا هو موضع القدوة الأول، والذي هو من جنسنا، فمن **نقتدي به من غير جنسنا**؟

قال: الحيوانات.

ثرت قائلا: ما هذا؟ .. ما عهدتك يا معلم هكذا .. كيف تقرن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ــ بالحيوانات .. أليس هذا كفرا أو قريبا من الكفر!؟

قال: ولماذا تستهين بالحيوانات لهذه الدرجة، أليست من خلق الله؟ ألا تعلم أن احتقارك لها احتقار للذي خلقها؟ ألم تسمع قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا (البقرة: 26)؟ .. ألم يذكر الله الذباب والعنكبوت والنحل والحمار والبغال وغيرها في القرآن الكريم؟

قلت: بلى، ولكن قومي، أو من اشتهر بالأدب منهم يتحرجون من مثل هذا.

قال: فهم يتعاظمون ويتكبرون على خلق الله .. فمن ضمن لهم أنهم أشرف من هذه الحيوانات.

قلت: بلى، لقد تذكرت نهيه ﷺ عن إتخاذ ظهور الدواب منابر، معللا ذلك بقوله: (فرب مركوبة خيرا أو أكثر ذكرا لله تعالى من راكبها)(1)

قال: ستسألني عن كيفية اتخاذ الحيوانات قدوة في الإتقان، وعن تأصيل ذلك.

قلت: نعم، لم تعدو ما في قلبي.

قال: ألم تسمع قوله تعالى: فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (المائدة:31)؟

قلت: لقد سمعت هذه الآية في مواضع مختلفة.

قال: لكل قضية سماعها الخاص بها.

قال: فبماذا تحدثني هذه الآية في هذا الموقف؟

قال: تخبرك بأن الله تعالى ألهم الحيوانات من العلوم ما نستفيد منه في حياتنا وفي أعمالنا، ألم يقل الله في هذه الآية: فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي

---

1) رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه.

سَوْءَةَ أَخِيهِ

قلت: بلى.

قال: فقصد هذا الغراب أن يري الإنسان كيف يتعامل مع جثة أخيه.

قلت: نعم، هكذا ينص القرآن الكريم.

قال: فهذا يدل على أن اللـه تعـالى جعـل في الحيوانـات معلمين لنا.

قلت: لا أظن أن هناك حرجا في ذلك بناء على مـا سـبق ذكره من الحرمة الـتي اسـتفادتها الحيوانـات من خلـق اللـه لها.

قـال: فلـذلك لا تتعجب إن ذكرنـا الحيوانـات كمحـل من محال القدوة.

قلت: أجـل، ولكن الحيوانـات في نظرنـا لا تختلـف عن الجماد إلا في بعض الوعي الذي يهيئها لاكتساب رزقها.

قال: ذلك ما ترونه أنتم، أما الحقيقة فأعظم من ذلك.

قلت: بين لي بعض نواحي القدوة في الحيوانات.

قال: أولها نظام الحكم.

ضحكت وقلت: نظـام الحكم، كيـف يكـون هـذا؟ .. لم أر في عالم الحيوانات صناديق انتخاب.

قال: صناديق الانتخاب أنشأها جشعكم وحرصـكم وطلب كـل واحـد منكم التسـلط على عبـاد اللـه، أمـا الحيوانـات، فتعرف الأمر لأهله، فتسلمه له من غير أن تزاحمه فيه.

قلت: صدقت في هذا.. وقد ذكر العلماء الكثير من الأدلة المثبتة لـذلك.. فعـالم الحيـوان يـدعو حقـا للإعجـاب، وكأنـه مدارس نستفيد منها، فلماذا لا يحظى بالاحترام الكافي.

قال: الغافلون وحدهم هم الذين لا يحـترمون هـذا العـالم لأنهم لا يحـترمون إلا أنـانيتهم، أمـا الأوليـاء فهم يحترمونـه ويعظمونه ويتأدبون بين يديه ...

الجزاء:

قلت: عرفنا التشبيه والقـدوة، وامتلأنـا بالمعـاني الـواردة فيهما، فما الجزاء، وما أنواعه؟

قـال:الجـزاء هـو الأجـر الـذي جعلـه اللـه تعـالى بفضـله وشكره لمن يتقن عمله.

قلت: فما أنواعه؟

قال: كثيرة نقتصر منها على هـذه الأربـع ممـا دلت عليـه النصوص.

قلت: فما هي؟

قال: المحبة، والزيادة، والرحمة، والوقاية.

قلت: فما **المحبة**، وما دليلها؟

قال: المحبة هي السماء العاليـة الـتي هفت إليهـا قلـوب الصـديقين .. وهي الشـعاع النـير الـذي ظلـوا طـول حيـاتهم يطلبونه.

قلت: تقصد محبتهم لله.

قــال: أقصــد محبــة اللــه لهم، ألم يقــل ﷺ في حــديث الأولياء:(ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فـإذا أحببته كنت سمعه الذي يسـمع بـه وبصـره الـذي يبصـر بـه، ويده التي يبطش بها ورجلـه الـتي يمشـي بهـا، وإن سـألني

لأعطينه وإن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته)(1)

قلت: فهل ورد في النصوص ما يدل على محبة الله لعبادة المتقنين؟

قال: أجل، فقد قال تعالى مرغبا في الإحسان: وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (البقرة:195)

قلت: فما السر في محبة الله للمحسنين؟

قال: هو السر في محبته للراحمين وللتوابين وللطاهرين.

قلت: فما السر في هؤلاء جميعا؟

قال: إن الله يحب المتخلقين بأخلاقه المتصفين بصفاته، ألا تفهم الإشارة في قوله ﷺ:(الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف)(2)

قلت: بلى، فالرسول ﷺ يبين انجذاب كل جنس إلى جنسه، وكل شكل إلى شكله، فالطيور على أشكالها تقع.

قال: فافهم الإشارة، ممزوجة بترياق التنزيه، فالله لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (الشورى: 11)

قلت: وعيت هذا.. فما الزيادة؟ وما دليلها؟

قال: الزيادة هي شيء فوق النعمة، أو هي نعمة مخبأة مستورة .

قلت: أتعني ما نسميه نحن بالمفاجأة.

---

1) رواه البخاري .

2) رواه البخاري ومسلم.

قال: وماذا تفعلون فيه؟

قلت: نخبئ ما نريد أن نجعله مفاجأة داخل قــراطيس أو صناديق لتفتح في أوقات خاصة.

قال: هذا قريب من الزيادة، ولو أن الزيادة التي وعد الله بهـا عبـاده من العظمـة بحيث لا تسـتطيع قـراطيس الـدنيا جميعا حملها.

قلت: فما دليها؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى: وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَـذِهِ الْقَرْيَـةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُـوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِـنِينَ (البقـرة:58) أي أن المحسـنين سـينالون المزيـد من الأجـر إضـافة إلى غفـران الخطايا.

فالله تعالى وعد المحسـنين بـالجزاء على أعمـالهم، كمـا قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (الكهف:30)

ووعد فوق ذلك بأن يجزيهم على أحسن أعمـالهم، فقـال تعالى: وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُـونَ وَادِيـاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَـا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ (التوبـة: 121)، وقال تعالى: لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيـدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (النور:38)

ووعدهم فوق ذلـك كلـه بـالجمع بين الحسـنى والزيـادة، فقال تعالى:)لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ (يونس: 26)

قلت: ولماذا لم يـذكر الجـزاء، وبقي مخبـأ في سـراديب الكتمان؟

قال: لا .. هو ليس مخبأ، ولكن طاقتنا العقلية أقل من أن تتحمل ذكره .. أرأيت لو وصف لك نوع من الفواكـه لم تـره في حياتك جميعا، أكنت تفهم ذلك الوصف؟

قلت: لا .. فالأذواق لا يصفها مثل اللسان، كما الألوان لا تصفها مثل العين.

قال: فكذلك هذ الزيادة .. وأضيفك سرا آخر.

قلت: ما هو؟

قال: هل المفاجآت التي تقدمونها لأصناف الناس متكافئة؟

قلت: لا .. هي مختلفة باختلاف طبقاتهم الاجتماعية، أو باختلاف مراتب نجاحهم، فالهدية المقدمة للأول ليست كالهدية المقدمة للثاني.

قال: فكذلك الله تعالى خبأ هذه الهدايا ليتنافس عباده على استلام أفضلها.

قلت: متى؟

قال: يوم الجزاء.

قلت: متى هو؟

قال: في الدنيا والآخرة، فالله ديان الدنيا والآخرة.

قلت: فما **الرحمة** وما دليلها؟

قال: يمكنك أن تفهمها، ولكن لا يمكنك التعبير عنها.

قلت: ولكن من قومي من يعبرون عنها بالإحسان.

قال: قد يحسن إليك في الظاهر من لا يرحمك.

قلت: فكيف أفهمها؟

قال: ليس عقلك هو الذي يفهمها، فعقلك معقول بعقال الحس، مكدر بمستنقعات التشبيه.

قال: فمن يفهمها إذن إذا لم يفهمها عقلي؟

قلت: يفهمهــا وجــدانك ومشــاعرك المنزهــة عن دنس التشبيه.

قلت: أريد شرحا أكثر لهذا المعنى.

قال: عندما تجاوز المراحل العشر التي تبدأ بها مســيرتك للسلام، ستتمكن من القدرة على فهم هذه المعاني .. أتريـد أن تنتقل إلى الجامعة، وأنت لم تكمل دراستك الابتدائية؟

قلت: فما دليل كون الرحمة جزاء من أجزية الإحسان؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْــدَ إِصْــلاحِهَا وَادْعُــوهُ خَوْفــاً وَطَمَعــاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَــرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (لأعراف:56)

قلت: فلمـــــاذا قـــــال:﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَـــــرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، ولم يقل:(إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ لِلْمُحْسِنِينَ)

قال: لأن رحمة الله الشاملة وسعت كل شــيء، لكن من الخلــق من ابتعــد عنهــا بســلوكه، ومنهم من اقــترب منهــا، فكانت الرحمة قريبـة منـه، وفي الحقيقـة كـان هـو القـريب منها.

قلت: فسر لي هذا المعنى بما يحتمله عقلي من الحس.

قال: الهـواء الـذي تتنفسـه موجـود في كـل مكـان، فمن أغلق أنفه وفمه فلم يتنفس لا نقول:(إن الهواء انقطع عنه)، وإنما نقول:(إنه هو الذي قاطع الهواء)، فرحمة اللـه شـاملة، ومن حجب عنها لم يحجب من قبل الرحيم، وإنما حجب من قبل هواه.

قلت: فما **الوقاية** وما دليلها؟

قال: الوقاية وقايتان: وقايـة لروحـك من التـدنس بـأوزار الذنوب، ووقاية لجسدك من التدنس بأدناس البلاء.

قلت: فبأي الوقايتين يجازى المحسن؟

قال: بكلا الوقايتين.

قلت: فما دليل ذلك؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى في تبشير عباده بتكفير خطاياهم وتطهيرهم منها:﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت:7)

قلت: فهذه وقاية الروح، فما وقاية الجسد؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ (الزمر:55)، وقوله:﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (يونس:26)

قلت: فهل للإحسان جزاء في الدنيا، فإن كل ما ذكرته من أجزية الآخرة؟

قال: من أخطر الأوهام التي تقعون فيها تفريقكم بين الدنيا والآخرة، وأحكام الدنيا وأحكام الآخرة، أليس رب الدنيا والآخرة واحد؟

قلت: بلى.

قال: فالجزاء والعقوبة يعجل في الدنيا، قبل الآخرة، ففي الدنيا روح من روح الجنة، وفيح من عذاب جهنم.

قلت: فطبق لي هذا على ما ذكرت من أجزية.

قال: كل ما ذكرته يتناول الدنيا والآخرة، فالمحسن محبوب من الله والخلق، فكل من أحبه الله نشر محبته بين الخلق، ألم تقرأ حديث جبريل عليه السلام؟

قلت: بلى، فقد أخبر ﷺ أن الله تعالى إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحببه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل

السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانا فأبغضه، فيبغضـه جبريـل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله تعالى يبغض فلانـا فأبغضـوه، فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض(1).

قـال: ومثـل ذلـك الزيـادة، ألسـتم تكـافئون المحسـن بالجوائز؟

قلت: أحيانا.

قال: أقل شيء تكافئونه به هو اضطراركم إليه، وقرعكم لبابه،وهجرانكم باب المسيء.

قلت: والرحمة.

قال: من اضطررتم إليه، اضطررتم إلى رحمتـه، لأنكم لا ترحمونه هو بل ترحمون اضطراركم إليه.

قلت: والوقاية؟

قال: تغضون الطرف عن سيئاته طمعا في حسناته.

الرقابة:

قلت: وأخـيرا وصـلنا إلى بـاب الرقابـة .. فمـا هي؟ ولم كانت سبيلا من سبل الإحسان، ومعراجا من معارجه؟

قال: أرأيت لو كلفت بعمـل من الأعمـال، وحضـر الـوزير لرؤية مدى إتقانك له، أو تقصيرك فيه، ماذا كنت ستفعل؟

قلت: سأحبره تحبيرا تحتار نفسي فيه، بل إني أعمل كل جهدي لأجعل منه آية من آيات الجمال.

قال: ولو علمت أنه لا يجازيك على ذلك؟

قلت: لا تهمني مجازاتـه لي، فحسـبي من جـزائي رؤيتـه لي.

---

1) رواه البخاري ومسلم.

قال: فإن حضر الرئيس؟

قلت: سيكون التحبير أعظم.

قال: فكيف إذا كان الرائي هو الله رب كل شيء ومليكه.

قلت: .. ..!؟

قال: فهكذا المؤمن الذي امتلأ قلبه محبة لله وتعظيما له، فإن قلبه يمتلئ فرحا وسرورا برؤية الله له، فيندفع إلى عمله بنشاط عظيم يجعله يتفنن في إتقانه.

قلت: ألهذا قال تعالى مرغبا المؤمنين: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة: 105)؟

قال: بلى .. ولهذا عرف ﷺ الإحسان بقوله:(أن تعبد الله كأنك تراه)

قلت: أجل، ولهذا كان النبي ﷺ يربي أصحابه على هذا المعنى، فلا يحتاجون للاندفاع إلى العمل وإتقانه إلا للشعور بالله.. وقد رويت أحاديث كثيرة في هذا الباب، فعن أبي ذر قال:(أوصاني خليلي ﷺ أن أخشى الله كأني أراه فإن لم أكن أراه فإنه يراني) .. ومثل ذلك ما روي عن عن أنس أن رجلا قال: يا رسول الله حدثني بحديث واجعله موجزا فقال ﷺ:(صل صلاة مودع، فإنك إن كنت لا تراه فإنه يراك)(1) ..

قال: لقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة العظيمة في آيات كثيرة، فالله تعالى يقول لنبيه ﷺ: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ (الطور:48)، ويقول له: ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ (الشعراء:218)

ويخبر أولياءه مبشرا لهم بقوله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ

---

1) رواه الطبراني.

وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس:61)

قلت: يا معلم، لقد عهدت قومي يتحدثون عن رقابة اللـه مخوفين من نظر الله.

قال: ذلك مقام الغافلين، فإنهم يرون في رؤيـة اللـه لهم مـا يحـول بينهم وبين معاصـيهم، أمـا العـارفون المحققـون فإنهم يرون في رؤية الله لهم ما يراه كل محب عندما يــراه محبوبه، ألم تسمع ما قال بشر لذلك العاشق؟

قلت: بلى، فقد حكى عن نفسه، قال: مررت برجل وقـد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمــل إلى الحبس، فتبعته فقلت لـه: لم ضـربت؟ فقـال: لأني عاشـق، فقلت له: ولم سكت؟ قال: لأنّ معشوقي كان بحذائي ينظر إليَّ، فقلت: فلو نظرت إلى المعشـوق الأكـبر قـال: فزعـق زعقة خرّ ميتاً.

قال: أرأيت الطاقة الكبرى التي يمنحها الحب لأصحابه.

قلت: لـو علم قـومي مـا في هـذه الطاقـة لعبأوهـا في قارورات، وزودوا بها المصانع والمعامل.

قـال: ولكن قومـك يتفننـون في العـوم في بحـار الحب المدنس.

قلت: فكيف السبيل إلى بحار الحب المقدس؟

قـال: عنـدما ترتفـع الأنـا من نفسـك، لـترى الوجـود كمـا الوجود، حينها تخلع أثواب العدم لتلبس أنوار الوجود ..وحينها ستذوق طعم الحب المقدس .. وحينها ستشرب من أكــواب الكون فلا ترتوي.

قلت: فدلني على شواطئه.

قال: ذلك علم آخر من علوم السلام، فاصبر، ولا تتخط رقاب الصديقين.

قلت: فمن أين أبدأ؟

قال: ابدأ من الابتدائي .. تخط حجب الغفلة أولا.

قلت: كيف أتخطاها؟

قال: ابدأ من مقامات الغافلين، فلا يمكن أن ترتقي درجات الصديقين، وأنت لم تقطع درجات الغافلين.

قلت: فحدثني عن مراقبة الغافلين.

قال: أرأيت لو أنك وظفت في معمل يحتاج العمل فيه إلى دقة عظيمة، فالأخطاء فيه خطيرة غير مغتفرة، بل قد يؤدي التقصير فيه إلى هلاكك وهلاك جميع المحيطين بك، وكان صاحب المعمل حازما شديدا، له من القوى والصلاحيات ما يسمح له بأن يعاقبك بكل أنواع العقوبات، فيمكنه أن يحبسك في زنزانة، ويمكن أن يذيقك من أنواع الآلام ما يجعلك عين العذاب .. ومع ذلك كله لا خيار لك إلا أن تعمل عنده.

قلت: يا معلم .. رويدك، فقد اقشعر جلدي مما قلت، لكأني بك تتعمد إخافتي .. فما وجه هذا المثال؟

قال: هذا ليس مثالا، بل هذه حقيقة ..

قلت: كيف؟

قال: الله هو صاحب هذه الأرض، وقد خلقنا أجراء فيها، ألم يقل تعالى للملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: 30)

قلت: بلى.

قال: أليس الخليفة هو الذي ينوب مناب صاحب العمل في عمله؟

قلت: أجل، فله من الحرية ما يكفل له أن يتصرف بما يراه مناسبا.

قال: ولكن تصرفاته محكومة بما يرتضيه صاحب العمل.

قلت: نعم، وإلا عد منقلبا على صاحب العمل.

قال: فقد قال صاحب العمل مبينا سر خلق الإنسان: إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (الكهف:7)، وقال: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (الملك:2)

قلت: فهمت هذا، ولكن ما علاقة هذا بالمراقبة؟

قال: أليست المراقبة هي أن تظل منتظرا في كل لحظة حضور صاحب العمل ليرى مدى الدقة التي تقوم بها في عملك؟

قلت: أجل.

قال: فالله تعالى أخبر بأنه يراك في كل لحظة، بل أخبر أن كل ما تفعله مسجل عنده، ألم يقل الله تعالى للغافلين: أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (الزخرف:80)

قلت: بلى .. فالله تعالى ينبه الغافلين في القرآن الكريم في مواضع كثيرة إلى علم الله واطلاعه عليهم، كما قال تعالى: أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (التوبة:78)

قال: وهذا الاعتقاد وحده كفيل بأن يجعل العامل متقنا لعمله متفانيا فيه لا يحتاج إلى شرطي يقمعه، وقد يرشوه ليسكت عن أخطائه.

قلت: فالإيمان إذن علاج للجودة.

قال: الإيمان هو علاج الجودة الحقيقية لا الجودة التي تتصورونها، ويغش بعضكم بعضا على أساسها.

قلت: كيف، ونحن في عصر الجودة.

قال: أنتم في عصر أقنعة الجودة لا الجودة.

قلت: كيف؟

قال: أنتم تتفنون في الأغلفة أكثر من تفننكم في اللباب.

قلت: نعم فللغلاف دوره الكبير في تيسير بيع السلع.

قال: إن المنطق التجاري الذي تتعاملون بـه مـع الأشـياء يحول بينكم وبين رؤية اللباب.

قلت: نعم، فنحن نبيع السموم مزينة بـأنواع الزينـة الـتي تجذب العين، ولا نكتفي بذلك، بل ننشر عليها من الروائح ما يجذب الأنوف، ومن الأصـوات مـا يجلب الآذان، فلا يكـاد أي مار يمر بها إلا ويسقط صريعا لهواها، فلا يذوقها حتى يوارى في الثرى.

قال: أما الجودة الحقيقية، فهي الـتي يـدل ظاهرهـا على باطنها، وباطنها على ظاهرها، فلا غش فيها ولا خداع.

بعد اقتناعي بما قاله المعلم عن الإتقـان وضـرورته لكـل بناء حضاري فتح لنا بابه.. لكنا ما إن سرنا قليلا حتى بـدا لنـا باب جديد في منتهى الجمـال، فسـألت المعلم عنـه، فقـال: هذا باب التطوير.

قلت للمعلم: باب التطوير!؟ عجبا .. ولكن أليس التطـور منافيا للدين، فقد نهى النبي ﷺ عن المحدثات، فقال:(إيـاكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعـة، وكـل بدعـة ضـلالة) (1)؟

قال: ليس هذا هو المراد بالتطور .. المراد منـه هنـا أن لا يقنع العامل بما لديه من وسائل وطاقات، بل يحاول عبورها إلى ما ييسـر عليـه مرافـق الحيـاة، ويجعـل اسـتفادته منهـا أعظم استفادة.

قلت: فاضرب لي على ذلك مثالا.

قـال: سـأذكر لـك بـدل المثـال دليلا .. أسـمعت قصـة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ؟

قلت: هي في القرآن الكريم، فكيف لا أقرأها؟

قال: وهـل سـمعت مـا فيهـا من طلب سـليمان عليه السلام من ملئه أن يأتيه بعرشها.

قلت: نعم، فقد قال لهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (النمل: 38)

قال: فما الذي أجابه به العفريت؟

قلت: قـال لـه مـا نص عليـه القـرآن الكـريم من قولـه تعالى:﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَـوِيٌّ أَمِينٌ﴾ (النمل:39)

---

1) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة والحاكم.

قال: فهل كان ما طرحه العفريت مقبولا من جهة سرعة إحضاره؟

قلت: أجل، فلا أظن أن هناك وسيلة معاصرة تستطيع إحضارالعرش بهذه السرعة.

قال: وهل رضي سليمان ﵇ بما طرحه العفريت؟

قلت: لا، بدليل أنه لم يكتف به، بل سمع للذي عنده علم من الكتاب، فقد ضمن له سرعة أكبر.

قال: فهذا هو التطوير: مثالا ودليلا .. فإن سليمان ﵇ لم يرض بما اقترح العفريت، بل ظل يتطلع إلى سرعة أعظم، إلى أن حصل عليها.

قلت: أجل هذا واضح من القصة، ولكن ما علاقة التطور بالعمل، ثم ما علاقة ذلك كله بالفقر والتخلف؟

قال: من الخطأ أن تعالج الفقر بوضع مرهم بسيط على جرح من جروحه، ليندمل، أو لتجففه الشمس، ثم تتصور بعد ذلك أنك عالجت الفقير، وقتلت فقره.

قلت: فما علاقة التطوير به.

قال: التطوير يبحث عن استغلال سنن الله أتم استغلال، وهو ما يضمن للفقير وصول رزقه إليه على أتم الوجوه.

قلت: فاضرب لي على ذلك مثالا.

قال: من كان لديه سهل واسع، لا حد لاتساعه، ولديه من القوى، وفي أرضه من منابع الماء ما يكفي لاستغلال ذلك السهل جميعا، لكنه لم يستغل إلا جزءا من ألف ألف جزء منه، ثم راح يشكو الجوع والفاقة، أيعذر في شكواه؟

قلت: كلا، فشكواه لا ترجع إلا إليه، وأحرى به أن يشكو نفسه لا أن يشكو السهل والماء.

قال: فكذلك ما يحث عليه التطوير، فإنه يذكرك

بالطاقات التي يختزنها الكون المسخر لتستغلها فتقضي على كل عجز، وتقتل كل فقر، وتسد كل فاقة، وحينذاك لن تطعم جوعك فقط، بل تطعم جوعك وجوع الآلاف من أمثالك، فتتخلق بصفة الرزاق، ويكون تخلقك مفتاحا من مفاتيح القرب.

قلت: إن من قومي من لا يكفيهم مثل هذا الكلام، بل يحتاجون من الأدلة ما ينير لهم الطريق، ويوضح لهم السبل.

قال: لن يعجزك البحث عن أدلة هذا، فالنصوص متظافرة عليه، ألم يكن النبي ﷺ يخطب على جذع نخلة في المدينة، فلما كثر المسلمون واستقر لهم الأمر، استدعى نجارا روميا، فصنع له منبراً من ثلاث درجات، فكان يخطب عليه؟

قلت: بلى.

قال: فهذا تطوير في المرافق تطلبته الحاجة التي لا يكفي للوفاء بها المنبر القديم .. وفي استعمال النبي ﷺ للنجار الرومي دليل على أن مثل هذه الخبرات ينبغي أن يستفاد فيها بكل من له طاقة ومعرفة بغض النظر عن جنسه ودينه.

قلت: أنت تذكرني بهذا بما حصل في غزوة الأحزاب عندما أشار سلمان على رسول الله ﷺ بحفر خندق حول المدينة يحميها من الغزاة المشركين، فأعجب النبي ﷺ برأيه ونفذه، ولم يقل: هذا من أساليب المجوس، لا نأخذ به.

قال: فقد فهمت إذن أن التطوير من سنن الدين، وليس من بدعه.

قلت: أجل.

قال: فأضف إلى ذلك أن السكون والقعود عن التطور هو البدعة، وإدخال الدين في ذلك تحريف له وحض للثورة عليه.

قلت: كيف؟

قال: ألا تعلم موقف الكنيسة الغربية في العصور الوسطى من موجات التطور العلمي الذي بدأ يهب على سمائها في ذلك الحين؟

قلت: بلى، فقد وقفت منه موقفا عنيفا.

قال: لم؟

قلت: لأن الكنيسة تبنت أفكاراً ونظريات في علوم الجغرافيا والفلك والطب والأحياء وغيرها، وطبعتها بطابع القداسة مما جعلها جزءاً من الدين، فاعتبرت كل مخالفة لها مخالفة للدين.

قال: فاضرب لي على ذلك أمثلة تقنع بها قومك بصدق دعواك.

قلت: لقد ذكر محمد عبده في كتابه (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) من مواقف الكنيسة ورجالها من التطور ما يثير العجب والدهشة.

فقد ذكر أن دي رومنيس جلب إلى روما وحبس حتى مات، ثم حوكمت جثته وكتبه فحكم عليها وألقيت في النار، ولك ذلك بسبب قوله:(إن قوس قزح ليست قوساً حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا شاء، بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء)

ولما أظهر (بلاج) رأيه في أن الموت كان يوجد قبل آدم ﴿عليه السلام﴾ أي أن الحيوانات كان يدركها الموت قبل أن يخطئ آدم بالأكل من الشجرة، قامت لذلك ضوضاء، وارتفعت جلبة، وانتهى الجدال إلى صدور أمر إمبراطوري بقتل كل شخص يعتقد ذلك الاعتقاد.

ولما اكتشف بعض الأميركان تخدير المرأة عند الولادة، حتى لا تحس بألم الطلق، قامت قيامة القسس، لأنه يخلص المرأة من اللعنة أو العقوبة الأبدية التي سجلت عليها في

التوراة في سفر التكوين.

قال: فما هي النتيجة التي تحملتها الكنيسة لهذا التشدد؟

قلت: لقد ثارت الجماهير الهائجة على الكنيسة التي وقفت مع الجهل ضد العلم، ومع الخرافة ضد الفكر، ومع الملوك والنبلاء ضد الشعب، وقالت الجماهير قولتها:(اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس)

قال: فهل ترى الدين بعد هذا معارضا للتطور، أم داعية له؟

قلت: بل داعية له، فلو لم يكن فيه إلا ما فيه من حماية من الفقر واستدرار لفضل الله لكفى .. ولكن ما السبيل إليه؟

قال: سر بنا.. وسنرى مفاتيحه.. فما وصل من لم يسر.

مفتاح الحركة

بعد اقتناعي بما قالـه المعلم عن التطـوير وضـرورته فتح لنا بابـه.. لكنـا مـا إن سـرنا قليلا حـتى صـادفنا بـاب يتحـرك حركات كثيرة مختلفة، وإذا عليه لافتة جميلة تتحرك بحركاته مكتوب عليها:﴿ وَتَرَى الْجِبَـالَ تَحْسَـبُهَا جَامِـدَةً وَهِيَ تَمُـرُّ مَـرَّ السَّحَابِ﴾(النمل:88)

فقلت للمعلم: لا شك في أن هذا باب الحركة، فإني أراه يتحرك حركات مختلفة .. لسـت أدري هـل هي منتظمـة، أم عشوائية؟

قال: ليس هناك حركة عشوائية في الكـون، بـل كـل مـا في الكون منتظم ودقيق، ألم تسـمع مـا علـق باللافتـة، ألم تسـمع قولـه تعـالى:﴿ يُغْشِـي اللَّيْـلَ النَّهَـارَ يَطْلُبُـهُ حَثِيثـاً﴾ (الأعراف: 54)).. ألم تسمع قولـه تعـالى:﴿ وَهُـوَ الَّذِي خَلَـقَ اللَّيْـلَ وَالنَّهَـارَ وَالشَّـمْسَ وَالْقَمَـرَ كُـلٌّ فِي فَلَـكٍ يَسْـبَحُونَ﴾ (الانبياء:33)؟

قلت: بلى، قد قـرأت كـل هـذه الآيـات، وحـاولت فهمهـا بحسب ما زودنا به العلم الحديث من المعارف ..

قال: فلنبدأ حديثنا إذن عن الحركة من هنا.

قلت: ماذا تقصد؟

قال: هل الأرض مستقرة ثابتة ساكنة أم متحركة متدفقة بالحركة؟

قلت: لكأني بك يا معلم تريد أن تخـوض بـبي في الجـدل الذي غرق فيه البعض من التسـاؤل عن مـدى صـحة حركـة الأرض.

قال: وهل خيض في هذا؟

قلت: أجل.

قال: ومن خاض فيه؟

قلت: بعض علماء المسلمين.

قال: عجبا، كيف يقال هذا وقد وردت النصوص القرآنية المخبرة عن شكل الأرض والمنبئة عن حركتها، ألم تقرأ ما كتب على لافتة هذا الباب؟

قلت: بلى، فقد كتب عليها قوله تعالى: وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (النمل: 88)

قال: أتدري الأسرار المودعة في هذه الآية.

قلت: نحن نعرف الآن بعضها(1)، فمرور الجبال مر السحاب كناية واضحة علي دوران الأرض حول محورها، وعلي جريها حول الشمس ومع الشمس، لأن الغلاف الهوائي للأرض الذي يتحرك فيه السحاب مرتبط بالأرض بواسطة الجاذبية وحركته منضبطة مع حركة الأرض، وكذلك حركة السحاب فيه، فإذا مرت الجبال مر السحاب كان في ذلك إشارة ضمنية إلي حركات الأرض المختلفة التي تمر كما يمر السحاب.

قال: وقد دل على هذا المعنى نصوص أخرى، فالله تعالى يقول: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ (الزمر: 5)

قلت: نعم، فهذه من الآيات التي يستدل بها العلماء على كروية الأرض، فمعنى يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ أي يغشي كل واحد منهما الآخر كأنه يلفه عليه، وهو وصف واضح الدلالة علي كروية الأرض، وعلي دورانها حول محورها أمام الشمس.

قال: وهناك نصوص أخرى غير هذين النصين .. وليس مرادنا أن نتحدث عن هذا، فلهذا محله الخاص من دروس

(1) انظر: الاسلام و الحقائق العلمية، لمحمود القاسم،والإعجاز العلمي في القرآن الكريم أ. د حسن أبو العينين.

السلام .. ولكني أريد أن أبين لك ما لهذه المسألة من أهمية في السلوك والتربية.

قلت: يا معلم .. هذه النصوص لا علاقة لها بهذا المحل، فهي تذكر في مواضع تأمل خلق الله، أو البرهنة على صدق رسول الله ﷺ بدليل الإعجاز.

قال: ويمكن أن تذكر في آلاف المواضع .. ألم أقل لك إن القرآن الكريم هو كتاب الحقائق .. حقائق الهداية وحقائق السلوك؟

قلت: فما نستفيد من هذه الآيات في هذا الموضع؟

قال: ماذا ينتج عن حركة الأرض؟

قلت: حياة الأرض مرتبطة بحركتها، فلو جمدت لحظة واحدة لصارت من الضعف بحيث يلتهمها هذا الفضاء العظيم.

قال: وكذلك أنتم لما قعدتم عن التطوير، وسكنتم لموروثاتكم تنهلون منها من غير محاولة لفهمها أو لتطويرها تحركت جميع شموس الأرض لتلتهمكم.

قلت: وقد وقع بذلك ما أخبر عنه ﷺ بقوله:(يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها) قيل:(يا رسول الله فمن قلة يومئذ)، قال:(لا، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم وينزع الرعب من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت) (1)

قال: فماذا قال العلماء في قوله تعالى:﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ (المعارج:40)

قلت: لقد قرأت تفاسير جميلة من علماء عصرنا، فقد أثبت علماء الفلك أن للأرض حركات كثيرة جدا، ولهذا كانت

---

1) رواه أحمد وأبو داود.

المشارق والمغارب بحسب حركتها .

قال: فما الفائدة من هذه الحركات؟

قلت: ينتج عن ذلك تعاقب الليل والنهار، وتبادل الفصـول المناخيـة، فلـو ثبتت الأرض لم يحصـل هـذا التعـاقب في الفصول والمناخ.

قال: وهـذا مـا نريـده، فالحركـة هي الـتي أعطت للأرض هذه النعم الـتي تزخـر بهـا، والـتي هي وليـدة الليـل والنهـار وتعاقب الفصول.

قلت: فمـا الفائـدة السـلوكية من هـذا، ومـا علاقتهـا بالحركة، ثم ما علاقة الحركة بالتمدن؟

قال: ألم نقل: إن المؤمن الـذي يـرى نفسـه خليفـة للـه يتخلـق بـأخلاق اللـه في خلقـه، فكمـا أن الأرض لم تنتظم حياتها إلا بحركتها، وانتقالها من حالة إلى حالـة، وعـدم ثباتهـا على حالة واحدة، فكذلك حياة الإنسـان تمـوت إن لم ينتقـل صاحبها من طور إلى طور، فالثبات موت، والحركة حياة.

قلت: نعم .. لقـد ذكـرني كلامـك هـذا بمـا قـال علمـاء الجيولوجيا عن أصـل الأرض، وأنهـا كـانت منـذ 200 مليـون سنة عبارة عن كتلة واحدة تسمى بانجيا، وكانت تلك الكتلـة في بداية تفتتها، أي في بداية الانجراف القاري.

ومنـذ 135 مليـون سـنة تفتتت أجـزاء البانجيـا إلى كتلـة أرضية شمالية تسمى لوراسيا، كونت الهند مساحة منفصلة، والكتلة الأرضية الجنوبية عُرفت باسم جوندوانالاند.

ومنذ 65 مليـون سـنة بـدأت الكتـل الأرضيـة تشـكّل القـارات المعروفـة بأشـكالها الحالية. وكـانت تلـك القـارات تتحرك في اتجاه مواقعها الحالية، ولم تكن الهند قد التصقت بعد بآسيا.

قـال: فلـو أن مـا تسـمونه بالبانجيـا لم تتحـرك لتتشـكل القارات، أكان يمكن للأرض أن تصير بهذه الصورة؟

قلت: لا.

قال: فقد جعل الله تعالى بحكمته ورحمته لطفه ورزقه في ضمن الحركة، ولهذا قال ﷺ:(لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا)(1)

قلت: فما علاقة الحركة بالتمدن؟

قال: الحركة هي أصل التمدن ومنبعه، فالخامل لا يفكر في أن يتطور، بل يرضى بما هو عليه، بل يحسب التطور عبئا يثقل ظهره بالمسؤوليات.

قلت: نحن نتحدث عن السعي للخروج من التخلف والفقر يا معلم.

قال: ونحن نتحدث عن الباب الذي يعرف العاملين كيف يتعاملون مع قوى الكون لاستغلالها والاستفادة منها، والعامل الخامل الراضي بما هو فيه، الذي لا يحاول التغيير، ولا يفكر في التغيير عامل ميت مصيره إلى الفقر، ومصير جهده الفشل.

قلت: ولكن الثبات محمود ..؟!

قال: الثبات على الحق والمبدأ، لا ثبات الماء الآسن ..

1) رواه الترمذي وابن ماجه.

بعد أن فتح لنا باب الحركة سرنا مدة من الــزمن إلى أن صـادفنا بـاب آخــر كتب عليــه: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْـدَكَ بَيْتـاً فِي الْجَنَّةِ﴾ (التحــريم: 11)، فتعجبت من هــذه الكتابــة، فقلت للمعلم: ما محل هذه الآية هنا؟

فقال: هذه الآية آية الهمم العالية.

قلت: وما الهمم العالية؟

قــال: هي الهمم الــتي لا تتوقــف عنــدها المطــالب، ولا تنقضي عندها الحاجات، ولا تسـكن إلى شـيء، ألم تقـرأ مـا قال ابن عطاء الله في حكمه؟

قلت: تقصد قوله:(لا ترحـل من كـون إلى كـون، فتكـون كحمار الرحى يسير، والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منــه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون)

قــال: نعم، فهــذه حكمــة جليلــة تــبين غايــة الحركــات ومنهجها، وقد كانت تتمثـل في صـدر امـرأة فرعـون عنـدما رفعت يديها بهذا الدعاء.

قلت: لقد قال العلماء: إنها اختارت الجار قبل الـدار، فلم تقل:(ابن لي بينا في الجنة)، بل قــالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْـدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾ (التحريم: 11)

قال: وتلك هي الهمة العالية، فلا يكفي أن تتحـرك، فكـل شيء يتحرك، وإنما اجعل حركتك منتظمـة كحركـة الوجـود، لتصل إلى حقائق الوجود، وتسخر ما تحتاجه من الوجود.

قلت: فالحركة ليست مقصودة لذاتها إذن.

قال: وحركة كل شيء ليس مقصـودة لـذاتها، ألم تسـمع قوله تعالى:﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (لنجم:42).. ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيــزِ الْعَلِيمِ﴾ (يّـس:38)

قلت: فما المقصد إذن؟

قال: المقصد هو الترقي، فمن رضي بحالته وسكن لها، ولم يتحرك في سبيل تغييرها لا يحق له دخول هذه العوالم، ألم تسمع ما روي عن عمر بن عبد العزيز عندما تغير حاله بعد توليه الحكم، فقد كان قبلها تشترى له الحلة بألف دينار، فيقول:(ما أجودها لولا خشونة فيها!) فلما صار حاكما كان يشترى له الثوب بخمسة دراهم فيقول:(ما أجوده لولا لينه) فقيل له:(أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين؟)، فقال:(إن لي نفسا ذواقة، وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها حتى إذا ذاقت الخلافة، وهي أرفع الطباق، تاقت إلى ما عند الله عز وجل)

قلت: رحمه الله، ليت من ولي أمرنا يرتقي إلى هذا، أو يتوق إليه.

قال: وبم يحلم من ولي أمركم، ولم يطمح؟

قلت: من ولته الأمة أمرها عاما يود لو أضاف أعواما، فإن استقر به المقام طمحت همته لأن يولي ولده، فإن استقر له كل ذلك قام بنزع كل شوكة قد تؤذي من يستخلفه من المعارضين والمخالفين.

قال: ثم تتساءلون عن أسباب فقركم .. فكيف يتفرغ الحاكم لإصلاح الرعية إن انشغل بنفسه!؟

قلت: فالطريق إذن هي الثورة .. لا حل غيرها.

قال: أنسيت أنك تتعلم السلام .. ثم قل لي ماذا تجدي الثورة، سيقتل بعضكم بعضا، وسترتد بلادكم والقهقرى، وسيتضاعف عدد الفقراء، وسينتقل الحاكم بعدها من حاكم له مجلس شورى إلى دكتاتور يقمعكم بقوانين الطوارئ.

قلت: فالحل البسيط إذن أن نسأل الحاكم في أول يوم يتولاه عن طموحاته جميعا، ونعاهده على السمع والطاعة لها، ونشترط عليه أن يتفرغ لنا.

قال: انصحهم بذلك، فذلك أصلح لكم، ولكن لا أراهم يستجيبون.

قلت: لم، وقد تحقق لهم كل ما يريدون من غير أي عناء.

قال: وأين لذة النصر التي يذوقونها يوم يقضون على أعدائهم واحدا واحدا، ويتم لهم الأمر؟

قلت: وما الحاجة إلى ذلك؟

قال: ألم أقل لك: إن الصراع لا يشتهي السلام، وإن النفس المريضة المظلمة لا ترضى لبصيص النور أن يشع في جوانبها.

قلت: فما الحل؟

قال: الهمة، فهي مبدأ السلام، كما أنها مبدأ الترقي.

قلت: وما الهمة، وكيف أتحقق بها؟

قال: الهمة هي أن تكون مطالبك من الله بقدر جوده، ومن الكون بقدر سعته، ومن الحقيقة بقدر جمالها .. فلا تقنع بما يقنع به الكسالى المخلدون إلى الأرض.

قلت: لكأني بك تشير إلى قوله تعالى: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون (لأعراف:176)

قال: نعم، فهذا الأحمق المغفل باع رضوان الله، والرفعة التي أوتيها بالعلم ببعض الدنيا لا ينفعه وجوده ولا يضره فقده، فصار بعد أن كان في علياء العلماء يشبه بالكلب، بل يشبه بالكلب اللاهث وراء السراب.

قلت: يا معلم، لكأنك تذكرني بنفر من قومي صرفت

عليهم أموال الشعب الطائلة، فلما ارتووا من علم بلدهم، أرسلهم الشعب إلى بلدان أخرى ينهلون من علمها، فلما ذهبوا وأنسوا بأجوائها سكنوا فيها وإليها، وعافوا أن يعودوا إلى بلادهم.

قال: فذكرهم بما فعل (تاكيو أو ساهيرا)

قلت: ما هذا الاسم الغريب، وفي أي أمة من الأمم .. وأخيرا سنسمع أخبار الأمم السوالف، وسنرتوي من تواريخهم .. هات .. يا معلم .. حدثنا..

قال: ما أغربكم، وما أغرب ولعكم بالأساطير .. إن (تاكيو أو ساهيرا) رجل منكم معاصر لكم.

قلت: فكيف علمت به؟

قال: علمت به لهمته العالية، ولولا همته العالية ما شغلت نفسي به كما لم أشغلها بكثير من أبناء جلدتك.

قلت: فحدثني عن خبره.

قال: هذا رجل كتب له أن يغير تاريخ أمته، ويجعلها في مقدمة الأمم، إنه رجل ابتعثته اليابان إلى هامبورغ بألمانيا لدراسة أصول الميكانيك العلمية، وكانت كل أمنيته أن يتمكن من صناعة محرك صغير، ولكنه فوجئ بأن أساتذته في الجامعة يكتفون بتدريس الأمور النظرية فقط، وكان على وشك أن ينال شهادة الدكتوراه، ولكنه لهمته العالية لم يقتنع بتلك الدرجة العلمية..لقد كان طموحه أعظم من أن يحصره في ورقة مزخرفة يعلقها على جدار بيته، أو يتغير لقبه الاجتماعي بدلها.

قلت: مثل هذا قد ينعته قومي بالأحمق .. كيف يرضى أن يترك الانشغال بهذه الشهادة التي تقدم صاحبها في المحافل؟، بل تحول من نهيقه صوت عنادل، ومن زئيره سلام غزلان.

قال: لكنه كان في منتهى الذكاء والفطنة، لقد رأى

زملاءه المستغرقين في ملء ما تتطلبه تلك الدرجة من صفحات كما يرى الكبير انشغال الأطفال بما تتطلبه ألعابهم من تصرفات.

قلت: فما الذي فعله، بدل انشغاله بالدكتوراه؟

قال: لقد ظل يبحث عن حل للغز المحرك .. وفي يوم من الأيام طالع خبراً في إحدى الصحف يتحدث عن معرض لمحركات إيطالية الصنع، وبسرعة توجه للمعرض، وهناك اشترى محركاً بكل راتبه.

قلت: وهذه هي التضحية، وهي عندنا قد تكون مرادفة للغباء.

قال: وعندما وضعه على المنضدة بحجرته أخذ يقول لنفسه:(هذا هو سر قوة أوروبا لو استطعت أن أصنع محركاً كهذا، لغيرت اتجاه تاريخ اليابان)

قلت: فهو لم يفكر في نفسه إذن، بل كان يفكر في قومه.

قال: وهذا من الهمة العالية أيضا، فصاحب الهمة العالية لا يرضى بأن ينجح هو ويرسب غيره، ولا أن يحيا هو ويموت غيره.

قلت: ثم ماذا؟

قال: بعد أن اشترى (تاكيو أو ساهيرا) المحرك بدأ العمل الدؤوب، وكان عليه أن يفك كل أجزاء المحرك، ويرسمها، ثم يعيد تركيبه من جديد بحيث يعمل مرة ثانية ..

وبعد ثلاثة أيام من الجهد المضني كان له ما أراد، واشتغل المحرك، فكاد قلبه يقف من الفرح، وأبلغ رئيس بعثته بالنبأ السار، فطلب منه إصلاح محرك متعطل، وقد استطاع بعد عشرة أيام من العمل المتواصل أن يصلح المحرك، وكان عليه بعد ذلك أن يصنع أجزاء المحرك بنفسه، ولهذا التحق بمصانع لصهر الحديد والنحاس

والألومنيوم.

قلت: أرضـي لنفسـه أن يلتحـق بهـذه المصـانع بـدل التدريس في مدرجات الجامعات.

قال: لقد ارتدى البدلة الزرقاء، وراح يخـدم عامـل صـهر المعادن الذي يعلمه رغم أنه من أسرة يابانية عريقة (أسـرة ساموراي)، لقد ظل أو ساهيرا في عمله وتعلمـه هـذا لمـدة ثمـاني سـنوات، كـان يعمـل خلالهـا مـا بين عشـر وخمس عشرة ساعة في اليوم.

قلت: فهل كوفئ على هذا الجهد المتواصل العظيم.

قال: صاحب الهمة العالية لا ينتظر المكافآت، ولا تحركـه المكافـآت، ومـع ذلـك، فقـد علم إمـبراطور اليابـان بـأمره، فأرسل له من ماله الخاص خمسة آلاف جنيه إنجليزي ذهباً.

قلت: هذه مكافأة عظيمة تكفيه لشراء سيارة وبناء بيت.

قال: أهذه كل أحلامكم، وهذا منتهى همتكم، لقد اشـترى (تـاكيو أوسـاهيرا) بهـا أدوات مصـنع محركـات كاملـة وآلات وشحنها لليابان من راتبه ومن كل مـا ادخـره، وعنـد وصـوله إلى ناغـازاكي أخـبر بـأن الإمـبراطور يريـد مقابلتـه، فاعتـذر قائلاً:(لن أستحق مقابلته إلا بعد أن أنشـئ مصـنع محركـات كامل)

قلت: لقد ذكرتني بقول يوسف ﷵ عندما طلبه الملك:﴿ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْـدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: 50)

قال: لقد كان يوسـف ﷵ يطمح لأن يـولى خزانـة مصـر لينقذها وينقذ البلاد المحيطة بها من شر المجاعة المتوقعـة، فلذلك طلب أن تبرأ ساحته، حتى لا يصير عرضـة لانتقـادات الخصـوم، ولـولا ذلـك مـا رضـي أن تفضـح المـرأة، ولا أن تستدعى للمحاكمة.

قلت: ألهذا إذن قال ﷺ:(.. ولو لبثت في السجن مـا لبث

يوسف لأجبت الداعي)(1)، وفي رواية:(لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر)(2)

قال: أجل، فالضرورة التي استدعتها المصلحة العامة هي التي ألحت على يوسف ﷺ في طلب العذر، ولولاها ما طلبه.

قلت: فواصل حديثك عن صاحب الهمة الياباني.

قال: كان لهذا الشاب ما أراد بعد تسع سنوات من العمل المتواصل والجهد الجبار، وعندما سمع الإمبراطور أصوات أول محركات من صنع اليابان فقط تبسم قائلاً:(هذه أعذب موسيقي سمعتها في حياتي، صوت محركات يابانية خالصة)

وهكذا استطاع تاكيو أو ساهيرا أن يحقق حلم حياته، وأن ينقل قوة الغرب إلى موطنه الغالي(3).

قلت: فما السبيل إلى الهمة .. ألسنا نتعلم السلام العملي؟

قال: أربعة أركان لا تقوم الهمة ولا تتحقق إلا بها.

قلت: فما هي؟

قال: ستعرفها عندما نرحل إلى القوى العظمى، فإن لحديثها شؤونا.

قلت: ومتى نرحل إلى القوى العظمى .. فإني مشتاق لزيارة مدن أميركا وأوروبا.

قال: ماذا تقصد؟

قلت: القوى العظمى.

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه أحمد.

3) وردت هذه القصة اللطيفة في كتاب "كيف نجح هؤلاء" للمحامي محمد مسعود العجمي.

قال: أنت لا تفهم ما القوى العظمى.

قلت: فاشرحها لي.

قال: عندما يحين حينها.

قلت: ومتى يحين حينها؟

قال: عندما تقهر أسباب الضعف من نفسك.

قلت: لقد قهرت تنين الألم، وقهرت غول الفقر، وأنا الآن أحاول أن أقهر شبح التخلف.

قال: ولا زالت غيلان أخـرى في انتظـارك، ولا يمكنـك أن تصل إلى القوى العظمى قبل قهرها.

بعد أن فتح لنا باب الهمة سرنا مدة من الزمن إلى أن صادفنا باب آخر كتب عليه: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: 62)

فقلت للمعلم: لا شك أن هذا هو باب السنن، فالآية المكتوبة على لافتته تشير إليه.

قال: نعم، فالسنن مفتاح من مفاتيح التمدن، كما أنها مفتاح من مفاتيح الكمال.

قلت: فما السنن؟ وماذا نفتح بها؟ وكيف نتعرف عليها؟

قال: هذا بحث طويل، فلا تتخل عن السنن عندما تريد أن تبحث عن السنن.

قلت: فما سنن البحث عن السنن؟

قال: التأني، وعدم الاستعجال، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (القيامة:16)

قلت: بلى، فلنبدأ أولا من ربط السنن بما قبلها من أبواب.

قال: من أراد أن يتطور يبدأ أولا بنفسه، فيحركها من خمولها، ويوقظها من غفلتها، ويقطع عنها نوم الجمود الذي استحلته.

قلت: لقد عرفنا هذا في باب الحركة.

قال: وهو باب من أبواب السنن، فقد قال تعالى معبرا عن هذه السنة:﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: 11)، وقال معبرا عنها:﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران:165)

قلت: فإذا جاوز باب الحركة؟

قال: فإذا تم له ذلك، واستيقظت نفسه، وتحركت طالبها بالحركة المنظمة الهادفة الصحيحة.

قلت: وقد عرفنا ذلك في باب الهمة.

قال: وهي باب من أبواب السنن، فلا يمكن أن يتحقق أي نجاح بلا همة، ألم تسمع قوله تعالى: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (لأعراف:169)

قلت: فالله ينعى عليهم تمسكهم بالأدنى، وانشغالهم به، وقعودهم عن طلب المعالي، ثم تصورهم أنهم سيصلوا إليها بقعودهم.

قال: ولكن سنن الله تأبى عليهم ذلك، ألم يقل الله تعالى: لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً (النساء:123)؟

قلت: فإذا ما جاوز باب الهمة؟

قال: فإذا تم له ذلك احتاج إلى أن يتعامل مع الأشياء ليطورها.

قلت: نعم، فالتطوير يحتاج إلى ذلك.

قال: وحينذاك يقع بين أمرين: إما أن يلجأ إلى السنن الإلهية يتعرف عليها ويستنبط منها ما يحتاجه فيتعامل وفقها، وإما أن يحاول خرقها، إرضاء لهمته العالية، فتطحنه سنن الله التي طحنت كل من يخالفها، ألم تقرأ ما كتب على لافتة الباب؟

قلت: بلى، قوله تعالى: وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (الأحزاب: 62)

قال: فكل من تجرأ على خرق قـوانين اللـه حـاق بـه مـا حاق بكل من خرق القوانين.

قلت: أتقصـد أن خـرق قـوانين اللـه يـؤدي إلى نفس العقوبات التي تطبق على من يخرق قوانين البشر؟

قال: بفارق بسيط وعظيم، وهـو أن عقوبـات اللـه بعـدل ورحمة، بخلاف عقوباتكم، فهي جور وقسوة.

قلت: كيف ذلك؟

قـال: أمـا علاقـة عقوبـات اللـه بالرحمـة، فلهـا تفاصـيل كثيرة، ستعرفها في (أسـرار الأقـدار)، أمـا علاقتهـا بالعـدل، فقل لي: لو أنك وضعت يدك على تيار كهربائي، ماذا يحصل لك؟

قلت: لا شك أنه سيصعقني وسيؤذيني.

قال: فلو وضع أعظم أهل الأرض جاهـا،وأكـثرهم جيوشـا يده عليه، فهل يحل به ما حل بك؟

قلت: لا شك في ذلك، فلا علاقة لجيوشه ولا قواه بذلك؟

قـال: فهـذه سـنة من سـنن اللـه اسـتوى فيهـا الوجيـه والوضيع .. وذلك هو العدل.

قلت: لم أفهم.

قال: إن الله تعالى جعـل بحكمتـه للتيـار الكهربـائي هـذه الخاصية عنـد ملامسـة الأجسـاد لـه، وهي بـذلك قـانون من قـوانين الكـون اللامتناهيـة، فهي تطبـق على الجميـع بلا استثناء.

قلت: إلا إذا شـاء اللـه أن يخرقهـا لمن شـاء كمـا خـرق قانون الحرق لإبراهيم ﵇.

قال: حتى ذلك الخرق لم يجعله الله تعالى خرقا مطلقـا، بل هو ضمن سنن الله.

قلت: كيف؟

قال: المعجزة هي تحقق شيء على خلاف العادة، بأسباب العادة، لأنها ليست أسبابا حقيقية.

قلت: كيف؟ لم أفهم.

قال: سنضرب مثال النار الذي ذكرته، وسنبين أنه مع كونه خارقة إلا أنه ينتظم سنة من سنن الله، وسنن الله لا تبدل.

قلت: أنت تريد أن تقلب الحقائق.

قال: بل ما أقوله هو الحقائق.

قلت: ففسر لي هذا.. فسر لي سر قوله تعالى: قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ (الانبياء:69)

قال: هذه الآية تقول لهذه الأمة:(يا ملة ابراهيم! اقتدوا بابراهيم! كي يكون لباسكم لباس التقوى، وهو لباس ابراهيم، وليكون حصناً مانعاً ودرعاً واقياً في الدنيا والآخرة تجاه عدوكم الاكبر، النار، فلقد خبأ سبحانه لكم مواداً في الارض تحفظكم من شر النار، كما يقيكم لباس التقوى والايمان الذي ألبستموه أرواحكم، شر نار جهنم.. فهلموا واكتشفوا هذه المواد المانعة من الحرارة واستخرجوها من باطن الارض والبسوها)(1)

قلت: بالفعل لقد اكتشفت مواد كثيرة لها القدرة على التغلب على قوة النار الحارقة، ولا زال التطوير مستمرا، وهو بذلك يوفر فرصا كبيرة لرجال المطافئ.

قال: وهكذا وجد الإنسان حصيلة بحوثه واكتشافاته مادة لا تحرقها النار، بل تقاومها فيمكنه أن يصنع منها لباساً وثياباً.

قلت: هذا فتح جديد في فهم القرآن الكريم، ألا يمكن أن

---

(1) هذا النص لبديع الزمان النورسي، من كتابه [الكلمات] الكلمة العشرون - ص: 289.

يعتبره إخواننا الحريصون على صفاء الشـريعة والـذابون عن سنة المصطفى ﷺ بدعة، فقد قال ﷺ:(من قال في القـرآن برأيـه فليتبـوأ مقعـده من النـار)، وفي روايـة:(من قـال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار)(1)

قال: لا لم يقصد النبي ﷺ هذا، بل ذلك الرأي المجرد عن العلم، أما الإشارات القرآنية فهي من سماع كلام الله، والله أمرنا بسماع كلامه لا مجرد قراءته ..

قلت: فالقرآن الكريم إذن لا يقصد بذكر المعجزات كونها أدلة للنبوة فقط؟

قال: بل ذلك هو مقصده الأصلي، فالمقصـد الأصـلي هـو ظاهر القرآن الكريم، ولكن لا يمنع ذلك الظاهر من فهم قـد يطرق سمع امرئ يفتح الله عليه به آفاقـا من المعرفـة.. ألا تعرف الفرق بين العالم المحقق والعامي البسيط؟

قلت: العالم يبحث، والعامي يقلد.

قال: العالم يتساءل ويشك ويرى للأشياء وجوها مختلفـة، والعامي لا يرى إلا شيئا واحدا.

قلت: ما فائدة هذا، لعلي بك تستطرد.

قال: لا .. عندما رأى نيوتن التفاحة اسـتفاد من سـقوطها علما أفاد به كثيرا، فهل كان أول من رأى تفاحة تسقط.

قلت: كلهم رأوا ذلك.

قال: ولكنـه لم يسـتفد من سـقوطها إلا من تسـاءل عن سر سقوطها.

قلت: ما معنى هذا؟

قـال: إن سـنن اللـه المبثوثـة في الكـون أو في القـرآن الكـريم لن تفقههـا حـتى تتخلص من حجب الاعتيـاد الـتي

---

1) الترمذي.

تجعلك تحتقرها بدون أن تشعر.

قلت: اشرح لي ذلك.

قال: فلنعد إلى القرآن الكريم، ولنستمع إلى قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ (سبأ: 12)

قلت: إن أذنت لي يا معلمي فسأذكر لك فيها ما يمكن أن نستفيده منها بحسب ما تعلمت منك.

قال: يسرني ذلك.

قلت: يخبر الله تعالى عن النعم التي وهبها سليمان عليه السلام، ومنها تسخير الريح له تحمل بساطه غدوها شهر ورواحها شهر.. هذا منطوقها .. أما إشارتها فهي تشير الى أن الطريق مفتوح أمام البشر لقطع مثل هذه المسافة في الهواء.. وهي بذلك تحث على البحث عن القدرات المخزنة في الهواء لاستغلالها في قطع المسافات.

قال: صدقت في هذا .. بل إن الله تعالى يقول في معنى هذه الآية الكريمة:(إن عبداً من عبادي ترك هوى نفسه، فحمّلتُه فوق متون الهواء، وأنت ايها الانسان! ان نبذت كسل النفس وتركته، واستفدت جيداً من قوانين سنتي الجارية في الكون، يمكنك أيضاً أن تمتطي صهوة الهواء) (1)

قلت: فاذكر لي مثالا آخر.

قال: قوله تعالى:﴿ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّه﴾ (آل عمران: 49)

قلت: هذه الآية تذكر معجزة من معجزات عيسى عليه السلام وهي معجزة إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى .. فماذا تسمع منها ؟

---

(1) هذا النص لبديع الزمان النورسي، من كتابه [الكلمات] الكلمة العشرون - ص: 280.

قال: القرآن الكريم اذ يحث البشـرية صـراحة على اتبـاع الاخلاق النبوية السامية الـتي يتحلى بهـا سـيدنا عيسـى ﷺ، فهو يـرغّب فيهـا ويحض عليهـا رمـزاً الى النظـر الى مـا بين يديه من مهنة مقدسة وطب رباني عظيم.

قلت: فما تقول لنا هذه الآية؟

قال: هذه الآية الكريمة تشير الى: أنه يمكن أن يُعثر على دواء يشفي أشد الأمراض المزمنة والعلل المستعصـية، (فلا تيأس أيها الانسان، ولا تقنط أيها المبتلى المصاب، فكـل داء مهمـا كـان لـه دواء، وعلاجـه ممكن، فـابحث عنـه، وجِـدْه، واكتشفه، بـل حـتى يمكن معالجـة المـوت نفسـه بلـون من ألوان الحياة الموقتة)(1)

قلت: ماذا تقصد بالضبط؟ أو كيف تطبق هذه الإشارة؟

قـال: اللـه تعـالى يقـول بـالمعنى الاشـاري لهـذه الآيـة الكريمـة:(لقـد وهبتُ لعبـد من عبـادي تَـركَ الـدنيا لأجلي، وعافها في سبيلي، هديتين: احداهما دواء للاسقام المعنويـة، والأخرى علاج للأمراض المادية.. فالقلوب الميتـة تُبعث بنـور الهداية، والمرضى الذين هم بحكم الاموات يجدون شـفاءهم بنفث منه ونفخ، فيبرأون به، وأنت أيها الانسـان بوسـعك أن تجـد في صـيدلية حكمـتي دواء لكـل داء يصـيبك، فاسـعَ في هـذه السـبيل، واكشـف ذلـك الـدواء فإنـك لا محالـة واجـده وظافر به) (2)

وهكذا ترى كيف ترسم هذه الآية الكريمة أقصـى المـدى وأبعد الأهداف التي يصبو اليها الطب البشري من تقدم.

قلت: فاضرب لي مثالا آخر.

قال: فلنستمع إلى قوله تعالى:﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (سـبأ: 10)

---

1) المرجع السابق، ص281.

2) المرجع السابق، ص281.

قلت: هذه الآية تذكر ما من الله تعالى به على داود ﷵ من تليين الحديد، وقد اختلف العلماء، هل كان ذلك من المعجزات أم لا .. فما رأيك يا معلم في الأرجح من هذا الخلاف؟

قال: وما يفيدك أن تعلم أن هذا كان معجزة، أو لم يكن معجزة؟

قلت: علم أتعلمه.

قال: وخير منه علم تعمل به ..

ثم سكت هنينهة وتنفس الصعداء، ثم قال: ليت الجهود التي ضيعتموها في الصراع والبحث عن الراجح والمرجوح، ضيعتموها في العمل، وفي علم العمل.

قلت: ما تقصد؟

قال: إن الله تعالى ذكر الحديد في القرآن الكريم، وأكثر من ذكره، وقرنه بإرسال الرسل، وعبر عن خلقه بالإنزال، فقال تعالى:﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد:25)

وأخبر عن استغلال عبده الصالح ذي القرنين له، فقال تعالى على لسانه:﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ (الكهف:96) .. أجبني لماذا أولاه القرآن الكريم هذه الأهمية؟

قلت: لا شك في أهمية الحديد، فهو أساس الصناعة.

قال: فالله تعالى ينبهنا إلى هذا .. إلى استغلال هذا الخلق للتقدم .. لا للجدل في نوع اللين الذي حصل لداود ﷵ.

قلت: فكيف سمعت يا بديع الزمان آية قوله تعالى: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (سبأ: 10)؟

قال: إن تليين الحديد نعمة إلهية عظمى، اذ يبين اللـه بـه فضـل نـبيٍ عظيم. فتلـيين الحديـد وجعلـه كـالعجين، واذابـة النحاس وايجاد المعادن وكشفها هو أصـل جميـع الصـناعات البشرية، واساسها. وهو أم التقدم الحضاري من هذا الجانب ومعدنه.

فهذه الآيـة تشـير الى النعمـة الإلهيـة العظمى في تلـيين الحديـد كـالعجين وتحويلـه اسـلاكاً رفيعـة وإسـالة النحـاس، واللـذان همـا محـور معظم الصـناعات العامـة، حيث وهبهـا البـاري الجليـل على صـورة معجـزة عظمى لرسـول عظيم وخليفـة للارض عظيم. فمـا دام سـبحانه قـد كـرم مَن هـو رسولٌ وخليفة معاً، فوهب للسانه الحكمة وفصل الخطـاب، وسـلّم الى يـده الصـنعة البارعـة، وهـو يحض البشـرية على الاقتداء بما وهب للسانه حضاً صريحاً، فلابد أن هناك إشـارة ترغّب وتحضّ على ما في يده من صنعة ومهارة(1).

قلت للمعلم: فما الطريق للتعرف على سنن الله؟

قال: البصر والبصيرة.

قلت: ما البصر؟ وما البصيرة؟

قال: البصر الحس الظاهر، والبصيرة الحس الباطن.

قلت: تقصد العقل والحس.

قال: أقصد العقل والعقول، والحس والأحاسيس.

قلت: أراك تقـترب، ثم تبتعـد، وتبسـط، ثم لا تفتـأ حـتى تعود للتعقيد.

قال: هذا علم آخر من علوم السلام ستعرفه في محله.

قلت: فلم ذكرته الآن؟

قال: لم أذكره .. وإنما بذرته.

---

1) المرجع السابق، ص282.

قلت: ولم؟

قـال: لتسـقيه بـدموع الشـوق، وتدفئـه بحـرارة الحب، وعندما ينضج البذر، ويطل ببرعمه سيرى الحقيقة.

قلت: متى؟

قال: الزمان جزء من سنن الله، فلا تتخطاه، واسمع جيدا قوله تعـالى: ﴿ وَلا تَعْجَـلْ بِـالْقُرْآنِ مِنْ قَبْـلِ أَنْ يُقْضَـى إِلَيْـكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ (طـه: 114)، فقد قرن اللـه بين النهي عن الاستعجال والزيـادة في العلم، ليخـبر أن عجلتـك تحول بينك وبين التحقيق في العلم.

مفتاح الزمن

بعد أن فتح لنا باب السنن سرنا مـدة من الـزمن إلى أن صادفنا باب آخر كتب عليه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـا السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (قّ:38)

قلت للمعلم: هذا باب الزمن؟

قال: نعم، فـالزمن جـزء من العلاج .. ولا يمكن أن تسـير قدما في لحظة واحدة ..

قلت: إن من قــومي من يقتلهم العجــز، وهم يســندون عجزهم إلى الزمن.

قال: كيف؟

قلت: يواصل أحدهم نوم الليل بالنهـار، ثم لا يصـرف من نهاره إلا جزءا ضئيلا جدا، ثم يتعلل بالزمن.

قال: وما يقولون؟ وكيف يستدلون؟

قلت: يقولون ما تقول من أن الزمن جزء من العلاج.

قـال: الـزمن جـزء من العلاج لمن يعـالج لا لمن يقعـد .. أرأيت لو أن طبيبا أعطاك دواء لتتناوله شـهرا، فقعـدت دون أن تتناوله تنتظر مضي الشـهر ليحصـل لـك الشـفاء .. فهـل سيحصل لك الشفاء بعد مضي الشهر؟

قلت: كلا .. بل لعـل حـالتي سـتتردى، فـبراعم الجـراثيم الـتي غفلت عنهـا طيلــة الشــهر ستصــبح أشــواكا تقتلــني بسمومها.

قال: فالزمن بهذا ليس جـزءا من العلاج، وإنمـا هـو جـزء من المشكلة.

قلت: نعم.

قال: فهو سلاح ذو حدين كسائر الأسلحة.

قلت: نعم .. ولكن متى يكون سلاحا نافعا؟

قال: إذا استعان بالسنن، فالسنن هي الدواء، ومن لم يستعمل الدواء أكله الداء، أو قتلته الأدواء.

قلت: فكيف يكون الزمن سببا من أسباب الترقي والتطور؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً (الفرقان:62)؟

قلت: إن الله تعالى يمن في هذه الآية على عباده أنه جعل الليل والنهار يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل، وقد قال ابن عباس في الآية: (من فاته شيء من الليل أن يعمله أدركه بالنهار، أو من النهار أدركه بالليل)

قال: فهذه الآية إذن تضع الفرص الزمانية أمام العباد ليترقوا، وكأنها تقول لهم:(لم يفتكم شيئ، فما فاتكم يمكن أن تستدركوه)، وقد نص ﷺ على هذا التبشير الذي تحمله الآية، فقال:(إن اللّه عزَّ وجلَّ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل)(1)

قلت: لكأن الآية تدعونا إلى تجديد حياتنا في كل لحظة.

قال: بل تدعونا إلى ميلاد جديد في كل لحظة، فلا يمكن أن نبقى مزبلة تتكوم على أرواحنا أكوام النجاسات.

قلت: هذا كلام جميل، فكثيرا ما نعيش الماضي، ونتألم الماضي، فنصير ضحايا الماضي.

قال: وهذا خلاف ما يدعوكم إليه القرآن الكريم، فقد قال تعالى: لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ (الحديد: 23)

---

(1) .

قلت: فما العلاج يا معلم؟

قال: التخطيـط للـزمن المسـتقبل، فتجعـل حياتـك كتابـا موقوتا.

قلت: كأني بـك تسـمع قولـه تعـالى: إِنَّ الصَّـلاةَ كَـانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً (النساء: 103)

قال: نعم، فالصلاة هي المؤمن، والمؤمن هو الصلاة، فما دامت الصـلاة كتابـا موقوتـا، فـالمؤمن كتـاب موقـوت، ألم تسمع ما قال تعـالى في وصـف عبـاده الصـالحين وعلاقتهم بالليل.

قلت: بلى، فاللـه تعـالى يثـني على علاقتهم بالليـل ثنـاء حسنا، فقد قـال تعـالى فيهم: وَالَّذِينَ يَبِيتُـونَ لِـرَبِّهِمْ سُـجَّداً وَقِيَامـاً (الفرقـان:64)، وقـال: كَـانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْـلِ مَـا يَهْجَعُـونَ وَبِالْأَسْـحَارِ هُمْ يَسْـتَغْفِرُونَ (الـذريات:17 ـ 18)، وقـال: تَتَجَـافَى جُنُـوبُهُمْ عَنِ الْمَضَـاجِعِ يَـدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفـاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (السجدة:16)

قال: فليلهم كنهارهم حي عامر يملتئ حياة.

قلت: وهل يمكن أن تمتلئ حياة امرئ موتا؟

قال: نعم، عندما يعيش في السراب، باحثا عن السـراب، لاهثا وراء السراب.

قلت: لقد ذكرتني، يا معلم، بقول الشاعر:

يخبرني البواب أنك نائم   وأنت إذا استيقظت أيضا فنائم

قال: فكذلك الغافلون، نومهم كنهارهم لا ينتفعون بهما.

قلت: فكيف أعمر وقتي بالحياة؟

قال: بالهمة.

قلت: ولكن الهمة مضى الحديث عنها.

قال: لم يمض، الهمة ستجدها في كل باب، وفي كل معراج، وفي كل بحر، فلا يمكنك أن تسلك سبل السلام وتعرج إلى دار السلام إلا بالهمة العالية، فهي الجناح الذي تطير به، وهي السفينة التي تبحر بها، وهي المفتاح الذي تفتح به غوامض الحقائق، والشيفرة التي تحل بها أسرار الوجود.

قلت: فكيف السبيل إلى الهمة؟

قال: فلنعد إلى أولئك الخاشعين الذي تركوا الفراش الوثير والنوم الهادئ وراحوا يفترشون أقدامهم تزلفا إلى الله .. ما الذي حركهم؟

قلت: أروي في ذلك أبياتا، واحفظ في ذلك قصصا.

قال: فما الأبيات؟

قلت: قال ذو النون المصري:

منع القران بوعده ووعيده مقل العيون بليلها أن تهجعا

فهموا عن الملك الجليل كلامه فرقابهم ذلت إليه تخضعا

وقال آخر يصف الصالحين:

إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفر عنهم وهم ركوع

أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع

قال: فما الحكايات؟

قلت: حكى أن غلاما بالبصرة اسمه صهيب، كان يقوم الليل كله، فقالت له سيدته:(إن قيامك بالليل يضر بعملك بالنهار)، فقال:(إن صهيبا إذا ذكر النار لا يأتيه النوم)، وقيل لغلام آخر، وهو يقوم كل الليل فقال:(إذا ذكرت النار اشتد خوفي، وإذا ذكرت الجنة اشتد شوقي، فلا أقدر أن أنام)

قال: فقد أجبت إذن على سؤالك.

قلت: تعـني أن الحقـائق الـتي آمنـوا بهـا فتغلغلت في كيـانهم هي الـتي جعلتهم يسـتهينون بتلـك المتـاعب الـتي تكابدها أعينهم بالسهر وأرجلهم بالقيام.

قـال: لا، بـل إن الحقـائق الـتي كـانوا يعيشـونها جعلتهم يسـتحلون افـتراش أقـدامهم للـه، فهم لم يتكلفـوا في تلـك الحال، بل كانوا يتنعمون، ألم تقرأ أخبارهم مع الليل؟

قلت: بلى، فقد كانوا يحبـون الليـل ويحنـون شـوقا إليـه، وقد قيل لبعضهم:(كيف أنت والليل؟)، فقال:(ما راعيته قط، يريني وجهه، ثم ينصـرف ومـا تأملتـه بعـد)، وقـال آخـر:(أنـا والليل فرسا رهان، مرة يسبقني إلى الفجر، ومرة يقطعـني عن الفكر)، وقيل لبعضهم:(كيف الليل عليك؟) فقال:(ساعة أنا فيها بين حالتين، أفرح بظلمتـه إذا جـاء، وأغتم بفجـره إذا طلع، ما تم فرحى به قط)، وقال آخر:(منـذ أربعين سـنة مـا أحزنني شـيء سـوى طلـوع الفجـر)، وقـال آخـر:(ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة)

قال: وأقوال أخرى كثيرة تنبئ عن فرحهم به.

قلت: يـا معلم لكـأني بنـا تهنـا مـع أهـل الليـل عن أهـل النهار؟

قال: ما تقصد؟

قلت: ألم يجعـل اللـه النهـار للمعـايش، فقـال: وَجَعَلْنَـا النَّهَارَ مَعَاشاً (النبأ:11)؟

قال: لم نتـه، بـل نحن نسترشـد بأهـل الليـل لنعـرف مـا نعمل بالنهار.

قلت: كيف؟

قال: أهـل الليـل كـانت لهم همـة هي الـترقي إلى اللـه،

والصعود في معارج العرفـان، وقـد تم لهم من ذلـك الكثـير، ومن نجح في الليل لن يعجز أن يدلنا على النجاح في النهار.

قلت: اشرح لي، فإني لا أكاد أفهم.

قال: أهل الليل كانت لهم همة عالية، وكـان لهم مـا يثـير تلـك الهمـة من الأشـواق، فتحقـق لهم مـا أرادوا من التنعم بالتعب، والتلذذ بوطأة الليل.

قلت: فكيف نسترشد بهذا في نهار المعايش؟

قـال: عنـدما تكـون لنـا أشـواق الـترقي عن الحضـيض، والسمو عن السفاسف، والتحليق في أجـواء الكمـال حينهـا سنمتطي صهوة الزمن للعروج في معارج التمدن.

قلت: أتعني أن الشوق هو بذر الطريق.

قال: الشوق هو البذر، والـزمن هـو الكفيـل بإنبـات ذلـك البذر.

قلت: فإلى أي معارج نرتقي؟

قال: ألستم متخلفون؟

قلت: بلى، بل في أرذل درجات التخلف.

قال: هذا شيء جميل.

قلت: كيف يكون شيئا جميلا، أتحسب ما نحن فيه كمالا؟

قال: لا أقصـد هـذا، ولكـني أقصـد أن شـعوركم بتخلفكم شيء جميل.

قلت: لم؟

قال: لأنه سـينفخ فيكم الألم الـذي يجعلكم تثـورون على تخلفكم، فتمتطوا الزمن كما يمتطي العـداء مـا بقي لـه من دقائق ليسابق من سبقه.

قلت: ولكن المسافة بيننا وبين من سبقنا هائلة، فلو امتطينا مراكب فضائية، لن نسبقهم.

قال: لم؟

قلت: لأنهم حينها سيكونون قد اخترعوا مراكب ضوئية.

قال: وهل تتصور أنكم ستبدأون من حيث بدأوا؟

قلت: ومن أين نبدأ إذن؟

قال: من حيث انتهوا.

قلت: كيف؟

قال: ألم يصلوا إلى أشياء فاتكم الوصول إليها؟

قلت: بلى، وهي أشياء كثيرة.

قال: فابدأوا منها، وابدأوا سباقا جديدا كل يوم، واخلعوا ثياب ماضي التخلف أو التقدم، فلا يهمكم من تخلف من أجدادكم أو تقدم، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:134)؟

قلت: ولكنا لا نزال في أسفل درجات التخلف.

قال: ألم تعلم كيف بدأ إطلاق أول صاروخ في الفضاء؟

قلت: بلى، ففي شهر آب (أغسطس) من عام 1932م أطلقت الجمعية الأمريكية للسياحة بين الكواكب صاروخها الأول، ولم يكن طوله يزيد عن 15 سم، وقطر قاعدته 7.5 سم، وكانت منصة الإطلاق مكونة من قائمين مصنوعين من خشب الصنوبر، وقد غطيتا بكمية وافرة من الصابون لتسهيل انطلاق الصاروخ إلى الأعلى، وقد وقف رئيس الجمعية (ديفيد لير) والمهندس (لورانس ماننغ) يراقبان عملية الإطلاق من خلف أكياس الرمل.

وتفادياً لمشكلات الإشعال فقد كلف أحد المهندسين المساعدين بإشعال الصاروخ بعود من الثقاب، وبعد ثانيتين دار المحرك كما كان مقدراً له، ولكن لم يلبث أن انفجر وطار إلى حيث وقع على بعد 170 م من منصة الإطلاق.

قال: فهل كانت هذه مسرحية هزلية، أم ماذا؟

قلت: بل كانت تجربة أثبتت جدواها بعد عقود من السنين ظل الجهد فيها مستمرا.

قال: لا تهم العقود، بل يهم الوصول، فهل وصلوا؟

قلت: أجل، ولولا تلك التجارب البسيطة ما استطاعوا ملء الفضاء بالأقمار الصناعية وغيرها، ولسنا ندري ماذا سيحصل في المستقبل.

قال: فقد بدأو بعود ثقاب، وببضع سنين.

قلت: نعم.

قال: أتدري وجه الإشارة القرآنية لهذا المعنى.

قلت: ما هي؟ فإني لا أتصور أن في القرآن الكريم حديثا عن هذا.

قال: ألم تسمع قصة الذي مر على القرية الخراب؟

قلت: بلى، فقد قال تعالى في شأنه: أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (البقرة:259)

قال: لقد تعجب أن يحيي الله تلك القرية بعد موتها، فأماته الله مائة عام ليبصر حياتها.

قلت: فهل نحتاج إلى الموت لنبصر حياة أمتنا؟

قـال: لا .. بـل تحتـاجون إلى الحيـاة .. فـإن استسـلمتم للموت، فإن الله يحي هذه الأمة بخلف يدفنونكم في كهوف النسـيان، ألم يقـل اللـه تعـالى: وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْـتَبْدِلْ قَوْمـاً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (محمد: 38)؟

قلت: فما الطريق؟

قال: امتطوا صهوة الزمن، واحملوا أشعة السـنن لتملأوا الأرض خيرا وريا.

بعد أن فتح لنا باب الزمن سرنا مدة إلى أن صادفنا باب آخر كتب عليه قوله ﷺ : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) (1)

قلت: لا شك أن هذا باب الأخلاق.

قال: أجل .. ومن لم يدخل إليه تعذب بمدنيته في الدنيا قبل الآخرة .. ولم ينفعه تمدنه في الدنيا، ولا في الآخرة.

قلت: لماذا تخوفني هكذا.

قال: هذا ليس تخويفا، هذه حقيقة، فالأخلاق هي حامي هذه الأبواب، فمن لم يتخلق لم يفد الخلق بعلمه ولا بإتقانه ولا بتطويره.

قلت: صدقت يا معلم، بل الأخلاق هي الكنز الذي لو استثمره الفقراء لكسبوا به ما تعجز خزائن الأغنياء عن تحمله.

قال: بل لو استثمروه لعاشوا به في سعادة يعجز الأغنياء عن تحصيلها بأموالهم.

قلت: كيف ذلك.. وأنا أرى في الواقع كثيرا من قومي قد فتحت لهم أبواب الثروة، وأغدقت عليهم شآبيب الرزق من غير أن يكون لهم من الأخلاق كثير ولا قليل، فكيف يكون الخلق جزءا من التمدن؟

قال: وما فائدة أرزاق تكثر، وبركات تنقص؟ وما قيمة مصانع تؤسس، وقصور تهدم؟

قلت: أي قصور تهدم يا معلم؟ أنا لا أراها بل أرى الزلازل مع ما أوتيت من قوة تعجز عن قصور هؤلاء.

قال: تلك أكواخ، وليست قصورا؟

---

(1) رواه أحمد.

قلت: فأين القصور إذن، أهي قصور الجنة؟

قال: هي القصور التي جعلها الله في أعماق الإنسان إن تأدب مع الله ومع نفسه ومع الإنسان ومع الكون .. الحق أقول لك: من لم يحز هذا القصور عاش في زنازن من الرعب، ولو سترها بطلاء الذهب والفضة، فالزنازن تظل زنازن ولو طليت بكل طلاء وزينت بكل زينة، ألم تسمع الله تعالى وهو يقول: وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (طه:124)

قلت: ولكن الآية الكريمة تتحدث عن الذكر، ولا تتحدث عن الخلق.

قال: وهل الذكر إلا خلق، أترى من نسي مولاه الذي خلقه، ورباه، ورزقه، وأنعم عليه، ولا خير إلا منه، يكون متخلقا .. إن مبدأ الخلق هو التخلق مع الله، فمن تخلق مع الله تخلق مع عباد الله، ومن أساء أدبه مع الله أساء أدبه مع الكون جميعا ابتداء من نفسه، ألم تسمع الحق تعالى وهو يقول: يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (البقرة:9)؟ فمن ظن أنه يخدع الله، فقد وقع في خديعة نفسه.

قلت: يا معلم، فما هي نواحي الخلق التي على المتمدن أن يربي نفسه عليها، أو يربيه المجتمع عليها؟

قال: لن تعرف النواحي حتى تعرف حقيقة الخلق.

قلت: وما حقيقة الخلق؟

قال: أداء الحقوق لأصحابها، وعدم الاعتداء عليها.

قلت: كيف؟

قال: إذا اعتديت على حقوق أصحاب الحقوق ظلمتهم، والظلم منبع الرذائل، وإذا سلمتها لهم كاملة غير منقوصة عدلت، والعدل أصل الفضائل.

قلت: ولكن الأخلاق كثيرة، وما العدل إلا واحد منها، بل إن الفضل والإيثار أعظم من العدل نفسه.

قال: ولكن العدل هو البذرة التي ينبت منها الفضل والإيثار، كما تنبت منها جميع الفضائل.

قلت: فسر لي ذلك.

قال: الإنسان محاط بمجموعة من العلاقات، وكل علاقة تتطلب سلوكا معينا، وحقوقا معينة، فمن قصر في حق طائفة من الطوائف وقع في الجور، ومن وقع في الجور لا يستقيم أمره إلا بالرجوع إلى العدل.

قلت: ولكني لم أر للعدل في النصوص هذه المكانة التي تتحدث عنها.

قال: ألم يجعل الله الاستقامة هي مبتغى آمال السالكين، فقال تعالى: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (الفاتحة:6)، وأخبر عن غيرهم، فقال: وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (المؤمنون:74)

قلت: بلى.

قال: فالاستقامة هي العدل، فمن اعتدل فقد استقام.

قلت: لعلك تقصد ما ذكره علماء السلوك من المسلمين وغيرهم من أن الخلق الحسن يقع بين طرفين مذمومين والاستقامة والعدل هو تجنب الطرفين المذمومين.

قال: بل قد ورد هذا المعنى في القرآن الكريم واضحا جليا، فقد ذكر في القرآن الكريم الأكل مقيدا بما يمنعه من الطغيان، قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (الأنعام:141)، ففي الآية الكرية دعوة للأكل تنافي ما يدعو إليه الرهبان من الجوع، ولكنها لا تنسجم كذلك مع ما يدعوا إليه أهل

الشهوات من الاقتصار على الأكل المجرد.. وهي تدعو كذلك إلى البذل، وعدم نسيان المحتاجين، لأن الشهوة قد تولد الحرص المولد للبخل، فلذلك تعارض الشهوة بالبذل.

قلت: صدقت في هذا، وقد قال تعالى:﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ (الاسراء:29)، فغل اليد إلى العنق يولد صفة البخل، وهي من شر الصفات، وبسط اليد كل البسط، قد يولد الفاقة والفقر، وهو كذلك منبع من منابع الانحراف، كما قال ﷺ:(كاد الفقر أن يكون كفرا)(1)

قلت: قد عرفت الخلق، وأنه أداء الحقوق لأصحابها، فمن هم أصحاب هذه الحقوق، وكيف أؤديها لهم؟

قال: إن اقتنعت بهذا، فسيفتح لنا هذا الباب .. وسنمر بعده على الأبواب تجيبك على هذا.

1) أبو نعيم في الحلية ، و الطبراني.

بعد أن فتح لنا باب الأخلاق سرنا مدة إلى أن صادفنا باب في منتهى الجمـال، بـل لا يكـاد البليـغ مهمـا أوتي من قـوة التعبـير أن يصـفه، ألوانــه ليســت كـالألوان، وشــكله ليس كالأشكال، ومادته ليست كالمواد، وكأنه قد صـمم في عـالم غير عالمنا، أو كأنه باب من أبواب الجنة هبـط إلينـا ليعـرض صناعة الجنان.

لم تكن هناك لافتة معلقة عليه، ولكن حروفا كانت تمـوج في داخلـه كـأمواج البحـر، تـردد بلا حـرف ولا صـوت قولـه تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَـارْغَبْ﴾ (الشـرح:7 ـ 8)

سألت عن سر هـذا البـاب الجميـل، وعن المصـنع الـذي صنعه، فقال: هذا الباب لم يصنع.

فتعجبت، وقلت: وهل نبت كما تنبت الأشجار؟

قال: هذا بـاب التخلـق مـع اللـه، وهـو من أجـل الأبـواب وأجملها، أما الجمال الذي تراه فيـه، فإنـه اكتسـبه من قربـه من الله، ألا تعلم أن المتخلق قريب من الله؟

قلت: بلى، فقد ورد في النصوص ما يدل على ذلك، فقـد قال ﷺ في السخاء، وهو من أعظم الأخلاق:(السخي قـريب من الله قريب من النـاس قـريب من الجنـة بعيـد من النـار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيـد من الجنـة قـريب من النار، ولجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل)(1)

قال: وقـد ذكـر ﷺ مـا يشـير إلى هـذا المعـنى بنـوع من القياس الصحيح، فقد قال:(إن أحبكم إلي وأقربكم مـني في الآخرة مجالس محاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلي وأبعــدكم مـني في الآخـرة مسـاويكم أخلاقـا الثرثـارون المتفيهقـون

---

1) رواه الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في السـخاء رقم (1961) وقال: غريب.

المتشدقون)(1)

فمن كـان قريبـا من النـبي ﷺ فهـو قـريب من اللـه، بـل ليس هناك من هو أقرب إلى الله من حبيبه ﷺ.

وقد ورد في حديث آخر ما يدل على هذا بمثل هذا النـوع من القيـاس، فقـد قـال ﷺ:(إن أكمـل المؤمـنين إيمانـا أحسنهم خلقا، وإن حسن الخلق ليبلغ درجة الصوم والصلاة)(2)

فلا يكمل إيمان المؤمن إلا بقربه من الله، فالقرب علامة كمال الإيمـان كمـا قـال ابن عطـاء اللـه:(وصـولك إلى اللـه وصولك إلى العلم به، و إلا فجل ربنا أن يتصـل بـه شـيء أو يتصل هو بشيء)

قلت: مـا سـر هـاتين الآيـتين الـتي تموجـان في داخلـه وتنطقان من غير حرف ولا صوت .. لله ما أحلى جمالهما!!

قال: هما آيتا التخلق مع الله في هذا الباب.

قلت: ألكل باب من أبواب التخلق مـع اللـه آيتـه الخاصـة به؟

قال: أجل، فكـل آيـة من آيـات القـرآن الكـريم بـاب من أبـواب التخلـق مـع اللـه، فمن تخلـق بأخلاقهـا فتح لـه من المعرفة بالله والقرب منـه بحسـب تخلقـه .. ألا تعلم السـر الأعلى لإنزال القرآن الكريم؟

قلت: وما هو؟

قـال: هـو الدلالـة على اللـه، والتعريـف بـه، والتعريـف بالسلوك إليه، وكيفية التأدب معه.

قلت: ولكن القرآن الكريم يحوي المعاني الكثيرة.

---

1) أحمد وابن حبان والطبراني في الكبير والبيهقي.

2) البزار.

قال: هي كالسيول المختلفة تفترق لتجتمع في مصب واحد.

قلت: فبين لي ذلك.

قال: الآية الكريمة التي تموج في بحر هذا الباب هي التي تقول لك ذلك.

قلت: هي لا تنطق.

قال: بل هي تنطق، ولكن أنت الذي لا تسمع.

قلت: هذا صحيح، فأذن الإنسان محدودة.

قال: تلك أذن الطين، أما أذن الروح فلها من قوة السمع ما تدرك به الأصوات وغير الأصوات، ألم تعلم سر سمع سليمان ﷷ للنملة عندما قالت:﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: 18)، فتبسم ضاحكا من قولها.

قلت: تلك معجزة حصلت له.

قال: ألم تعلم بأن معجزات الله لا تخرق سنن الله، فسنن الله لا يعتريها التبديل والتحريف!؟

قلت: أجل لقد علمتني هذا، ولكن كيف استطاع سليمان ﷷ أن يسمع النمل، وكيف استطاع أن يعلم لغتها!؟

قال: ستعلمها في محلها، والآن قل لي ما تسمع من هذه الآية؟

قلت: لا تزل أذن قلبي مغلقة دون سماعها.

قال: فحدد سمع الإيمان، وقل لي.

شعرت بضعف عظيم ملأ جوانبي، وأنا أرى عجزي عن سماع كلام الله، فابتهلت إلى الله بدموع فاضت من قلبي

كالأنهار، وبزفرات كادت تحرق ضلوعي، فـإذا بسـكينة تـنزل في أعماقي تطفئ لهيب النار، وتأمر أنهار دموعي أن تجـف وتغيض .. وإذا بي أسمع تراتيل الآيـة وهي تـتردد في قلـبي، فلاح لي من معانيهـا مـا لم يكن يخطـر لي على بـال .. وشعرت بنشوة عظيمة غبت بها عمـا حـولي لم يقطعهـا إلا صوت المعلم، وهو يقول: هل سمعت ما قالت؟

قلت: قد سمعت ما قالت، ولكن لا طاقة لي بترديده.

قال: ومن طلب منك أن تردد مـا قـالت، ومن لـه طاقـة ذلك؟.. ولكن تحدث عما يمكن الاستفادة منه.

قلت: أعظم مطلوب هو الله، فمن ترك اللـه ورغب عن اللـه لأي شـيء من الأشـياء فقـد خـذل، وبـاع اللـه بـأبخس الأثمان.

قـال: فـأخبر قومـك الـذين انشـغلوا عن اللـه بتجـارتهم واختراعـاتهم ولهثهم وراء بريـق الأمـوال ومنـابع الـثراء أنهم يلهثون وراء السراب، وأنهم بغفلتهم عن اللـه ونسـيانهم لـه وقعوا في الغفلة عن أنفسهم ونسيانها، ألم يقل الله تعـالى: ﴿ وَلا تَكُونُـوا كَالَّذِينَ نَسُـوا اللَّهَ فَأَنْسَـاهُمْ أَنْفُسَـهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر:19)؟

قلت: يا معلم، ألا ترى أن أكبر أدواء الحضارة هي الغفلـة عن الله؟

قال: لا .. الحضارة لا تؤدي إلى الغفلة عن الله، فحضارة الجنة أعظم من حضارتكم التي تتيهون بها، وأهلها لا يغفلون لحظة عن الله، وسترى عندما ترحل إلى (دور السـعادة) مـا في الجنـة من مظـاهر الحضـارة الـتي لا يوازيهـا إلا مظـاهر التقرب والعبادة من الله.

قلت: ولكن تلك الجنة، ونحن في الدنيا.

قال: فحضارة سليمان ﷷ أعظم من حضارتكم، فقد آتاه الله من القوى ومن تسخير الأشياء ما لم تؤتوه، وما لم يؤته أحد من قبل ومن بعد.

قلت: ذلك صحيح، فالله تعالى قال في شأنه: قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (صّ:35)، وقد حقق الله سؤله فأعطاه من الملك ما لم يعط أحدا من عباده.

قال: أتعلم سر طلب سليمان ﷷ هذا الطلب؟

قلت: كدت أسألك يا معلم، فإن في نفسي شيئا من هذا الطلب أستحيي من ذكره.

قال: قل، فلا حرج على المتعلم أن يعرض شبهته على معلمه، ألم تعلم أن الناس سألوا رسول الله ﷺ عن الوسوسة التي يجدها أحدهم، لأن يسقط عن الثريا أحب إليه أن يتكلم بها، فقال ﷺ:(ذاك صريح الإيمان، إن الشيطان يأتي العبد فيما دون ذلك فإن عصم منه وقع فيما هنالك)(1)

قلت: أقول في نفسي: لقد عهدنا الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ زاهدين في متاع الدنيا راغبين في الله مكتفين بالله، فكيف طلب سليمان ﷷ هذا الطلب الغريب؟

قال: كيف ترى سليمان ﷷ في القرآن الكريم؟

قلت: لا أراه إلا خيرا منيبا، بل لقد أثنى الله عليه بكونه منيبا رجاعا إلى الله، فقال: وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (صّ:30)، وقال تعالى: وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (صّ:34)

---

1) النسائي.

قال: فهل شغله تدبير ملكه العظيم الذي لا نظير لـه عن الله؟

قال: لا .. بل أراه يذكر الله كل حين، ويعرف الفضل للـه كل حين، فعندما مر على النملـة وسـمع كلامهـا قـال: رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْـكُرَ نِعْمَتَـكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِـدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَـادِكَ الصَّـالِحِينَ (النمل: 19)

قال: وهل ظهرت هذه الإنابة في علاقته مع غيره؟

قلت: أجـل، فقـد كتب لملكـة سـبأ يقـول لهـا: إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الـرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُـوا عَلَيَّ وَأْتُـونِي مُسْلِمِينَ (النمل:31)

وقال مخاطبا رعيته: يَا أَيُّهَـا النَّاسُ عُلِّمْنَـا مَنْطِـقَ الطَّيْـرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (النمـل: 16)، فقد أرجع الفضـل إلى اللـه في تعليمـه منطـق الطـير، أو في إتيانه من كل شيء.

قال: فإن سليمان ﵇ طلب ذلك الملك، وبتلـك الصـورة التي لا ينازعه فيها أحـد ليكـون حجـة على من شـغله ملكـه عن الله، وكأن سليمان ﵇ يقـول لربـه: (يـارب هب لي من الملك ما تشاء .. بـل هب لي ملكـا لا ينبغي لأحـد من بعـدي أن يحصل عليه .. فإن هذا الملك مهما كان عظيمـا .. وذلـك الفضل مهما كان وفـيرا لن يحجبـاني عنـك ولن يبعـدا قلـبي عن الرغبة فيك .. فإني لا أرى الأشياء مهما كثرت إلا منك .. ولا أرى نفسـي إلا بـك .. فكيـف أحجب بهـداياك الواصـلة إلي .. أم كيف أنشغل بفضلك عنك)

قلت: فاستجاب الله ليبلوه.

قال: لا، بل استجاب له، ليبلوكم.

قلت: كيف؟

قال: لقد علم الله صدقه وصدق يقينه، فجعله حجـة على

كل من انشغل بفضل الله عن الله، أو انشغل بالرغبة في الأشياء عن الرغبة في مشيئ الأشياء .. وقد جعله الله تعالى بالإضافة إلى ذلك مقوما لمن أساءوا فهم الزهد، فتصوروا الأرزاق حجبا عن الله، والفضل الإلهي جنودا لله تبعد عن الله.

قلت: نعم، هذا صحيح، ولعله لأجل هذا ذكر الله تعالى ما أظهر سليمان ﵇ لملكة سبأ من مظاهر الملك الذي أعطاه الله له، فلم يكن غرضه الفخر عليها، وإنما كان غرضه تعريفها بالله، لأنها انشغلت بالعرش العظيم الذي كان لها عن الله، فلذلك كان أول ما لاقاها به سليمان ﵇ هو عرشها الذي حجبها عن الله، وعن التسليم له، قال تعالى: فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ (النمل:42)

فلما قالت ذلك، وفي غمرة انبهارها بما رأت أخبرها سليمان ﵇ بأنه مع هذا الملك كان مسلما لله، فلم يحجب به عن الله، فقال تعالى على لسانه: وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ)

فلما رأى سليمان ﵇ حاجتها إلى المزيد من الأدلة، أحضرها إلى الصرح الممرد من القوارير، وقد كان من الجمال بحيث لا يساوي عرشها الذي شغلها عن الله شيئا بجانبه، وحينذاك لم تملك إلا أن تسلم لله، قال تعالى: قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (النمل:44)

قال: بل في القرآن الكريم ما يدل على هذا المعنى، فقد أوتيت ملكة سبأ من الذكاء ما استطاعت أن تميز به الملوك من المؤمنين، فقد أرسلت بهدية قيمة لسليمان ﵇ لتختبره موقفه من المال، قال تعالى على لسانها: وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (النمل:35)

لكن سليمان ﵇ نظر إلى ما أعطاه الله من الإيمان والفضل فوجده أعظم بكثير من أن ينحجب بهديتهم، فقال:

﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ (النمل:36)

قلت: لقد فهمت يا معلم سر طلب سليمان ﷺ، ولكن لماذا ورد في القرآن الكريم ذكر ملكة سبأ بالذات، وذكر هذا الموقف من سليمان ﷺ معها؟

قال: لقد أراد الله من هذا النموذج أن يبين لنا كيفية دعوة من بهرتهم الدنيا وشغلتهم عن الله.

قلت: لم أفهم.

قال: إن ملكة سبأ بعرشها، وقومها بتعظيمهم لها انشغلوا عن الله، فجعل الله فيما أعطى المؤمنين من أسباب الفضل التي لم تشغلهم عن الله ما يرغبهم في الإيمان بالله.

قلت: ولكن القرآن الكريم ذكر إسلام ملكة سبأ وحدها.

قال: والقرآن الكريم ذكر التبعية المطلقة لقومها لها، كما قال تعالى على لسان مستشاريها:﴿ نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (النمل: 33)، وهو ما يدل على أنهم اتبعوها على الإيمان.

قلت: وهل رجعت إليهم حتى يتبعوها؟

قال: ومن قال: إنها لم ترجع إليهم .. إن القرآن الكريم أخبر أن غاية سليمان ﷺ من إرساله لها هو حثها على الإسلام لا سلب ملكها منها، كما قال تعالى على لسانه:﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (النمل:31)

قلت: ولكن المفسرين أخبروا أنه تزوجها.

قال: وهل حضروا حفل زواجها!؟ .. ما أولعكم بما لا يفيدكم.

قلت: ولكنهم رووا في ذلك أخبارا، فقد رووا أن الجن أرادوا أن يبشعوا منظرها عند سليمان ﷺ وأن تبدي عن

ساقيها ليرى ما عليها من الشعر فينفره ذلك منها، وخشوا أن يتزوجها لأن أمها من الجان فتتسلط عليهم معه وذكر بعضهم أن حافرها كان كحافر الدابة.

ثم إن سليمان ﷺ لما أراد إزالته ــ حين عزم على تزوجها ــ سأل الإنس عن زواله فذكروا له الموسى، فامتنعت من ذلك، فسأل الجان فصنعوا له النورة ووضعوا له الحمام، فكان أول من دخل الحمام فلما وجد مسه قال: (أوه من عذاب أوه أوه قبل أن لا ينفع أوه)

وقد ذكر الثعلبي وغيره أن سليمان لما تزوجها أقرها على مملكة اليمن وردها إليها، وكان يزورها في كل شهر مرة، فيقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على البساط، وأمر الجان فبنوا له ثلاثة قصور باليمن: غمدان وسالحين وبيتون.

قال: طهروا كتب تفسيركم من هذا الرفث، فالحقائق الجميلة الطاهرة للقرآن الكريم لا ينجسها إلا هذا اللغو الذي تملأون به أسفاركم، وتضيعون به أوقاتكم، وتنشغلون به عن ربكم.

قلت: ألا يمكن، يا معلم، أن نستفيد من موقف سليمان ﷺ مع ملكة سبأ فنجعله أسلوبا من أساليب الدعوة لله في عصرنا؟

قال: بل لم يذكره القرآن الكريم إلا لتستخدموه، فلو أن رجالا من هذه الأمة رفعوا هممهم وسخروا السنن التي وضعها الله لهم، وامتطوا صهوة الزمان، فأخرجوا الأمة من غياهب التخلف والمعاناة، وأوصلوها إلى التقدم والتطور الذي لا يحجب عن الله لتحقق بذلك نصر الله الذي يدخل الناس بسببه في دين الله أفواجا.

قلت: ولكن النصر ـ كما أتصوره ـ نصر جيوش.

قال: ذلك نصر المصارعين، أما المسالمون فهم الذين ينتصرن بأقلامهم ودفاترهم، وفؤوسهم ومعاولهم.

بعد أن قال ذلك فتح لنا الباب .. فرأينا من الحدائق الغناء مـا لا يمكن وصـفه.. لكنـا مـا إن سـرنا قليلا حـتى لمحت صـورتي على بـاب اعترضـنا، فقلت للمعلم: أهـذا بـاب أم مرآة؟

قال: بل هو باب.

قلت: ولكني أرى صورتي تتجلى فيه.

قال: نعم، وهو باب تتجلى فيه صور النفوس، هـذا البـاب هو باب نفسك.

قلت: نفسي! .. إذن هو باب قبيح كقبحها.

قال المعلم: ومن قال لك بأن نفسك قبيحة؟

قلت: أليسـت النفـوس هي مرتـع الخبث، وهي مـرعى الشيطان، وهي مصـيدة الـدنيا؟ .. أليسـت النفس هي الـتي نازعت الله ملكـه، ونـازعت الـروح سـلطانها، وسـلمت كـل الأكوان لكل أنواع الصراع؟

قال: ولكنه لولا النفس ما تحقق سير السائرين.

قلت: لكـأني بـك تـذكرني بحكمـة ابن عطـاء اللـه:(لـولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين، إذ لا مسـافة بينـك وبينه حتى تطويها رحلتك، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوهـا وصلتك)

قال: أجل، فلولا شهوات النفوس ومألوفاتها التي تخوض فيها وتتعشقها، كما تخوض الفرسان في الميـادين الواسـعة التي تجول فيها الخيل، ما تحقق سير السـائرين، ولا تحققت بالمعارف التي تنتشر عليك من مجاهدتك لنفسك.

قلت: فالتخلق مع نفسي أن أجيعها وأذيقها ألوان المـوت التي ذكرها العارفون، كما قال ناطقهم:

فأوردتها ما الموت ليس بعضه وأتعبتها كي ما تكون مريحتي

ولم يبق هول دونها ما ركبته وأسهد نفسي فيه غير زكيتي

قال: ذاك مقام المجاهدة، وسترى أغراضه وحقيقته عند: (مكابدات العـارفين)، ولكن هـذا مقـام التخلـق مـع النفس، وهو يستدعي التأدب معها.

قلت: وأي أدب لي مع نفسي وهي مهينـتي وحجـابي عن ربي.

قال: أدبك معها أن تسلمها الذي لهـا، فلا يمكن أن تصـل إليه بدونها.

قلت: وما أسلمها؟

قال: حقوقهـا .. تعامـل معهـا كمـا تتعامـل مـع الأجـانب، ألست تعطيهم حقوقهم؟

قلت: بلى، ولو أني قصرت لكنت ظالما.

قال: فتقصيرك في حق نفسك ظلم لها.

قلت: قد زهدني في نفسي ما رأيت من رغبة قومي في نفوسهم، وحرصهم عليها، وتضييعهم حقوق الناس بسببها.

قـال: ولكنهم ضـيعوا حقـوق نفوسـهم مـع أول تضـييع لحقوق غيرهم.

قلت: كيف؟

قال: ألم يعتبر الله تعالى الغـافلين المخـادعين المضـلين الظالمين الخـائنين الهـالكين الخاسـرين لم يجـاوزا أنفسـهم بذلك؟

قلت: بلى، ففي القرآن الكريم إخبـار بـذلك، فهـو يقـول

في المخادعين: يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (البقرة:9).. ويقول في الظالمين: وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (البقرة:57).. ويقول في المضلين: وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (آل عمران: 69).. ويقول في الخائنين: وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً (النساء: 107) .. ويقول في الهالكين: وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (الأنعام:26)

قال: ولهذا، فإن أول حق يطلب من المؤمن أداؤه بعد حق الله حق النفس، ألم تسمع قوله ﷺ:(إن لأهلك عليك حقا، وإن لضيفك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، فصم وأفطر وصل ونم)(1)

قلت: فكيف أؤدي حق نفسي؟

قال: لكل باب من الأبواب حق من حقوق النفس.

قلت: فحقها في هذا الباب.

قال: أربعة: الطاقة، والراحة، والصحة، وحقها الاجتماعي.

قلت: ستجدنا في عصرنا ــ في عصر حقوق الإنسان ـ من أعظم الموفين بهذه الحقوق.

قال: بل من أعظم المقصرين فيها.

حق الطاقة:

قلت: فما حق الطاقة؟

قال: أن لا تجاوز بنفسك وسعها، ألم تسمع قوله ﷺ: (إياكم والوصال)، قيل: إنك تواصل؟ قال:(إنكم لستم في ذلك مثلي، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني، فاكلفوا من

1) أبو داود.

العمل ما تطيقون)(1)

قلت: بلى، وقد قـال ﷺ:(عليكم من العمـل مـا تطيقـون فإن الله تعـالى لا يمـل حـتى تملـوا)(2) .. ولكن هـذا خـاص بالتعبدات.

قال: ومن قال هذا؟ أليس العمـل عبـادة؟ أولم يقـل ﷺ: (أيها الناس اتقـوا اللـه وأجملـوا في الطلب، فـإن نفسـا لن تمـوت حـتى تسـتوفي رزقهـا، وإن أبطـأ عنهـا، فـاتقوا اللـه وأجملـوا في الطلب، خـذوا مـا حـل ودعـوا مـا حـرم)(3) .. وقال:(للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلف إلا ما يطيـق فـإن كلفتموهم فأعينوهم ولا تعذبوا عباد اللـه خلقـا أمثـالكم)(4)، فقد ربط ﷺ بين تكليفهم ما يطيقون والعذاب.

قلت: ولكن ألسنا في حاجة إلى بذل جهود مضاعفة لكي نحقق النهضة التي نحلم بها، والتي تجعل غيرنا تبعا لنا.

قال: اكتفوا بجهودكم وطاقتكم، ألم تسـمع قولـه ﷺ:(إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضـا قطـع ولا ظهرا أبقى)

قلت: ولكن هذا في الدين.

قال: ألم أقل لك: إن أحكام الـدين لا تختلـف عن أحكـام الدنيا، فرب الدنيا هو رب الدين .. قل لي: لو أن سـيارتك لا تتحمـل إلا ثقلا معينـا، ثم حملت عليهـا أو حملتهـا ثقلا يفـوق طاقتها.

قلت: ستهلك إن عاجلا أو آجلا.

قال: وحينذاك لن تستفيد منها شيئا.

---

1) البخاري ومسلم.

2) ابن حبان.

3) ابن ماجة.

4) ابن حبان.

قلت: لقــد ذكرتــني بقولــه ﷺ:(اكلفــوا من العمــل مــا تطيقون، فإن الله لا يمل حـتى تملـوا، وإن أحب العمـل إلى الله أدومه، وإن قل)

قال: فقد ربط ﷺ بين عدم مجـاوزة الطاقـة في العمـل، وبين الملل، فالملـل سـبيل كـل من جـاوز نفسـه حـدها من الطاقة.

قلت: لقــد ذكرتــني بكثــير من الجهــود الــتي تفرزهــا الحماسة، ثم يميتها الاستعجال.

قال: ويميتها قبل ذلـك عـدم فهم أسـرار نفس الإنسـان، فخالق النفس هو الذي قال لنا: لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا (البقرة: 233)، وقال: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (البقرة: 286)

قلت: وكأنـه يضـع لنـا بـذلك مـا يضـعه صـانعو الأجهـزة الحديثـة من مقـاييس لمـدى تحملهـا، وأنـواع الطاقـة الـتي تحتاجها.

قال: نعم، ذلك تشبيه صحيح، مع فارق بسيط هو أن الله تعـالى زود الإنســان بطاقــة تعجــز جميــع أجهــزة الــدنيا أن تضارعها.

قلت: كيف، لكأني بك ترتد على ما قلت.

قـال: لا أرتـد على مـا قلت، ولكـني أقـول: إن في وسـع الإنسان إذا ما توفرت الإرادة والعزيمة والتخطيـط أن ينقـل الجبال من مواضعها ..

قلت: إذن نحن لا نستخدم طاقتنا.

قال: لا .. أنتم تستخدمونها، ولكنكم تبعثرون جهودكم.

قلت: كيف؟

قال: لو طلب منكم حفر خنـدق كمـا طلب النـبي ﷺ من أصحابه، فحفروه في أقل مدة، وحموا به مدينة رسول اللــه

ﷺ ماذا تتصور قومك يفعلون؟

قلت: سيبدأون أولا بتشكيل لجان تقسم المهام.

قال: ثم ماذا؟

قلت: سيختلفون فيمن يرأس اللجان.

قال: ثم ماذا؟

قلت: سيضطرون إلى إجراء انتخابات.

قال: ثم ماذا؟

قلت: سيضطر أصحاب تلك اللجان إلى الاتصال بالعمـال لإقناع كل طرف العمال بانتخابـه مقابـل التخفيـف عنهم من أعباء الحفر، أو استيراد وسائل جديـدة للحفـر، أو استحضـار عمالة أجنبية لتقوم بالحفر.

قال: ثم ماذا؟

قلت: ستجرى الانتخابـات .. وسـيطعن فيهـا .. وسـتظهر المعارضة .. وقد تسفك الدماء .. وقد تحصل اعتقالات.

قال: والخندق الذي يحمي مدينة رسول اللـه ﷺ من كيـد الأحزاب وبني قريضة؟

قلت: سـيطلبون من الأحـزاب ومن بـني قريضـة حفـره مقابل تسليمهم المدينة بدون حرب.

قال: وما فائدة الخندق إذن؟

قلت: سيؤمنون لأنفسهم بذلك مقابر محترمة قريبـة من مدينة رسول الله ﷺ.

قـال: أرأيت .. أنتم تبـذلون جهـودا كثـيرة وتبعثرونهـا، فتتعبون وتنصبون ثم لا تنالون شيئا.

قلت: يا معلم لكأنك تقرأ علينا قوله تعالى: ﴿ وُجُـوهٌ يَوْمَئِذٍ

خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (الغاشية:2 ـ 3)، أي أن هـذه الوجـوه قد عملت عملاً كثيراً ونصبت فيه، وصليت يـوم القيامـة نـاراً حامية.

قال: بـل أنتم كمـا قـال تعـالى: وَالَّذِينَ كَفَـرُوا أَعْمَـالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَـةٍ يَحْسَـبُهُ الظَّمْـآنُ مَـاءً حَتَّى إِذَا جَـاءَهُ لَمْ يَجِـدْهُ شَـيْئاً وَوَجَـدَ اللَّهَ عِنْـدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَـابَهُ وَاللَّهُ سَـرِيعُ الْحِسَـابِ (النور:39)

قلت: فبم توجهنا؟

قال: استجمعوا أنفاسكم أولا لتعرفـوا مـا تفعلـوا .. فـإذا استجمعتموها فانظروا إلى ما عندكم من الطاقـات الفرديـة والجماعية، ثم خططوا لأنفسكم بحسب طاقـاتكم، ألم يقـل الله تعالى: وَأَعِـدُّوا لَهُمْ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ مِنْ قُـوَّةٍ (الأنفـال: 60)؟

حق الراحة

قلت: فما حق الراحة؟

قال: هو حق النفس في استرداد أنفاسها، ألم يجعل الله النوم سباتا؟

قلت: بلى، فالقرآن الكريم تحدث عن هذا كثيرا من بـاب تعـداد نعم اللـه على عبـاده، فقـال تعـالى: وَجَعَلْنَـا نَـوْمَكُمْ سُبَاتاً (النبأ:9)، أي قطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد، والسعي في المعايش في عرض النهار.

قال: والراحة تستدعي توفير الجو الملائم لها.

قلت: ذلك صحيح، ولهذا خلق اللـه تعـالى الليـل، وجعلـه لباسا، كمـا قـال تعـالى: وَهُـوَ الَّذِي جَعَـلَ لَكُمُ اللَّيْـلَ لِبَاسـاً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً (الفرقان:47)

قال: بل إن الله تعالى في تعداده نعمه على خلقه يجعـل الليل من النعم العظمى، وهو دليل على مـا للراحـة من أثـر

كبير في حفظ قوى الإنسان، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ ﴾ (القصص:71)

قلت: ولكن الأعمال في عصرنا تستدعي في أحيان كثيرة مواصلة الليل بالنهار.

قال: إن دعت الضرورة إلى ذلك، فلتنظموا ذلك تنظيما تراعى فيه الراحة وتحفظ فيه الصحة، فلا ينبغي أن تداووا داء بأدواء.

قلت: ولكن الضرورات تستدعي ذلك.

قال: والضرورات تستدعي أن تؤدى الأعمال متقنة، ولا يمكن أن يؤدي المرهق عمله بإتقان، ألم تعلم أن الله تعالى من رحمته بأهكل بدر أن رزقهم النعاس والنوم في وقت تنخلع فيه القلوب، واعتبر الله تعالى ذلك من أسباب ربط قلوبهم وتثبيتها وتقويتها، قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (لأنفال:11)

قلت: بلى، ولأجل هذا نهى ﷺ أن يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان.

قال: ويلحق بهذا ما تعيشونه من ضجر من كلفوا بخدماتكم نتيجة الإرهاق الذي يعانونه.

قلت: فما الحل، والضرورات كثيرة؟

قال: أنتم الذين تفكرون في الحلول .. أم أنكم تتقنون فقط التفكير في تكثير الضرورات.

قلت: لقد أرشدنا ﷺ إلى القيلولة كحل من حلول الراحة، فقال:(قيلوا، فإن الشياطين لا تقيل)(1)، وقد أكد

---

1) الطبراني في الأوسط و أبو نعيم في الطب.

العلم الحديث دور القيلولة في زيادة إنتـاج الفـرد، وتحسـين قدرته على متابعة نشاطه اليومي.

قال: فوفروا الفرصة لعمـالكم بـأن يطبقـوا هـذه السـنة العظيمة.

قلت: كيف ذلك .. إن العامل بالكاد يجـد موضـعا لقدمـه، فكيف يجده لنومه؟

قال: ابحثوا .. فستجدون من الحلول ما يجعل في عملـه من الراحة ما يفوق راحة كسله.

قلت: لو اتبعنا هذا، فسنجد من يدعو العمال إلى التقاعـد المبكر.. وقد حصل ذلك.

قال: لهم الحق في ذلك.. وذلـك مـا يجب أن يفعلـه كـل عامل.

قلت: بعد أي مدة؟

قال: عند بدايته العمل .. وفي اليوم الأول منه.

قلت: أنت تدعوا إلى تفريغ المصانع من العمال.

قال: أنا أدعو إلى تفريغ العمل من التعب والإجهـاد الـذي يستهلك قواهم، ويضر صحتهم.

قلت: فـإذا تقاعـدوا من ينـوبهم في المعامـل والمصـانع والمؤسسات.

قال: هم ينوبون أنفسهم.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألم نتحدث عن القيلولة؟

قلت: بلى .. وما علاقتها بهذا؟

قال: هي نوع من التقاعد.

قلت: كيف ذلك؟

قال: إن راحة العامل بعد عمله يجدد نشاطه ويملؤه بالحيوية التي يفقدها بتقاعده.

قلت: أتنصح بالقيلولة وحدها؟

قال: وأنصح بالاحتساب .. فمن احتسب عمله لله رزقه الله من القوة ما يزعزع الجبال.

قلت: هي أجورنا .. وليس لنا منها بد.

قال: الاحتساب لا يتنافى مع طلب الأجر.

قلت: فكيف يكون احتسابا؟

قال: إذا كان العمل لوجه الله لا يضره شيء.

قلت: فدلني على أمر آخر أنصح به قومي.

قال: سأدلك على وصفة نبوية تملأكم بالقوة.

قلت: فما هي؟

قال: قوله ﷺ لبضعته الطاهرة فاطمة :(ألا أدلك على ما هو خير لك من خادم! تسبحين الله ثلاثا وثلاثين، وتحمدين ثلاثا وثلاثين، وتكبرين أربعا وثلاثين حين تأخذين مضجعك)(1)

قال: فكيف عرفت أن هذه الوصفة لما وصفت؟

قال: لقد أخبر ﷺ أن هذه الوصفة خير لها من الخادم، وهو دليل على أنها تعطيها من القوة ما يغنيها عن الخادم.

---

1) رواه مسلم.

قلت: فما حق الصحة؟

قال: هو حق النفس في الاحتفاظ بقواها التي حباها اللــه إياهــا، ألم يــأمر الشــرع بحفــظ الصــحة، ونهى عمــا يجلب العلل؟

قلت: بلى، وقد عرفنا تفاصيل ذلك في (ابتسامة الأنين)

قــال: ألم ينــه اللــه تعــالى المــريض عن الصــيام مــرتين متتاليتين في الآيات القليلة الــتي جــاء فيهــا الأمــر بــركن من أركان الإسلام؟

قلت: أجل، فمع أن الآيات المختصة بالصوم قليلــة إلا أن الله تعالى ذكــر رفــع الحــرج عن المــريض مــرتين في آيــتين متتاليتين، فقال: أَيَّاماً مَعْــدُودَاتٍ فَمَنْ كَــانَ مِنْكُمْ مَرِيضــاً أَوْ عَلَى سَــفَرٍ فَعِــدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَــرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَــهُ فِدْيَــةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُــومُوا خَيْــرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُــونَ شَــهْرُ رَمَضَــانَ الَّذِي أُنْــزِلَ فِيــهِ الْقُــرْآنُ هُــدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَــاتٍ مِنَ الْهُــدَى وَالْفُرْقَــانِ فَمَنْ شَــهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَــفَرٍ فَعِــدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْــرَ وَلِتُكْمِلُــوا الْعِــدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (البقــرة:184 ـ 185)

قــال: ومثــل ذلــك الحج .. ألم يــذكر اللــه فيــه أحكــام المريض، ورفع الحرج عنه؟

قلت: بلى، فاللــه تعــالى لم يــذكر أركــان الحج بأســمائها وتفاصيلها، ولكنه مع ذلك ذكر الحلول الــتي يلجــأ إليهــا المــريض للتمكن من أدائه، فقال تعالى: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَــإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِــالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَــدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِــدْ فَصِــيَامُ ثَلاثَــةِ أَيَّامٍ

فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (البقرة:196)

قال: ومثل ذلك غير ذلك من المسائل.

قلت: نعم، النصوص واضحة في رفع الحرج عن المريض، وقد قال تعالى: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً (الفتح:17) .. ولكن، يا معلم ما علاقة هذا بما نحن فيه، فنحن نتحدث عن أعمال الدنيا؟

قال: أعمال الدنيا هي أعمال الآخرة، وما فائدة عمل نجلب به قوتا، ونقتل به عضوا، وإذا كان الله تعالى مع خلقه لنا لعبادته رخص لنا في ترك صور من العبادة لأجل الحفاظ على صحتنا، أفلا يصح لنا نحن أن نستغني عن بعض الأعمال إذا ما رأينا خطرها على صحتنا؟

قلت: لكأني بك تريد أن تقعد الناس عن أعمالهم.

قال: لماذا .. الأعمال كثيرة ومباركة، فمن قال بأن الدعوة للحفاظ على صحة العمال أمر لهم بالقعود؟

قلت: إن الدراسات الحديثة كلها تقول هذا، فلا نستطيع أن نجمع بين الرقي الحضاري وبين الحفاظ على صحتنا .. الرقي الحضاري يا معلم يحتاج إلى تضحيات لا تقل عن تضحيات الشهداء.

قال: الحق أقول لك: إنكم تبتعدون كثيرا عن الإنسان بقدر اقترابكم من هذا الرقي الجشع الذي تحلمون به .. إنكم تحطمون أنفسكم من أجل لعب تافهة تحلمون بها، وعندما تصلون إليها تجدونها سرابا لا يختلف عن أي سراب.

قلت: فبم تنصحنا؟

قال: عندما يفكر أحدكم في أي مشروع لا ينس أن يضع

في خطتـه حـق العمـال في الصـحة والعافيـة، فلا ينبغي أن يستل صحتهم، ليملأ جيوبهم، فهذه مقايضة خاطئة.

قلت: وما المقايضة الصحيحة؟

قال: أن يشتري جهدهم بماله، لا صحتهم بماله.

قلت: لكأني بك تقول: إن الضمان عليه في حال حصـول أي ضرر.. فنحن نفعل ذلك.

قال: أنتم تسخرون على عقول العمال بذلك، فمـا فائـدة الضــمان الــذي تضــمنونه أو العلاج الــذي تقدمونــه، وأنتم تخرجـون أجسـادا متهالكـة ونفوسـا محطمـة لا يجـدي فيهـا ضمان، ولا يشفيها علاج.

الحق الاجتماعي

قلت: فما الحق الاجتماعي؟

قال: هو حـق النفس في الحفـاظ على علاقتهـا الأسـرية التي جعلها الله من الحقوق الطبيعية للإنسان المتناسبة مــع فطرته.

قلت: لم أفهم يا معلم.

قال: إن الله تعالى جعل للإنسان سكنا يسكن إليه، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجـاً لِتَسْـكُنُوا إِلَيْهَـا وَجَعَـلَ بَيْنَكُمْ مَـوَدَّةً وَرَحْمَـةً إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيـاتٍ لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم:21)

قلت: ما معنى هذا؟

قال: إن الإنسان يرجع إلى أهله دائمـا ليمسـح مـا تـراكم على نفسه من هموم وآلام، وهـو معـنى السـكن الـذي عـبر عنه القرآن الكريم.

قلت: ففائـدة الأهـل إذن هي السـكن والراحـة النفسـية، وهي بذلك تخفف عن العامل ما يجده من ثقل العمـل، وقـد

يساعد ذلك على وفرة الإنتاج.

قال: ليس ذلك فحسب، بل هناك ما هو أهم من ذلك، وهو رعاية العامل لشؤون أهله المادية والمعنوية، كما قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (طـه:132)، وقال تعالى مثنيا على إسماعيل ﷺ: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾ (مريم:55).. فكلا الأمرين: السكن والرعاية من حقوق النفس، والتقصير فيهما له آثاره النفسية والاجتماعية الخطيرة.

قلت: ولكنا نفعل ذلك، فلا نحرم الأب من أبنائه، ولا الأم عنهم.

قال: بل تفعلون ذلك، وتبالغون في ذلك، فترسلون العمال إلى أماكن بعيدة عن أهلهم يذوقون فيها آلام الغربة، ويذوق أهلهم آلام الحرمان.

قلت: فما نفعل؟

قال: ألم أقل لك: ينبغي التفكير في العمال قبل التفكير في العمل، فلا عمل بلا عمال؟

قلت: بلى، ولكن .. أنت تطلب أشياء قد تضر برأس المال نفسه، فكيف بفوائده؟

قال: ألا تفكرون إلا في رأس المال والفوائد؟

قلت: هكذا يفكر أرباب الاقتصاد.

قال: وأين علماء النفس؟

قلت: في عياداتهم ينتظرون وفود المرضى.

قال: لماذا لا يطالبون بحق العمال في السكن النفسي؟

قلت: لو طالبوا بذلك لأغلقوا عياداتهم .. ألم أقل لك يا معلم إن كل شيء أصبح تجارة في عصرنا؟

قـال: فلنضـرب صـفحا عن هـذا .. أنتم لم تكتفـوا بإبعـاد الأب عن أولاده حتى ألحقتم به الأم.

قلت: نعم، وعجلة الاقتصاد المتطور هي الـتي اسـتدعت ذلك، ثم إن الشريعة لا تنفي ذلـك، فقـد قـال النـبي ﷺ:(إن النساء شقائق الرجال)(1)

قال: نعم هـذا حـديث صـحيح الثبـوت والمعـنى، فـالمرأة شـقيقة الرجـل في الأصـل والخلقـة، وشـقيقته في أصـل التكليف، وشقيقته في جزاء الآخـرة .. ولكن مـا علاقـة هـذا الحديث بما نحن فيه؟

قلت: بما أن الرجل يحق له العمل، ويجب عليـه العمـل، فيحق للمرأة ويجب عليها.

قال: ما هذا القياس البديع؟ لكـأني بـك تقيس الأذن على العين.

قلت: كيف؟

قال: الأذن والعين كلاهما شـقيقان، فكلاهمـا من حـواس الإنسان التي يطلع بها على العـالم الخـارجي، وكلاهمـا يـؤثر في علاقة الإنسان بمحيطه.

قلت: أجل، ولكن العين تبصر، والأذن تسمع.

قال: فكذلك المرأة والرجل، لكل منهما طاقته ووظيفتـه الخاصـة بـه، فخـروج أحـدهما عن وظيفتـه كطلب الأذن أن تبصر، وطلب العين أن تسمع.

قلت: أنا أترك هذا القياس، فمـا رأيت في القيـاس خـيرا قط، ولكني ألجأ إلى النص الذي لا كلام معه.

قال: ومن يتجرأ على معارضة الله أو معارضة رسوله؟!

قلت: فقد قال تعالى:﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً

---

1) رواه الترمذي وأبو داود والدارمي وابن ماجه.

مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْـرَأَتَيْنِ تَـذُودَانِ قَـالَ مَـا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَـاءُ وَأَبُونَـا شَـيْخٌ كَبِـيرٌ (القصص:23)، فقد أخبر تعالى عن ممارسة هاتين المرأتين لمهنة الرعي.

قال: ألم تقرأ ما تعللتا به؟

قلت: بلى، فقد ذكرا أن أباهما شيخ كبير.

قـال: وهـو اعتـذار عمـا دعاهمـا إلي الخـروج وسـقي أغنامهما، دون وليهما الذي يتولى ذلـك عـادة إذ كـان عـاجزا عن ذلك .. ثم ما تـرى في ذكـر القـرآن الكـريم، هـل ذكـره كنموذ ج يحتذى، أو ذكره كموقف من مواقف الاضطرار؟

قلت: لم أفهم.

قال: هل أثنى الله تعالى على هذا المجتمع الـذي وجـدت فيه المرأتان؟

قلت: لا أظن ذلـك، فهـذا مجتمـع يظهـر عليـه الوقاحـة وسوء الأدب، بـدليل قولـه تعـالى على لسـانهما: لا نَسْـقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (القصص:23)

قـال: وهـو مجتمـع لا ينحـني إلا للقـوي، ولهـذا لمـا جـاء موسى عليه السلام سقى لهما بمجرد حضوره مع كونه غريبا.

قلت: أجل، ذلك صحيح.

قـال: فلمـاذا تجعلـون هـذا المجتمـع الغـارق في هـذه الوضـاعة نموذجـا تحتـذون بـه، ألم تطـالبوا بالاقتـداء بالمجتمعات الكاملة الصحيحة؟

قلت: بلى، ولكن قد ورد في النصوص ما يدل على عمل المرأة في هذه المجتمعات، ألم يقل الله تعالى: وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِـعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَـاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَـلَّمْتُمْ مَـا آتَيْتُمْ بِـالْمَعْرُوفِ (البقـرة: 233)، ففي الآيـة دليـل على جـواز استئجار المـرأة للرضـاعة، وأنـه يجب على ولى الطفـل أن

يقدم لها أجرها.

قال: لا إشكال في هذا النص، ولا دليل فيه على ما ذكرت.

قلت: كيف؟

قال: هل رأيت رجلا يرضع صبيا؟

ضحكت، وقلت: في أي كوكب هذا؟ أو في أي فيلم خيالي شاهدته؟ لكأني بك تطلب من العين أن تسمع، ومن الأذن أن ترى.

قال: فهذا إذن من وظائف المرأة التي لا يطيقها الرجل، والتي لا يصلح لها إلا المرأة.

قلت: أجل، هذا صحيح، ولكن قد ورد في النصوص ما يدل على عمل المرأة، بل عمل المرأة لتنفق على زوجها، فكيف تنكر هذا؟

قال: ومن قال لك: إني أنكر هذا!؟ .. أنا أتكلم عن حق العمال الاجتماعي، فهل ترك هؤلاء أبناءهم للخوادم، أم لدور الحضانة؟

قلت: لا .. لم يفعلوا ذلك.

قال: ولو أنكم فعلتم ذلك ما أنكر عليكم أحد، ولكنكم تسلبون المرأة أولادها، وهي أغلى ما تملك، وهي أغلى ما يملكون، لتزجوا بها فيما تتصورونه من حضارة.

قلت: لكأني بك تريد حبس المرأة في بيتها.

قال: ومن قال بأن المرأة في بيتها محبوسة، أليست تؤدي أعظم وظيفة، وظيفة بناء الإنسان؟

قلت: صدقت، فإن العناء الذي تعانيه في هذه الوظيفة أعظم من العناء الذي تعانيه خارجها.

قال: لقد سـمعت بعضـكم يستشـهد بحكمـة تقـول:(الأم التي تهز سرير الطفل بيد، تهز العالم باليد الأخرى)

ضـحكت، وقلت: أي حكمـة هـذه يـا معلم، إن هـذا كلام نابليون بونابرت.

قال: وما يهمني من هو، المهم أن مـا قالـه حكمـة، وقـد قلتم:(خذوا الحكمة من أفواه المجانين)

قلت: نعم، كل هذا صحيح، ولكن مع ذلك، فإني لا أتصـور المراكز الكثيرة، وقد خلت من النسـاء .. الحضـارة يـا معلم تستدعي هذا النوع من التضحية.

قـال: أي حضـارة هـذه الـتي لا تكتفي بتـدمير صـحتكم والقضـاء على راحتكم، بـل تتعـدى ذلـك إلى القضـاء على طبيعتكم الاجتماعية ..

مفتاح المجتمع

بعـد أن قـال ذلـك فتح لنـا البـاب .. فرأينـا مـا لا يمكن وصفه.. لكنا ما إن سرنا قليلا حتى رأيت بابا عجيبا قـد صـور عليه بالأبعاد جميعـا خلـق كثـيرون، كلهم يظهـر التشـبث بي طالبا مني الرحمة، حتى أني كدت أمد يدي إليهم لنجدتهم.

سألت المعلم: ما هذا البـاب العجيب؟ ومن هـؤلاء الـذين يتشبثون بي طالبين النجدة؟

قال: هذا المجتمع.

قلت: وما يطلب مني.

قال: حقوقه.

قلت: أنا إنسان بسيط، لا أكاد أملك من الدنيا إلا ما يسـد رمقي ورمق أولادي، فكيف أغيثهم؟

قـال: هـؤلاء ليسـوا شـحاذين، وإنمـا هم يطلبـون منكم الرحمة.

قلت: وهل الرحمة شيء غير الإحسان؟

قال: هناك رحمة الإحسان، وهناك رحمة عدم الإساءة.

قلت: فهل نحن في الواقع نسيئ لهؤلاء؟

قال: أجل تسيئون إليهم كثيرا.

قلت: كيف؟

قال: تسيئون إليهم بأربعة أنواع من الإساءات.

الطبقية:

قلت: ما هي الإساءة الأولى؟

قال: تقسمونهم إلى طبقات مختلفـة منهـا العليـا، ومنهـا الدنيا.

قلت: هذا صحيح، ولا أحسب مجتمعا من المجتمعـات خلا من هذه النظرة.

قال: ولكن المجتمع المـؤمن الـذي يعلم وحـدة خالقـه لا ينظر هذه النظرة، ولا يتعامل مع الخلق بهـذا الأسـلوب، بـل ينظـر إلى أفـراده كنظـره إلى إخوانـه لا يمـيز فقـيرهم عن غنيهم، ولا قويهم عن ضعيفهم.

قلت: فنحن نسيء في واقعنا للطبقات الدنيا؟

قال: بل تسيئون لكل المجتمع بطبقاته الدنيا والعليا.

قلت: كيف؟ نحن لا نسيء للطبقات العليا ..

قال: بل إن إساءتكم لهم أعظم من إساءتكم للضعفاء.

قلت: كيف؟

قال: أنتم تغيرون أخلاقهم، وتبـدلون طبـاعهم، قـد يكـون أحدهم محسنا، فتجرونه إلى الإساءة، وقد يكون مسـيئا، فلا تصرفوه عن إساءته، وإنما تثبتوه عليها، وتطلبوا منه أن يزيد منها.

قلت: أشعر كأني فهمت .. ولكني لم أفهم.

قال: أنت تفهم .. ولكن لا تستطيع أن تعبر عن فهمـك .. لأنـك لا تسـتطيع أن تستحضـر أمثلـة لـذلك .. أو تخـاف أن تستحضر أمثلة لذلك.

قلت: أجـل، فـإن بعضـها قـد يكـون من السياسـة، وأنـا استعذت بالله من السياسة.

قـال: نعم، في السياسـة وغيرهـا .. أنتم تـدللون الكبـار، وتقمعون الصغار، ويكفي هذا لطبقيتكم.

قلت: سأضرب مثالا بسيطا لا علاقة له بالسياسة.

قال: الحج؟

قلت: أجـل .. نحن نرسـل أصـحاب البطـون الضـخمة بالمجـان ليـؤدوا المناسـك .. ونطلب من المهـزولين الـذين ظلوا طول عمرهم يجمعون المال درهما درهمـا أن يـدفعوا عن السمان حقوق حجهم.

قال: أهؤلاء يحجون إلى بيت اللـه، أم يحجـون إلى بيـوت النيران؟

قلت: بل يحجون إلى بيوت الله.

قال: ولم ترسلونهم؟

قلت: لـيرجعوا من ذنـوبهم كيـوم ولـدتهم أمهـاتهم، فإنـا نخشى عليهم أن يصيبهم من عذاب الآخرة مـا أخطـأهم من عذاب الدنيا.

قال: فبشرهم بأنهم لن يرجعوا من ذنـوبهم كمـا ولـدتهم أمهاتهم، بل سـيرجعون بـأوزار تنـوء بهـا ظهـورهم، وحيـات تمتلئ بها قبورهم.

التطفيف:

قلت: فما الإساءة الثانية؟

قال: أنتم تطففون، مع أنكم تقرأون قولـه تعـالى:﴿ وَيْـلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ (المطففين:1)

قلت: كيف هذا، وقد اخترع قومي موازين دقيقـة، توضـع الشعرة عليها فيهتز لسان الميزان مخبرا عن وزنهـا وثمنهـا، ولو شئت لأخبرك عن كيفة الدفع.

قال: ولكنه لا يتعامل مع كل الناس معاملة واحدة.

قلت: لا، بل هو جماد لا يفرق بين الناس.

قال: نعم، هو لا يفرق، ولكنكم تفرقون.

قلت: كيف؟

قال: إذا وضعت فيه رطلا كم من الثمن تدفع؟

قلت: سيطلب منك الميزان نفسه أن تسلمه ثمن رطل.

قال: ولو وضعت رطلين.

قلت: سيطلب ثمن رطلين.

قال: فلو طلب ثمن رطل.

قلت: يكون قد طفف، وحينذاك سنرسله إلى قطع الغيار القديمة ليطحن فيها، ويعاد تركيبه من جديد.

قال: فليتكم تعاقبون أنفسكم بهذا الأسلوب.

قلت: كيف، ولماذا؟

قال: لأنكم تطففون.

قلت: كيف؟

قـال:أليس المطففين هم: الَّذِينَ إِذَا اكْتَـالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُـوهُمْ يُخْسِـرُونَ (المطففين:2 ـ 3)

قلت: بلى، فهذا هو تعريف القرآن الكريم للمطففين.

قال: وهو ما يطبقه مجتمكم.

قلت: كيف نطبقه؟

قال: من بذل منكم جهد رطل تعطونه الملايين وتعتــذون إليـه عن قلتهـا، ومن حمـل منكم القنـاطير المقنطـرة على ظهره، تسلمون إليـه دراهم معـدودات، ثم تسـلبونه نصـفها تأمينا وضرائب، ثم تضيفون إلى حمله قنطارا خدمـة لوطنـه وتضحية في سبيله .. وأنتم لا تدرون أن ذلك القنطار يقصـم ظهره كما قصمت الشعرة ظهر البعير.

قلت: كثير من كلامك صـحيح، فـالموظفون الكبـار عنـدنا

ينال أحدهم من الأجـور مـا ينالـه المئـات من المستضـعفين الذي ناء ظهرهم بالأحمال الثقال، ومع ذلك يكـون تقاعـدهم قبل تقاعد الصغار.

قال: حتى الموت تطففون فيه.

قلت: كيف ..

قال: إذا مات فيكم الضـعيف واريتمـوه الـتراب لا يشـهد جنازته إلا المستضعفون من أمثاله، فإذا مات السمين أقمتم المآتم، ونكستم الأعلام، وأغلقتم المدارس حزنا عليه.

قلت: هذا صحيح .. وهذه إساءة لا ننكرها؟

التسميم:

قلت: فما الإساءة الثالثة؟

قال: التسميم.

قلت: أنحن نسمم المجتمع؟

قال: نعم، بأحدث أنواع السموم وأخطر أنواع السموم.

قلت: كيـــف، ونحن الـــذين اخترعنـــا لأدويـــة، وبنينـــا المستشفيات.

قال: لولا سمومكم لأغلقتم أكثر مستشفياتكم.

قلت: ونرمي أدويتنا في البحر بعدها.

قال: ألم تكتفوا بقتل الحياة فيكم حتى تقتلوا أمم البحار.

قلت: فما السموم التي نقتل بها مجتمعنا؟

قال: أكثر مخترعاتكم الـتي تملـؤون بهـا البطـون والآذان والعيون سموم.

قلت: كيـف .. اشـرح لي .. فـإني لا أكـاد أسـتوعب مـا تقول.

قال: سأكتفي بسم واحد ابتدعتموه إبـداعا .. حـاولت أن أجد سرا له، فلم أستطع.

قلت: ما هو؟

قال: هذه اللفافات المحروقة التي تضعونها في أفواهكم لتستنشقوا دخانها.

ضحكت، وقلت: ذاك الدخان، إنه من أنواع السموم الـتي يحرص قومي على استعمالها مع علمهم بسميتها.

قال: وكيف يسمح بها؟

قلت: لأن الشركات الكبرى التي تنتجه لهـا من السـطوة بحيث لا تستطيع القوانين قهرها ولا السيطرة عليها، ولكنهم مع ذلك استطاعوا أن يفرضوا عليهم أن يسجلوا في غلافهـا عبارة (التدخين مضر بالصحة)

قال: فهل أثرت هذه العبارة؟

قلت: لا .. لم تؤثر، إنها تذر الرماد في العيون من غير أن يكون لها أي تأثير في الواقع.

قال: بل هي تحد للمجتمع، تقول لـه:(مـع أن هـذا السـم مضر بالصحة إلا أننا نفرض عليك استعماله أبيت أو كـرهت، بل نوقعك في الإدمان عليه، لتصير عبدا لنا لا عبدا لله)

قلت: وما علاقة هذا بالعبودية لله؟

قال: ألم يقل ﷺ:(تعس عبد الـدينار وعبـد الـدرهم وعبـد الخميصة إن أعطي رضي، وإن لم يعـط تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش)(1)

قلت: أتعلم(2) يا معلم أن منظمة الصحة العالمية وجميع

---

(1) رواه البخاري.

(2) انظر: التدخين: مخاطر التدخين وشركات التبغ، الدكتور محمد علي البار.

الهيئات الطبية في العالم قررت أن التدخين هو أكـبر خطـر على الصحة يواجـه البشـرية اليـوم.. فالتـدخين يقتـل أربعـة ملايين شخص كل العـام، والعـدد في ازديـاد بسـبب الزيـادة السكانية وخاصة في العالم الثـالث. وتقـدر منظمـة الصـحة العالمية أن يصل العدد إلى 10 ملايين شخص يتوفون سنويا بحلول عام 2020 م.

قال: ولمـاذا يصـبون جـام غضـبهم على القنابـل النوويـة إذن، وعلى التسلح النووي في العالم.

قلت: بالمقارنة، فإن القنبلتين الذريتين اللتين ألقيتـا على هيروشيما وناجازاكي في نهاية الحرب العالميـة الثانيـة سـنة 1945 قتلت مباشرة 140 ألفا، ثم مات بعد ذلك عـدد آخـر بسـبب الأشـعة القاتلـة، ويقـدر العـدد الإجمـالي لضـحايا القنبلتين الذريتين بربع مليون شخص.

فكيف يمكن أن نقارن ضحايا التدخين، وهم أربعـة ملايين شخص يتوفون سنويا بضحايا القنابل الذرية؟

قال: وهـل تقـوم وكـالات الطاقـة بتفـتيش معامـل التبـغ لتشمعها بالشمع الأحمر؟

قلت: لا .. ولا علاقـة لهـا بهـذا، أتعلم أن هـذه الشـركات الضخمة، وأغلبهـا أمريكيـة تصـنع ثلاث سـجائر لكـل إنسـان على وجه الأرض يوميـا، أي 18 ألـف مليـون سـيجارة، وهي تكفي لإبـادة الجنس البشـري بأكملـه لـو أخـذ مـا فيهـا من الـنيكوتين بطريقـة الحقن، بحيث لا تبقي على إنسـان على وجه الأرض.

قال: فلماذا لا تطلبون من هذه الأمريكـا أن تكـف شـرها على الناس؟

قلت: اسكت يا معلم، وإلا صودرنا وصودر ما نقوله.

قال: لماذا؟

قلت: فلنغير الموضوع .. هل هناك سموم أخرى؟

قال: كثيرة .. هذا الطعام الذي تعلبونـه، وتلـك الحلويـات التي تتفنون في صنعها، وذلـك اللهـو الآثم الـذي تنشـرونه .. وتلك المسـابقات العابثـة الـتي تجرونهـا .. وتلـك .. وتلـك .. اسمح لي أن أقـول لـك: إنكم تعيشـون في مسـتنقعات من السموم.

قلت: التجارة تتطلب هذا.

قال: لا .. التجارة المباركة لا تنظر إلى الأرباح فقـط، بـل تنظر إلى المصلحة فتحققها، وتنظر إلى المفسـدة فتـدرأها، وتجعل جزاءها هو جلبها للمصلحة ودرؤها اللمفسدة.

الإفساد:

قلت: فما الإساءة الرابعة؟

قال: الإفساد.

قلت: فما الفرق بينها وبين الإساءة الثالثة؟

قال: التسميم يقتل الجسد، والإفساد يقتل الروح.

قلت: فنحن إذن متفننون في قتل الجسد والروح.

قال: بل محترفون لذلك.

قلت: فكيف نقتل الروح؟

قال: تقتلون القيم الرفيعـة الـتي أجمعت عليهـا الخلائـق بما تنشرون من أنواع الشذوذ، وأنواع الانحراف، ثم تسمون كـل ذلـك حضـارة ومثلا وحريـة .. أنتم تشـربون الخمـور وتسمونها بغير اسمها.

قلت: ولكن ذلك باختيار الأفراد، لا بالقهر.

قال: مثلما تفعلـون مـع التـدخين، أنتم تكتبـون عنـه بأنـه مضـر للصـحة، ثم تنشـرونه وتشـهرونه أكـثر ممـا تشـهرون الأدوية.

قلت: لقــد ذكرتــني يــا معلم بــأن عــدد الســاعات الــتي يقضيها الطلاب عنـدنا أمـام التلفزيـون تفـوق عـدد سـاعات الدراســة والبحث، فقــد ورد في بعض الإحصــائيات أن بعض الطلاب عندما يتخرج من المرحلة الثانوية يكـون قـد أمضـى أمام جهاز التلفزيون قرابة (15) ألف سـاعة، بينمـا لا يكـون أمضى في حجرات الدراسة أكثر من (10800) ساعة على أقصــى تقــدير، أي في حالــة كونــه مواظبــا على الدراســة محدود الغياب.

ومعدل حضور بعض الطلاب في الجامعــة (600) سـاعة سنويا، بينما متوسط جلوسه عند التلفزيون (1000) ســاعة سنويا.

هذا بالإضافة إلى أن الحالة النفسية للمتلقي، فإنه يكــون في حالة نفسـية جيـدة أمـا التلفزيـون راغبـا في المشـاهدة مســتعدا للتلقي، متلــذذا بمــا يــرى، بخلاف الطــالب في المدرسة.

قال: فهل تنشرون القيم الصالحة في هذا التلفزيون؟

قلت: لو قارنا عدد القنوات الخبيثـة مـع القنـوات العاديـة لوجدنا النسبة تكاد تؤول إلى الصفر.

قال: ولو قارنتم القنوات العادية مع الطيبة الــتي لا تفــرز إلا طيبا.

قلت: لا تكاد النسبة تصح.

قال: والناس إلى أين يميلون؟

قلت: بحسب الغرائز .

قال: فكيـف يسـلمون، وفي بيـوتهم مـا يغـذي شـياطين غرائـــزهم .. ثم تقـــول لي: نحن لا نعيش في مســـتنقعات الســـموم .. أنتم بـــأرواحكم وأجســـادكم تعيشـــون في مستنقعات السموم.

قلت: رويدك يا معلم، فـإن إلقـاء الحقيقـة المـرة يحتـاج إلى مسوغات لتقبلها.

قال: والمسوغات من السموم التي تفننتم فيهـا، فكـذبتم على أنفسـكم، وكـذبتم على أجسـادكم .. ألسـتم تضـعون نكهات خاصة على سجائر التبغ التي تتناولونها؟

قلت: وبحسبها تكون الجودة.

قـال: أرأيت مـاذا تفعـل المسـوغات .. واجهـوا أنفسـكم بالحقيقة .. واصرخوا فيها .. فما أفلح من لم يصرخ.

بعـد أن قـال ذلـك فتح لنـا البـاب .. فرأينـا مـا لا يمكن وصـفه.. لكنـا مـا إن سـرنا قليلا حـتى رأيت بابـا عجيبـا قـد صورت عليه صور شتى تختلط فيها الذرة بالمجرة، والخليـة الحية بالأكوام من الجمادات، وكلها ترفع رايات بيضا، وتنطق بلا حرف ولا صوت تطلب السلام.

سألت االمعلم عن هذه اللوحة الرمزية، فقال: هـذا بـاب حقوق الأكوان، وهي تطلب جميعا منكم الرحمة.

قلت: ما الرحمة التي تطلبها الأكوان؟

قال: هي الرحمة التي يطلبها الإنسان.

قلت: وما الرحمة التي يطلبها الإنسان؟

قال: الفطرة.

قلت: لقد خلق الله الإنسان على الفطرة.

قال: وكذلك خلق الأكوان على الفطرة.

قلت: أفهم خلـق الإنسـان على الفطـرة، ولا أفهم خلـق الأكوان على الفطرة.

قال: أليس المولود (يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)(1)

قلت: بلى، قـد فهمت هـذا في المولـود، فهـو في أصـله فطرته قلبه كابتسامته العذبة، وروحه لطيفة كلطف محياه.

قال: فكذلك الكون ولد بريئا طـاهرا يبتسـم برياحـه كمـا يبتسـم بنسـيمه، وهـو يخـاف على فطرتـه أن تنجس بقـاذوراتكم، ألم تخـف الملائكـة ــ عليهم الصلاة والسـلام ـ على الأرض من شركم معشر بني الإنسان؟

(1) رواه البخاري ومسلم.

قلت: بلى، لقـد قـالت: أَتَجْعَـلُ فِيهَـا مَنْ يُفْسِـدُ فِيهَـا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ (البقرة: 30)

قال: وهل حصل ما خافت منه الملائكة؟

قلت: بلى، فقد قـال أخبرتعـالى عن كثـير من المفسـدين في الأرض، ومن جملتهم ذلك الذي نزل فيه قوله تعالى: وَإِذَا تَوَلَّى سَـعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِـدَ فِيهَـا وَيُهْلِـكَ الْحَـرْثَ وَالنَّسْـلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (البقرة:205).. وقد ذكـر المفسـرون أنها نزلت في الأخنس.

قال: أهذه آية الأخنس؟

قلت: نعم .. هكذا قال المفسرون، وعلى هذا نصوا.

قال: وهل الأخنس واحد؟

قلت: نعم .. وهو الذي أبوه شريق، وينتمي إلى ثقيف.

قال: ما أخطر ما تفسـرون بـه القـرآن الكـريم .. إن ابن شريق لا يستحق نظرة واحدة من محمد ﷺ، فكيف يستحق أن ينزل قرآن ينشر ذكره إلى قيام الساعة .. إن هـذه الآيـة تخاطبكم، فلا تنشغلوا بالأخنس وبأبي جهل.

قلت: فما تقول لنا؟

قال: تقول لكم لا تغتروا بالمفسدين الـذي يزعمـون أنهم يصلحون، ألم يقل الله في الآية السـابقة لهـذه الآيـة: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الـدُّنْيَا وَيُشْـهِدُ اللَّهَ عَلَى مَـا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (البقرة:204)

قلت: بلى .. وهكذا كان الأخنس.

قال: وهكذا هو حال كل أخنس يفسد ويزعم أنه يصلح .. يضر ويـزعم أنـه مفسـد .. يسـلبك مـا في جيبـك، ثم يطلب منك أن تدفع له ثمن تعبه في مد يده إلى جيبه.

قلت: لقـد ذكرتـني بمـا روي في بعض الكتب:(إن عبـاداً

ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمـر من الصـبر، لبسـوا للناس مسوك الضأن من اللين، يجترون الـدنيا بالـدين، قـال اللّه تعالى: عليّ تجترئون وبي تغترون؟ وعزتي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران)

قال: لقد ذكر القرآن الكريم الكثير من المفسدين الـذين يزعمون أنهم مصلحون، فقال: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (البقرة:11)

قلت: وقد صدق التاريخ ما قال الحق تعالى، فليس هناك مفسد إلا وهو يزعم الإصلاح، فأكبر الجرائم الإنسانية تغطى، بل تمجد، بـل يعطى أصـحابها الشـهادات التقديريـه لكـونهم من المصلحين.

قـال: ذلـك في حسـابكم، أمـا في حسـاب الحـق، فـإن المفسد هالـك من أول خطـوة يبـدأ بهـا فسـاده، ألم تسـمع قوله تعالى: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَـا كَسَـبَتْ أَيْـدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (الـروم:41)

قلت: بلى.

قـال: فقـد أخـبر تعـالى أنــه سـيذيق المفسـدين ثمـار فسادهم.

قلت: ولكن ثمـار فسـادهم طـالت الأكـوان من الأحيـاء والجمادات.

قال: ليس في أكوان الله جمادات .. كلهم أحياء .. وكلهم يستغيثون بالله من فسـادكم .. وكلهم يرسـل آلاف اللعنـات على كل من غير ابتسامة الكون .. أو لعب ببراءته.

قلت: لعلــك تقصــد آثــار الصــناعة على جمــال الأرض وطهارتها وتناسقها.

قال: وهل هناك خطر أعظم من هـذا .. لم تـزكم الأرض منذ خلقها اللـه، فلمـا جئتم وجـاءت حضـارتكم كـان أول مـا

فعلته أن أحرقت رئة الأرض، فتنفست سلا .. ولعبت بأمواج البحـر البريئـة، فملأتهـا نفطـا .. ولم يسـلم جـو الفضـاء من فسادكم، فخرقتم ما رقعه الله، وقطعتم ما وصله.

قلت: صدقت، فقد قرأت في هذا من الأخبار مـا ينقضـي دونه العجب.

قال: فاذكره.

قلت: لقد قرأت أنه خلال نصف قرن مضى فقـط خسـر العـالم خُمس التربـة الصـالحة للزراعـة، وخُمس غابـات المطر، وانقرضت الآلاف من الأجناس النباتيـة والحيوانيـة.. وقرأت عن انتشار مـواد كيمائيـة خطـرة تسـتخدم في أكـثر دول العالم، وآثارها سيئة، وهي تصل إلى أكثر من 80 ألــف مـادة.. وقـرأت عن ارتفـاع حـرارة الأرض نتيجـة أبخـرة وغازات وعوادم السيارات وغيرهـا، والـتي أدت إلى تغـيرات مناخيـة زادت من خطـر الأعاصـير المـدمرة أو الجفـاف أو الفياضانات .

قال: فأنتم تخربون بيوتكم بأيديكم.

قلت: ما بالـك يـا معلم .. أنت تتكلم كـل حين عن تلـوث البيئة ..

قـال: هـل ترضـى أن تـرمى في الكعبـة النجاسـات، أو تدنس المساجد بالقاذورات؟

قلت: لقد قف شعري مما قلت .. واللـه لـو حصـل ذلـك لملأنا عليهم الدنيا لهيبا .. كـل شـيء نقبلـه مـا عـدا تـدنيس مقدساتنا.

قال: الحق أقول لك: من لم يشـعر بـالغيرة على أكـوان الله كما يشعر بالغيرة على كعبة الله، ومساجد اللـه، فهـو لا يعرف الله، ولا يقدر خلق الله.

قلت: كيف .. أنت تتكلم كلاما خطيرا قد نـرجم بسـببه .. أنت تجعل للجبال والحجارة والريـاح والأمطـار من القداسـة

ما للكعبة والمساجد.

قال: أنا لا أفعل ذلك، بل الله هو الذي يأمرنا بذلك.

قلت: بم يأمرنا؟

قال: باحترام مخلوقاته .. ألم تقرأ حديث القـرآن الكـريم عن مواقفها الخاشعة .. ألم تسمع قوله تعالى: إِنَّا عَرَضْـنَا الْأَمَانَـةَ عَلَى السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَـالِ فَـأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَـا وَأَشْـفَقْنَ مِنْهَـا وَحَمَلَهَـا الْأِنْسَـانُ إِنَّهُ كَـانَ ظَلُومـاً جَهُـولاً (الأحـزاب:72)، فلـولا مـا في الكـون من طاقـة الإدراك والاختيار ما عـرض عليـه هـذا العـرض الخطـير، ولولاهـا مـا أجاب هذه الإجابة الواعية.

والقرآن الكريم يخبر عن وعي الحجارة وعيا يجعلها تهبط من خشية الله، قال تعالى: وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْـهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّه (البقرة: 74)

والجبل يخشع لنزول القرآن، قال تعالى: لَـوْ أَنْزَلْنَـا هَـذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْـيَةِ اللَّهِ وَتِلْـكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (الحشر:21)، بل ينهد لسـماع شـرك المشـركين، قـال تعـالى: تَكَـادُ السَّـمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً (مريم:90 ـ91)

قلت: لقد ذكرتني بما ورد في الآثار من أن الجبـل يفخـر إن مر عليه ذاكر لله، فقـد ورد في الأثـر:(إن الجبـل ليقـول للجبل: هل مرَّ بك اليوم ذاكر لله؟ فإن قال: نعم، سُرَّ به) ثم قرأ عبد الله قوله تعالى: وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُـبْحَانَهُ بَـلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَـهُ قَـانِتُونَ (البقـرة:116) قال:(أفتراهن يسمعن الزور ولايسمعن الخير)(1)

قال: فأنت تـرى أن الكـون حلقـة ذكـر واسـعة .. أفليس

(1) رواه ابن أبي شيبة.

لهؤلاء الذاكرين الخاشعين من الحرمة ما للكعبة والمساجد؟

قلت: بلى .. بل كان ﷺ يحمل احتراما عظيما للكائنات، فعندما حن الجذع لفقد رسول الله ﷺ، ضمه حتى سكن (1) .. وكان ﷺ يبادل هذه الأشياء مشاعرها، فكان يقول عن أحد:(هذا جبل يحبنا ونحبه)(2)

قال: أتدري ما أعظم حق يطلبه منكم الكون؟

قلت: ما هو .. لقد شوقتني.

قال: أن تعترفوا به.

ضحكت وقلت: وكيف نعترف به .. أنحن نستعمره؟

قال: أجل أنتم تستعمرونه في تصوراتكم، فتعتقدونه كونا هملا لا راعي له ولا حافظ، فتصارعونه وتوهمون أنفسكم أنكم تغلبونه.

قلت: فكيف نعترف به؟

قال: أن تعتقدوا أنه كون لله، لا كونكم، فتتعاملون معه معاملة الأخ لأخيه، وتتناولوا ما فيه من فضل باسم الله، لا باسمكم وباسم جهودكم.

قلت: ففسر لي ذلك، وأدبني به.

قال: علم ذلك في درس آخر من دروس السلام، عندما نشرب من عيون الحقائق مياها عذبة من أكواب (أكوان الله)

---

1) رواه الترمذي والدارمي.

2) رواه البخاري ومسلم.

بعـد أن قـال ذلـك فتح لنـا البـاب .. فرأينـا مـا لا يمكن وصفه.. لكنا ما إن سرنا قليلا حتى رأيت بابـا عجيبـا، سـألت المعلم عنـه، فقـال: هـذا بـاب الاسـتخلاف، ولا يصـح دخـول سائر الأبواب إلا بعد حمل ترخيص منه.

قلت للمعلم: لماذا تتشدد هكذا؟

قال: هـذا ليس تشـددا .. هـذه حقيقـة، فالاسـتخلاف هـو التصور الذي ينطلق منه المؤمن في تعامله مـع كـل شـيء، والتصور أساس التصرف.

قلت: فما حقيقته؟

قال: أن يعلم المؤمن أن كل شيء عنده لله، وأنه مجـرد خليفة عليه، لا مالك له.

قلت: أجل، فالقرآن الكريم يقرر ملكية اللـه لكـل شـيء في آيات كثيرة جدا، كقوله تعـالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَـعُ الْأُمُـورُ﴾ (آل عمـران:109)، وقوله: ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْـدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (يونس:55)

قال: والمال الـذي تتصـورون أنـه لكم ، ويعـادي بعضـكم بعضا لأجله هو لله، فقد قال تعـالى: ﴿ وَآتُـوهُمْ مِنْ مَـالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ (النور: 33) ..

قلت: صدقت .. فقد صرح القرآن الكريم بأن الله تعـالى جعـل الإنسـان خليفـة علـى هـذا المـال، فقـال: ﴿ آمِنُـوا بِاللَّهِ وَرَسُـولِهِ وَأَنْفِقُـوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْـتَخْلَفِينَ فِيـهِ فَالَّذِينَ آمَنُـوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِـيرٌ﴾ (الحديـد:7).. وأخـبر أن المـال الواصل لخلقه هو من الله، فقال: ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَـا آتَـاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْـلِهِ هُـوَ خَيْـراً لَهُمْ بَـلْ هُـوَ شَـرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِـهِ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَلِلَّهِ مِـيرَاثُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (آل عمـران:180).. ولكن

يا معلم لقد نسب الله تعالى الأموال للعباد في أكثر مواضع القرآن الكريم، كقوله تعالى عن المنفقين: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (البقرة: 262)

قال: لا تعارض بين النسبتين.

قلت: كيف؟

قال: أرأيت لو وهبت لك هبة .. أليست الهبة هبتي.. وهي مع ذلك ملك لك تستطيع أن تنسبها لنفسك.

قلت: فإذن أستطيع أن أتصرف بها كما أشاء.

قال: لا .. لأن الواهب شرط عليك أن لا تتصرف في هبته إلا بما فيه المصلحة.

قلت: ولكن الله غني عنا.

قال: بما فيه مصلحتك ومصلحة المجموع لا مصلحتك وحدك.

قلت: اشرح لي هذا .. فإني لا أكاد أفهم.

قال: قبل أن أشرح لك أريد أن أسألك عن موقف قومك من ملكية المال .. فهي أصل مواقفهم من كسبه وصرفه وأصل أخطائهم في ذلك.

قلت: قومي يختلفون .. هناك من يرى الملكية الفردية، ولا يحد لها أي حدود، ويجعل صاحبها حرا في التعامل مع ماله يوجهه حيث يشاء، وهناك من يرى عكس ذلك، وهناك من يحاول التوسط.

الرأسمالية:

قال: فما تقول الطائفة الأولى؟

قلت: هذه الطائفة تعظم المال وتجعله عصب الحياة أو ركنا من أركان الحياة، وقد قال أحد مؤسسيها:(يوجد في

العالم ثلاثة اختراعات عظيمة هي الكتابة والنقود والجدول الاقتصادي)

قال: هذا كلام صحيح، فالنقود من نعم الله على عباده، وهي قوام المعيشة، وعصب الحياة، ألم تقرأ قوله تعالى: وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً (النساء: 5) ؟

قلت: ولكنهم يبالغون في طلبه والإكثار منه.

قال: لا حجر في الإكثار وفي الطلب إن كان بالطرق الشرعية، ألم تسمع قول إخوة يوسف ﷺ: مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (يوسف: 65)؟

صحت، وقد اشتد علي ما أسمعه من المعلم: لقد أدى بهم الجشع والحرص على الاستكثار من المال إلى أمور خطيرة.

قال: وماهي؟

قلت: لقد جرهم لهثهم وراء المال إلى أنانية مفرطة، حيث يتحكم فرد أو أفراد قلائل بالأسواق تحقيقاً لمصالحهم الذاتية دون تقدير لحاجة المجتمع أو احترام للمصلحة العامة.. وهم في سبيل كسب المال لا يبالون بالطرق التي يحصلون بها عليه، فهم محتكرون خبيرون بالاحتكار، يقومون باحتكار البضائع وتخزينها حتى إذا ما فقدت من الأسواق نزلوا بها ليبيعوها بسعر مضاعف يبتزون به المستهلكين الضعفاء..

قال: ما هي تصوراتهم التي جعلتهم يتطرفون كل هذا التطرف؟

قلت: هم يتصورون بأن المال مالهم، كسبوه بعرقهم وجهدهم أو ورثوه عن أهلهم وأقاربهم .. ولا يحق لغيرهم أن يشاركهم فيه.

قال: أتقصد (القارونية) التي قال مؤسسها، أو المعبر عنها: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص: 78) جوابا لمن ذكره بأن المال مال الله، وينبغي أن يسير فيه بما أراد الله، فقال له: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:77)

أو تقصد ما قال قوم شعيب عليه السلام: ﴿ يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (هود: 87)

قلت: بل أقصد طائفة عصرية هي أكبر الطوائف عددا وأكثرها أموالا تسمى (الرأسمالية)

قال: وما تقول هذه الطائفة .. لم أرها مذكورة في كتب (الملل والنحل)

قلت: هذه الطائفة لا علاقة لها بالدين، ولا تهتم له، ولا تهتم به، إنما تحصر اهتمامها في المال.

قال: إذن هي من طائفة (عبدة المال) التي نص عليها قوله ﷺ:(تعس عبد الدينار)

قلت: لقد ذكرتني بما روى سيد قطب عن نفسه أنه أثناء زيارته لأمريكا كان ذات مرة جالساً في حديقة فاقترب منه رجل أبيض، وسأله: من أين أنت؟ فأجاب سيد: من مصر، فرد عليه قائلاً: إذن أنت مسلم، قال: نعم، قال: إذن حدثني عن الإسلام، فأخذ سيد يحدثه عن الإسلام، والرجل منصت باهتمام حتى أنهى سيد حديثه، عندها قال الرجل: جميل ما قُلته، ولكن الدولار هو الإله الوحيد الذي أعرفه!!

قال: أمثل هؤلاء لا زالوا يحملون صفة (الإنسان) .. لقد محى الله هذه الصفة على من لا يعرفه، فقال: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الفرقان: 44).. بل فضل الحجارة عليهم، فقال: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً

وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْـهُ الْأَنْهَـارُ وَإِنَّ مِنْهَـا لَمَـا يَشَّـقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَـا يَهْبِـطُ مِنْ خَشْـيَةِ اللَّهِ وَمَـا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (البقرة:74)

قلت: نعم .. لقد تحولوا إلى مسخ لا علاقة لـه بالإنسـان، فهم لم يتحرجوا من إبادة شعوب وأمم بأكملها، كما فعل الأمريكان بالهنود الحمر بحثاً عن الذهب ، وكما فعل مع سكان مستعمراته في إفريقيا حيث اقتاد منهم الألوف - بعد أن نهب خيرات أوطانهم - مكبلين بالأغلال في الأعناق والأيدي والأقدام استغلالاً لسواعدهم وقوة أجسامهم في استثمار اقتصادي لا يعود نفعه إلا إلى الرأسمالي ذاته.

قال: أتعلم أن كل ما ذكرته من هذه الطائفة نص عليه القرآن الكريم عند حديثه عن قارون.

قلت: إذن لقارون السبق في تأسيس هذه الطائفة .. فكيف ذلك؟

قال: لقد ذكر الله تعالى أربعة انحرافات لقارون، كل انحراف منها كاف لإدانته.

قلت: فما الانحراف الأول؟

قال: الظلم، وهو أول انحرفاته، ولعله نال ماله بسببه، فقد قال تعالى: إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ (القصص: 76)

قلت: وهو يمثل ما فعلته الرأسمالية من ظلم وتسلط ونهب واستعمار واستعباد.

قال: لقد بدأ قارون بقومه.

قلت: وهم يبتز بعضهم بعضا وينهب بعضهم بعضا إن لم يجدوا من ينهبون.

قال: والانحراف الثاني هو الفرح، كما قال تعالى: إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (القصص: 76

)، والفرح ـ هنا كما في أكثر مواضع القـرآن الكـريم ــ يعـني البطر والكبر والتعاظم واحتقار المستضعفين.

قلت: وهم يفعلون ذلك معنـا، فيسـمون أنفسـهم العـالم الأول، ونحن العــالم الثــالث، وهم العــالم المتقــدم، ونحن العـالم المتخلـف .. ولأفـرادهم من القيمـة مـا ليس للآلاف عندنا، فلا حرج عندهم أن يفتكوا بالآلاف منا في سبيل واحد منهم.

قال: والانحراف الثالث، هو الاستغراق في الدنيا، ونسيان الله والدار الآخرة، وهو ما يدل عليه قوله تعـالى على لسـان المصلحين من قومه: وَابْتَغِ فِيمَـا آتَـاكَ اللَّهُ الـدَّارَ الْآخِـرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا (القصص: 77)

قلت: وهـو مـا وقعـوا فيـه من الغفلـة عن اللـه، واعتبـار الدين نوعا من القضايا التي لا ينبغي البحث فيها ولا الاهتمام بهـا إلا الاهتمـام الشـكلي الـذي يعـبر عن الاحتقـار أكـثر من تعبيره عن الإيمان.

قال: والانحراف الرابع، هو الإفساد في الأرض، كمـا قـال تعالى على لسان المصلحين من قومـه: وَلا تَبْـغِ الْفَسَـادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (القصص: 77)

قلت: وهو ما وقعوا فيه من إفساد للأفـراد والمجتمعـات والأكوان من أجل مكاسب بسيطة لا تتجاوز خزائنهم.

قال: أتدري مصير قارونيتكم؟

قلت: لعل مصيرها هو مصـير قارونيـة قـارون، كمـا قـال تعـالى: فَخَسَـفْنَا بِـهِ وَبِـدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَـا كَـانَ لَـهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (القصص:81)، أحادث ذلك يا معلم؟ أتحصل معجزة مثل هذه؟

قال: ولماذا تبحث عن هلاكهم؟

قلت: وعن ماذا أبحث؟

قال: عن توبتهم .. ألم ينصح أولو العلم قارون ويوجهوه؟

قلت: أجل .. لكنه لم يستجب.

قال: فوجهوهم .. وارحموهم بتوجيهكم .. فإن لم يستجيبوا .. فاسألوا لله لهم ..

قلت: بل نسأل الله عليهم.

قال: إن أردتم السنة فاسألوا الله لهم، فعسى الله أن يخرج من أصلابهم من يتوب من عبادة الدينار والدرهم .. ويسلم وجهه إلى الله، وما ذلك على الله بعزيز.

الشيوعية:

قال: فما الطائفة الثانية؟

قلت: الشيوعية .. وهي طائفة ذات مذاهب متعددة، وهم على عكس الطائفة الأولى، يحاربون الملكية الفردية، ويقولون بشيوعية الأموال.

قال: هناك أموال ينبغي أن تبقى مشاعة حتى لا يستأثر بها الأغنياء، فيستولوا على حقوق الفقراء، وقد قال ﷺ مشيرا إلى هذا النوع:(المسلمون شركاء في ثلاث: في الماء والكلأ والنار، وثمنه حرام)(1)

قلت: هم لا يقولون هذا فقط .. بل ينطلقون من هذا إلى أفكار خطيرة تدور كلها حول الصراع.

قال: الصراع! .. ما أفلح من صارع! .. من يصارعون؟

قلت: أول من صارعوه الله، فهم ينكرون وجود الله تعالى وكل الغيبيات ويقولون بأن المادة هي أساس كل شيء.. وهم لذلك يحاربون الأديان، ويعتبرونها وسيلة لتخدير الشعوب .. وهم في أحسن الأحوال لا ينشغلون عن الدين نفيا أو إثباتا فمركز اهتماماتهم المادة وأساليب الإنتاج.

---

1) رواه أحمد وابن ماجة وغيرهما.

قال: فإذا حـاربوا اللـه، وحـاربوا دين اللـه فسـيقعون في عبودية غيره.

قلت: أجـل .. لقـد حصـل ذلـك، فقـد وقعـوا في عبوديـة الحزب الشيوعي وقادته، فقد كـان شـعارهم: نـؤمن بثلاثـة: ماركس ولينين وستالين، ونكفر بثلاثة: الله، والدين، الملكيـة الخاصة.

قال: ومن وقع في عبودية غير الله، فسيقع في كل أنواع الصراع.

قلت: أجل .. لقـد وقعـوا في ذلـك، فتمـيز كـل تـاريخهم بالصـراع، بـل إنهم فسـروا تـاريخ البشـرية بالصـراع بين الرأسماليين والفقراء.. وينتهي هـذا الصـراع حسـب زعمهم بدكتاتورية الفقراء. . وقد فسـروا كـل أحـداث التـاريخ بأنهـا نتيجة حتمية لتغير وسائل الإنتاج، وفسروا الفكـر والحضـارة والثقافـة بأنهـا وليـدة التطـور الاقتصـادي. . حـتى الأخلاق يقولون عنها بأنها نسبية وهي انعكاس لآلة الإنتاج.

قال: وعلاقتهم بالمستضعفين؟

قلت: هم يزعمـون أنهم يعملـون في مصـلحتهم، ولكنهم في الحقيقـة لم يحكمـوا الشـعوب الـتي أتيح لهم حكمهـا إلا بالحديد والنار.

قال: أتحسبون أن هؤلاء بشرا؟

قلت: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ﴾

قال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الفرقان: 44)

قلت: ولكن الله تعـالى نجانـا منهم، فقـد انتهت دولتهم.. فانهارت في معاقلها بعد قرابة سبعين عاماً من قيـام الحكم الشيوعي وبعد أربعين عامـاً من تطـبيق أفكارهـا في أوروبـا الشرقية.

الإسلام:

قال: أهؤلاء قومك؟

قلت: هـؤلاء من قـومي، ومنهم من يقـول غـير هـذا، أو يحاول أن يجمع بين هذا وهذا.

قال: فدعنا منهم، فإن للشياطين سبلا، وللشـر ظلمـات، ألم تـر أن اللـه تعـالى عـبر عن النـور بـالإفراد وعن الظلام بالظلمات؟

قلت: بلى، فقـد قـال تعـالى: يَهْـدِي بِـهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَـعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْـرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِـهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (المائدة: 16)

قال: فلنرجع إلى النور نطفئ به جميع الظلمات.

قلت: فما هو مصدر النور؟

قـال: اللـه..ألم تقـرأ قولـه تعـالى: اللَّهُ نُـورُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (النور: 35) .. فإن كان هؤلاء وأولئك اشنغلوا عن الله بالدينار والدرهم، فإن المؤمـنين المسـتنيرين بنـور اللـه يبـدأون علاقتم بالـدينار والـدرهم من اللـه، فهم يشـعرون بفقـرهم التـام وعجـزهم المطلـق وفنـائهم المحض، ثم يشعرون بأن الله بجـوده من عليهم بـأرزاق كثـيرة منهـا مـا تناولوه، ومنها ما اختبروا به.

قلت: فما هي الأرزاق التي تناولوها؟

قـال: هي مـا يشـترك فيـه النـاس جميعـا من المآكـل والمشارب والملابس والمساكن .. فهي أرزاق، الغرض منها حياة الإنسان، فلولاها ما صلح بقاؤه على هذه الأرض.

قلت: وما أرزاق الاختبار؟

قال: هي ما فـاض على ذلـك وزاد عن الحاجـة، ألم تقـرأ قوله تعالى: وَيَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُـونَ قُـلِ الْعَفْـوَ (البقـرة: 219)

قلت: فما العفو؟

قال: هو ما زاد عن الحاجة، فليس للإنسان فيـه من حـق التملك إلا حق التسيير والإنفاق فيما أمر الله بالإنفاق فيه.

قلت: لكأني بك تعود بي إلى منطق الشيوعية.

قال: لا .. أنت تزعم أن الشيوعية تريد تساوي الناس في التملك، وتحد من حرية الأغنياء في التملك.

قلت: أجل.

قال: أما الإسلام شريعة السلام .. فيعتبر مثل هـذا النـوع من المصادرة سرقة .. فلـذلك يـترك للأغنيـاء حريـة التملـك كمـا شـاء لهم جهـدهم بشـرطين: أن يكـون من حلـه، وأن يوضع في محله.

قلت: كيف هذا؟

قال: يجوز لأي شـخص أوتي ذكـاء وأمـوالا أن يتـاجر في أمواله ـ محفوفا بحماية الأمـة ــ بشـرط أن يكـون ذلـك في خدمتها، فهي أمواله من جهة تملكها، وهي أمـوال الأمـة من جهة الانتفاع بها.

قلت: اذكر لي مثالا يوضح لي هذا.

قـال: من أوتي مـالا بحيث اسـتطاع أن يجلب أنواعـا من الرزق تحتاجها الأمة، سواء بالاتجار فيهـا، أو بصـناعتها، فإنـه يكون بذلك قد تخلق باسم الله:(الرزاق) ويكون له من الأجر إذا نوى ذلك ما لا يخطر له على بال.

قلت: ولكنه ينتفع بذلك، وهو يخدم مصالحه.

قال: وما يهمنا إذا كانت مصـالحه لا تتعـارض مـع مصـالح الأمة، بل تتوافق معهـا، أليس السـلام هـو توافـق المصـالح، والصراع هو تضادها؟

قلت: بلى.

قال: فلذلك ينظر المؤمن الفقير إلى الغني نظرة احترام

لا نظـرة حسـد، لأنـه يعتـبره واسـطة من وسـائط الـرزق لا تختلـف عن الأمطـار الهاطلـة والأرض الطيبـة .. ألم تسـمع قوله ﷺ:(الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون)(1)

قلت: بـل روي في روايـة أخـرى:(الجـالب إلى سـوقنا كالمجاهد في سبيل الله، والمحتكر في سوقنا كالملحـد في كتاب الله)(2)

قـال: ولهـذا قـرن اللـه تعـالى الضـاربين في الأرض بالمجاهدين في سـبيل اللـه، فقـال: عَلِمَ أَنْ سَـيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَـى وَآخَـرُونَ يَضْـرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُـونَ مِنْ فَضْـلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (المزمل: 20)

قلت: لقد فهمت ما قلت، فلولا الغني مـا بـنيت المصـانع التي تشغل العمال، ولا أحضرت السلع التي تحتاجهـا الأمـة، ولا نشط السوق الذي تتم به معـايش النـاس .. ولكن كيـف يكون الغني مجرد مالك.

قال: الشرع أذن له في أن يملك، ولكنـه حجـر عليـه في الإنفـاق، بحيث لا ينفـق ولا يتصـرف في مالـه إلا مـا فيـه المصلحة العامة بالإضافة إلى مصلحته الشخصية، ألم تسمع قوله تعالى: وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْـوَالَكُمُ الَّتِي جَعَـلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُـوهُمْ فِيهَـا وَاكْسُـوهُمْ وَقُولُـوا لَهُمْ قَـوْلاً مَعْرُوفـاً (النساء:5)؟

قلت: بلى.

قال: فهذه الآية تضع نظـام العلاقـة مـع المـال، فالـذي لا يعرف كيف يتصـرف في مالـه لا يمنـع من الانتفـاع بـه، بـل يرزق منه ويكسى، ولكنه لا يباح له التصرف فيه بما يتناقض مع المصلحة العامة، وقد علل تعالى ذلك بأنه قوام المجتمع، أي أن المال في الحقيقة، وإن كان بيد الغني إلا أن مصلحته تـنزل للمجتمـع، فهـو كـالمطر تختزنـه السـحب، وتنتفـع بـه

1) رواه ابن ماجه.

2) رواه الزبير بن بكار في أخبار المدينة والحاكم مرسلا.

الأرض.

قلت: فهـذا هـو الفـارق إذن بين الشـيوعية والإسـلام، فالشيوعية تريد أن تجعل من كـل فـرد سـحابة تهطـل على نفسها.

قـال: وهـو الفـارق بين الإسـلام والرأسـمالية القارونيـة، فهي تريد أن تجمع مياه الدنيا جميعـا في يـد ثلـة من النـاس ترفعهم إلى أعالي السماء، ولا ترضى أن تنزل قطرة عليهم إلا بعد أن تستعبدهم وتستذلهم.

قلت: والإسلام؟

قال: الإسلام يرضى ببقـاء السـحاب في الأعـالي، ولكنـه يشترط عليه إنزال غيثه على الأسافل .. شرطا لا تفضلا ..

قلت: لقد ذكرتني بقولـه ﷺ:(مثـل القـائم في حـدود اللَّه والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سـفينة فصـار بعضـهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الـذين في أسـفلها إذا اسـتقوا من الماء مـروا على من فـوقهم؛ فقـالوا: لـو أنـا خرقنـا في نصـيبنا خرقـاً ولم نـؤذ من فوقنـا. فـإن تركـوهم ومـا أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً)(1)

قال: هذا مثال عظيم فيه دلالات عظيمة، فليس كـل من امتلك شيئا جاز له التصرف فيه.

قلت: وكيف عبر الإسلام على هذا؟

قال: عبر عنه بالاستخلاف، ألسنا أمام باب الاستخلاف؟

قلت: ولم سمي كذلك؟

قال: لأنه التصور الذي يحمل حقيقة موقـف الإسـلام من المـال وتملكـه، وهـذه الحقيقـة هي الـتي تجـر المالـك إلى تصرفه في ماله وفق مـا يطلبـه المالـك الأصـلي للمـال، ألا تعلم أن المالك الأصلي هو الله، وأن العبد مجرد وكيل لله؟

---

1) رواه البخاري.

قلت: قد علمنا ذلك.

قال: وهل يجوز للوكيل أن يخالف تعليمات الموكل.

قلت: الوكيل الصالح لا يفعل ذلك.

قال: والإسلام يفرض هذا الصلاح على الوكيـل، فـإن أبى حجر عليه، ومنعه من التصرف إلا وفق مـا يرتضـيه صـاحب المال.

بعد أن قال ذلك فتح لنا الباب .. فرأينا ما لا يمكن وصفه.. لكنا ما إن سرنا قليلا حتى رأيت بابا عجيبا، قد علقت عليه لافتة في منتهى الجمال مكتوب عليها قوله تعالى: وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (التوبة: 34) ا

فسألت المعلم: ما محل هذه الآية الكريمة من هذا الباب؟

قال: هذه آية هذا الباب، فهذا باب الاستثمار، والكنز يناقض الاستثمار، ويحاربه ويمنع منه، فلذلك توجهت هذه الآية للتحذير من الكنز.

قلت: ولكن النصوص التفسيرية قد لا تسمح لك بهذا النوع من الاستدلال.

قال: فما قالوا؟

قلت: منهم من ذهب إلى أن هذه الآية الكريمة مختصة بأهل الكتاب، واستدلوا على ذلك بأن الله تعالى ذكر الكنز بعد قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (التوبة: 34)

قال: أخطأ من ذهب إلى هذا .. القرآن الكريم منزل على هذه الأمة، ولهذه الأمة، .. حتى ما ذكرته من الحديث عن الأحبار والرهبان لا يعني الأحبار والرهبان فقط، بل يشمل من زعم لنفسه التصدر في شؤون الدين للناس من العلماء والعباد سواء كان من بني إسرائيل أو من هذه الأمة أو من غيرهما من الأمم، فسنة الله في خلقه واحدة.

قلت: صدقت في هذا.. ولكن مع ذلك هناك من يحمل الآية محملا آخر قد يكون صحيحا، وهو يخرجها أيضا عن صحة الاستدلال بها في هذا الموضع.

قال: وما يقولون؟

قلت: يقولون بأن الكنز هو المال الذي لم تؤد زكاته، فإذا أديت الزكاة خرج عن كونه كنزا حتى لو كان ما كان، وقد رووا في ذلك عن النبي ﷺ قوله:(من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني شدقيه - ثم يقول أنا مالك أنا كنزك) ثم تلا: ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (آل عمران:180)

ورووا في ذلك أيضا قوله ﷺ:(والذي نفسي بيده - أو والذي لا إله غيره أو كما حلف - ما من رجل تكون له إبل أو بقر أو غنم لا يؤدي حقها إلا أتي بها يوم القيامة أعظم ما تكون وأسمنه تطؤه بأخفافها وتنطحه بقرونها كلما جازت أخراها ردت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس)(1)

قال: أنا لا أنفي أن لهذه الآية علاقة بالزكاة والصدقات .. ولكن لها علاقة بناحية أهم من ذلك كله.

قلت: وما هي؟

قال: الاستثمار .. هذه آية تحض على الاستثمار .. وهو أهم من إنفاق الصدقات والزكوات؟

قلت: هذا قول خطير .. كيف هذا؟

قال: المستثمر الصالح يخرج كل ما فضل على حاجته من ماله في مصلحة المسلمين، ولا يخرج ربع العشر فقط.

قلت: كيف؟

قال: سأضرب لك مثالا على ذلك .. أجبني: هل يمكن أن

---

1) رواه ابن حبان والنسائي وابن ماجة.

يمتلك الغني مالا يكفي مائة شخص من الناس؟

قلت: بل من الأغنياء من له من المال ما يكفي مائة مليون من الناس.

قال: فلو أن هذا الغني، ومثله من الأغنياء خبأوا أموالهم وكنزوها ولم يتجروا فيها، ولم يؤسسوا بها المعامل والمصانع، ولم يضربوا بها في الأرض، واكتفوا بطقطقة المسابح، وإخراج ربع العشر كل حول، أيكفي ذلك الناس؟

قلت: سيموت الناس حينها جوعا، قويهم وضعيفهم، بل إن الأغنياء أنفسهم قد لا تنفعهم أموالهم.

قال: فقوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: 34) لا يعني فقط عدم إنفاقها في الزكاة والصدقات، وإنما يعني أيضا، عدم الاتجار فيها واستثمارها، وهو ما عبرت عنه صيغة الكنز في القرآن الكريم.

قلت: أنت تفسر الإنفاق هنا بالاستثمار.

قال: الاستثمار نوع من أنواع الإنفاق، وهو إن وافق محله لا يختلف عن إنفاق الصدقات.

قلت: كيف .. ومال الصدقات يذهب عن صاحبه ولا يرجع، ومال الاستثمار يرجع مضاعفا.

قال: ألم تسمع قوله ﷺ:(رأيت ليلة أسري بي مكتوباً على باب الجنة الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر) فقلت لجبريل:(ما بال القرض أفضل من الصدقة؟) قال: (لأن السائل يسأل وعنده شيء، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة)(1)

1) رواه الطبراني في الكبير.

قلت: بلى، لقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث بفضل القرض على الصدقة.

قال: وما سبب ذلك؟

قلت: أخبر ﷺ بأن القرض يغطي الحاجة بخلاف الصدقة التي قد لا تقع في محلها.

قال: ولكن .. أليس القرض يرجع إلى أصحابه؟

قلت: بلى.

قال: فكذلك الاسثمار.

قلت: وما محل القياس؟

قال: الاستثمار والقرض كلاهما يغطي حاجة، بل إن المستثمر أكثر تضحية من المقرض، لأنه قد يخسر في استثماره بخلاف المستقرض الذي ضمن عودة ماله.. وزيادة على ذلك كله، فإن الاستثمار يفيد أكثر الناس بخلاف القرض الذي لا يفيد إلا الفقراء .. وزيادة على ذلك ..

قاطعته قائلا: .. فإذن مال الفرد يصبح مالا للمجموع .. هو يملكه، وهم ينتفعون به.

قال: صدقت، وذلك ما تحدثنا عنه في الاستخلاف .. هو يملك المال، ولكن لا يستطيع التصرف فيه إلا بما تتطلبه مصلحة الجماعة.

قلت: فيمكن تفسير قوله تعالى:﴿ وَيَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (البقرة: 219) بهذا، فيعتبر الأمر بالإنفاق أمرا بالاستثمار، وبذلك ينتفي الخلاف في المسألة، وينتفي القول بنسخها.

قال: ذلك صحيح، وقد رويت أحاديث تكاد تكون صريحة في الدلالة على هذا المعنى، منها ما روي أنه مات رجل من أهل الصفة فوجد في بردته دينار. فقال رسول الله ﷺ: (كية)، ثم مات آخر فوجد له ديناران، فقال رسول الله ﷺ: (كيتان)(1)

قلت: ولكن ذلك علل بأنه إنما كان ذلك في صدر الإسلام، قبل أن يقرر الشرع ضبط المال وأداء حقه.

قال: لماذا تحرفون النصوص، من قال بأن هذا في صدر الإسلام، أو في آخر الإسلام؟ وأي فرق بين الأمرين؟

قلت: أأنت تحرم ادخار الأموال واكتنازها؟

قال: أنا لست مشرعا حتى أحلل أو حرم .. ولكني أنقل لك ما يقول القرآن الكريم، وهو صريح في الأمر بعدم ادخار الأموال .. لأنه لا يجوز لشخص أن يدخر ما ليس له .. أنسيت أن المال مال الله.. وأنه خلقه لعباده لتستقيم حياتهم به، فإذا خبأوه فقد منعوا عباده من تحقيق مقاصده .. سأضرب لك مثالا على هذا ..

أرأيت لو أن شخصا آتاه الله من الأدوية التي قال عنها النبي ﷺ:(لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله)(2) فخبأه في سراديب له، ومنع الناس من استعماله، بحجة أن هذا الدواء مدخر لحاجته المستقبلية .. ثم إن الناس تضرروا بذلك .. أفيكون عمله هذا مباحا؟

قلت: لا .. هذا من أعظم المحرمات، ومن أدراه أنه سيمرض مرضا يحتاج معه إلى ذلك الدواء..

---

1) رواه الطبري.

2) رواه مسلم.

قال: فقس هذا على ذاك.

قلت: كيف ..

قال: أليس المال نوعا من أنواع الدواء؟

قلت: هذا يحتاج إلى برهان.

قال: أليس الدواء هو الذي يقاوم المرض فيعالجه؟

قلت: بلى.

قال: أليس الجوع نوعا من المـرض، فالجسـم بـالجوع لا يقوم، والعقل لا يفكر؟

قلت: صحيح، وهم الآن يعتبرون سوء التغذيـة من أخطـر أسباب الأمراض.

قال: وكيف يداوى سوء التغذية؟

قلت: بالمال.

قال: إذن .. أنت تقول بأن المال دواء.

قلت: بهذا الاعتبار هذا كلام صحيح.

بعد أن قال ذلك فتح لنا الباب .. لكننا ما إن سرنا قليلا حتى رأيت بابا عجيبا، قد علقت عليه لافتة في منتهى الجمال مكتوب عليها قوله تعالى: كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ(الحشر: 7)

قلت للمعلم: لا شك أن هذا هو باب التداول، فهذه آية التداول.

قال: نعم، وهي صريحة لن تستنفذ منا جهدا في إثبات معناها كما استنفذته منا آية الاستثمار.

قلت: ما الفرق بين الاستثمار والتداول؟.. إني لا أكاد أحس فرقا بينهما.

قال: الاستثمار يهتم بتنمية المال، بغض النظر عن مالكه، فلذلك لا يرى بأسا في أن يمتلك جميع أموال الدنيا رجل واحد بشرط أن يحسن استغلالها والاستفادة منها، وتعميم تلك الاستفادة.

قلت: والتداول؟

قال: ينظر إلى مقصد آخر له أهميته التي لا تقل عن أهمية الاستثمار، أو تكاد تكمل غرض الاستثمار.

قلت: وما هي؟

قال: أن لا يبقى المال في يد طائفة محدودة، بل ينتشر بين طوائف من الناس.

قلت: وما الحكمة في ذلك؟

قال: هناك حكم كثيرة وفوائد جليلة، منها ما يرتبط بسنة الاستخلاف التي مررنا على بابها، فالاستخلاف يعني الابتلاء بالأموال، ومن حكمة الشارع أن يختلف المبتلون ليكون بعضهم حجة على بعض، أو قدوة لبعض.

قلت: هذه حكمة أخروية، ونحن الآن نتحدث عن الدنيا.

قال: الدنيا والآخـرة أخـوان، ولا تصـلح الـدنيا إلا بمهمـات الآخـرة .. ولكـني مـع ذلـك لن أناقشـك في هـذا، وسـأدعه لمحل آخر نبين فيه ارتباط مصالح الآخرة بمصالح الدنيا.

قلت: فاذكر لي حكمة التداول المرتبطة بالدنيا.

قال: عندما يكون المال بيد شخص من الناس له اهتمـام معين، ألا يجـر جميـع أنـواع اسـتثماراته إلى ذلـك الاهتمـام حرصا على الربح، أو لكونه يخـاف مخـاطر غـيره من أنـواع الاستثمار.

قلت: هذا صـحيح، فالاسـتثمار ينبـع عمومـا من شخصـية المستثمر، وطموحاته، ونظرته إلى الحياة.

قـال: فلنفـرض مثلا أنـه لم يكن من بين المسـتثمرين القلائـل الـذين اجتمعت لـديهم أمـوال الـدنيا من لـه علاقـة بالعلم، أو بالاهتمام بنشره، أيمكن أن توجد دور نشر تنشـر العلم، وقد تضحي في سبيله؟

قلت: لا .. بل ستصبح المكتبات حينهـا دورا لـبيع الحلـوى أو أصناف اللعب.

قال: ألا يتضرر حينها الناس بفقد جزء مهم من حياتهم؟

قلت: هذا صحيح .. وقد جربتـه، فقـد يبتليـني اللـه ببعض الأسـفار إلى بعض المـدن، فلا أجـد مكتبـة أسـتريح فيهـا، أو أنهل منها، فأعيش غربة لا تقـل عن الغربـة الـتي عناهـا ابن خاتمة الأندلسي بقوله:

الزمْ مكانكَ فالتغربُ ذِلَّةٌ ... لو لم تَنَلْ غيرَ القرارِ نجاحا

فإِذا أرادَ اللّهُ مهلِكَ نملةٍ ... هيا لها كيما تطيرُ جناحا

قال: فلذلك كان من رحمة الله أن يجعـل المـال متـداولا بين الناس.

قلت: وكيف جعله كـذلك، ونحن نـرى المـال في الـدول الرأسمالية يتركز في يد طوائف محدودة.

قال: ذلك في عالمكم .. العالم الذي انهارت فيه القيم .. أما العالم الذي يحكمه الشرع، فيستحيل أن يصل المرء إلى هذه الصورة.

قلت: أيسلب الشرع أموال الناس، أم يصادرها لهم؟

قال: الشرع لا يسلب ولا يصادر .. وإنما ينظم .. لأن أكثر أربـاح هـؤلاء لم تـأت بـالطرق الشـرعية.. إن الأربـاح الـتي تجمعت لهم هي التي سببت الفقر في العالم.

قلت: كيـف؟ ألم نقـل بـأن الاسـتثمار لا يهتم بمن لديـه المال .. المهم أن يستثمر فيه؟

قال: ولكن فيم يستثمر؟

قلت: فيما يعود بالمنفعة على الناس؟

قال: وهل تحقق هذا؟

قلت: أحيانا.

قال: فكم ينفق هـؤلاء الأغنيـاء على مـا تسـمونه (الآيس كريم)؟

قلت: ذكرت الإحصائيات أنهم ينفقون 11 بليون دولار.

قال: وعلى مرضى البدانة؟

قلت: 238 بليون دولار تنفقها الولايـات المتحـدة وحـدها على مرضى البدانة.

قال: وعلى مستحضرات التجميل؟

قلت: ينفـق الأمريكيـون والأوربيـون 8 مليـار دولار على مستحضرات التجميل(1).

---

1) مجلة الأسرة، عدد شوال، 1419.

قال: وكم عدد الفقراء الـذين يعيشـون على دولارين في اليوم؟

قلت: 3 ملايير إنسان.

قال: ومن يعيشون على دولار واحد؟

قلت: 1.3 مليار يعيشون على دولار واحد(1).

قال: هذه الإحصائيات تنطق وحدها بالحقيقـة .. ألم أقـل لك: لو أنهم رجعـوا إلى الأرقـام وحـدها لهـدتهم إلى الحـق، ودلتهم على طريق الله.

قلت: ولكن ما علاقة هذا بالتداول؟

قال: هؤلاء الذين اجتمعت لـديهم هـذه الأمـوال الضـخمة صــرفوها في هــذه المصــارف الــتي نشــرت الفقــر في المجتمع .. ولو أن أموالهم لم تكن بهذه الصفة لخافوا عليها، ولما تجرأوا على تضييعها في مثل هذه الأمور.

قال: أخبرني : ما هو حرف المعاني الذي كثر تــردده في قول تعالى في آية التـداول:﴿ مَـا أَفَـاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُـولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَــاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَـةً بَيْنَ الأَغْنِيَـاءِ مِنْكُمْ ﴾ (الحشـر: 7)

قلت: الواو، فقد ذكرت خمس مرات.

قال: لماذا؟

قلت: لتعدد الذين يفرق عليهم المال.

قال: فالشرع إذن عدد مصـارف الأمـوال حـتى لا تجتمـع في يد فئات محدودة .. اقرأ آيات المواريث، ولتسـمعها من هذا الباب.

قلت: يا معلم .. أخشى لو حاولنـا سـماعها ألا نخـرج من

---

1) مجلة الأسرة، عدد رمضان 1420.

هذا الباب.

قرأتها عليه، فقال: ما تلاحظ في هذه الآيات التي لم يرض القرآن الكريم إلا التفصيل في ذكرها؟

قلت: الله تعالى فتت الثروة التي يتركها الميت تفتيتا، فسدسها لقوم، وثلثاها لقوم، وثلثها لقوم .. وسدسها .. ونصفها .. وربعها.

قال: فهل يجوز للميت أن يؤثر بثروته أفرادا محدودين يصب عليهم وافر كرمه، ويترك الآخرين لسوء طالعهم؟

قلت: لا .. لا حرية له في ذلك .. فالشرع هو الذي قسم المال، ولا حق لصاحب المال في تقسيمه.

قال: أرأيت لو أن شخصا ما خلف مليارا من هذه العملة التي تسمونها (دولارا)، ثم مات.

قلت: أعطني بيانات أقاربه .. فما أسرع أن أعطيك أنصبة الوارثين؟

قال: ترك زوجة طبعا .. فلا يصح أن يموت غنيا كهذا بلا زوجة.

قلت: نصيبها إن مات بلا أولاد الربع، وهو 250000 دولارا، أما إن كان له ولد، فترث 125000000دولارا.

قال: غني كهذا لا يعدم من الأولاد في العادة، فلنفرض أن له خمسة بنين، وخمس بنات.

قلت: دعني أفكر قليلا .. للزوجة الثمن .. والأبناء يرثون تعصيبا، فأصل المسألة من ثمانية، ولتصحيح المسألة فإنه ما دام للذكر مثل حظ الأنثيين، فإن عدد أسهم البنين خمسة عشر، ولتصحيح المسألة فإنا نضرب ثمانية في خمسة عشر تصبح 120، للزوجة منها الثمن وهو 15، وللأبناء الباقي، وهو 105، فإذا قسمناه بينهم أي 105 على 15 فإن نصيب كل بنت يساوي 7 ونصيب كل ذكر 14 بالضرورة.

فإذا قسمنا التركة على عدد الأسهم نجد مقدار السهم الواحد بالتقريب هو 8333333.33، فإذا ضربناه في عدد أسهم كل ولد، فإنه ينتج: لكل ذكر: 116666666.66، ولكل أنثى: 58333333.33.

قال: كيف يصبح هؤلاء الأولاد .. هل يبقون كأبيهم مليارديرات؟

قلت: سيصبحون مليونديرات.

قال: فلو أن هذا الرجل سمح لهم أن يورث من يشاء، فأعطى المال لواحد منهم عرف كيف يحتال على أبيه.

قلت: سيبدأ حينها مليارديرا، وسيوظف إخوانه عنده عمالا، وستتضاعف ثروته فلا يموت إلا بعد أن يترك عشرات المليارات.

قال: فإذا ورثها أحد أولاده أيضا؟

قلت: سيملك ولده هذا الدولة التي يعيش فيها.

قال: أرأيت إذن حكمة الشارع في تفتيت الثروة بالموت .. فالموت يعيد توزيع الثروة ليحقق التداول .. ولو أضفنا إلى هذا أن هذا الرجل لن يكون قد استكمل له من الثروة ما استكمل إلا بعد طول جهد وطول عمر، لعرفنا أن الثروة يكاد يستحيل اجتماعها في شخص بالصور التي ذكرتها سابقا..

قلت: فهمت هذا.

قال: هذا مثال واحد فقط، وتشريعات الإسلام في هذا الباب كما في غيره من الأبواب كثيرة لا يمكن حصرها .. اقرأ علي آية المصارف.

قلت: قال تعالى:﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

(التوبة:60)

قال: كم من مصرف للزكاة تذكره هذه الآية؟

قلت: ثمانية مصارف تمتلئ بتفاصيلها كتب الفقه.

قال: مع أن الشرع قصد بالصدقات والزكـوات ــ أول مـا قصد ـ الفقراء، إلا أنه ذكر هذه المصارف لتكون مرجعـا في الحالة التي يكثر فيها المال، وتمتلئ جيوب الفقراء.

قلت: لماذا؟

قال: حتى لا يصبح المال دولة بين الفقراء.

قلت: وكيف ذلك؟

قال: إذا لم يكن للزكاة إلا مصرف واحد .. ألم تقرأ قولـه ﷺ:(ليأتين على الناس زمان يطـوف الرجـل فيـه بالصـدقة من الذهب فلا يجد أحداً يأخذها منه)(1)

قلت: أجعل الله سائر المصارف ملاذا في هذه الحال؟

قال: وفي كل حال مشابهة، حتى لا يصـبح الفقـر حرفـة، يضطر الأغنياء لإيجادها ليدفعوا زكاة أموالهم.

قلت: فالشرع إذن أمر بالتداول مطلقا الأغنياء والفقراء.

قال: أجل .. فلا فـرق بينهمـا في مـوازين اللـه .. ألا تعلم أن الله عدل حكيم؟

قلت: فهمت هذا .. فبماذا تأمرني أن أنصح قومي؟

قال: علمت أن لديكم مصارف تريد أن تحيي السنة.

قلت: أجل .. وهي تسـمى بنوكـا إسـلامية، وهي فتح من الله على هذه الأمة.

قال: فحذرها من أن تسقط في عبودية المال.

---

1) رواه مسلم.

قلت: هي تحتاج منا إلى تدعيم وتشجيع لا إلى تحذير.

قال: تحذريك لها هو تشجيعها.

قلت: هي تنقذنا من الربا.

قال: ليس الربا وحده هو الذي يهددكم .. والشرع لم يأت لمحاربة الربا وحده.

قلت: ولكن أساس هذه المصارف هو البحث عن الاستثمارات التي لا يشكل الربا جزءا منها.

قال: إن أراداوا أن يحيوا هذه الأمة ويبارك الله لهم، فليتصدقوا بجميع الأموال التي تخزن عندهم.

ضحكت، وقلت: أتريد أن يتهموني بالجنون، لو تصدقوا بها لانهارت مصارفهم، ولما قامت للإسلام سوق.

قال: ولكنها ستعود عليهم بأضعاف من الأجور.

قلت: ومن يرغب في أجور الآخرة في هذا الزمان؟

قال: ومن قال بأن هذه الأجور أجور الآخرة وحدها .. هي أجورالدنيا والآخرة.

قلت: كيف .. ألم تقل: يتصدقوا بها؟

قال: ألم تعرف أن الاستثمار صدقة؟

قلت: فهم يستثمرون.

قال: مع الكبار .. فانصحهم بأن يستثمروا مع الصغار.

قلت: كيف؟

قال: يشترون الفؤوس للحطابين، ألم تقرأ قصة السائل الذي دله النبي ﷺ على الفأس؟

قلت: تقصد ما روي أن رجلا من الأنصار أتى النبي ﷺ فسأله فقال: أما في بيتك شيء؟ فقال بلى حلس نلبس

بعضه ونبسط بعضه وقعب نشرب فيه الماء فقال: ائتني بهما، فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده فقال: من يشتري هذين؟ فقال رجل: أنا آخذهما بدرهم، فقال رسول الله ﷺ:(من يزيد على درهم مرتين أو ثلاثا؟)، فقال رجل: أنا أخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري وقال: اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك واشتر بالآخر قدوما فائتني به، فلما أتاه به شد فيه رسول الله ﷺ عودا بيده، ثم قال:(اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوما)، ففعل وجاء فأصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما، فقال رسول الله ﷺ:(هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تحل إلا لثلاث: لذي فقر مدقع، ولذي غرم مفظع، ولذي دم موجع)(1)

قال: أجل .. أليس شراء الفؤوس سنة؟

ضحكت، وقلت: لو علم بعض إخواننا بهذا لامتلأت بيوتهم بالفؤوس، ولقام سوق الفؤوس بعد ركود.

قال: أنا لا أقصد بالفؤوس الفؤوس، إنما أقصد بها وسائل الإنتاج.

قلت: تعني أن تشتري المصارف ووسائل الإنتاج لتستثمر فيها.

قال: لا .. لتملكها لأكبر عدد من الناس، فلا تدع يدا عاطلة، فالبطن الخاوي ابن اليد العاطلة.

قلت: وأرباحها .. هي لم تقم إلا لتربح.

قال: ستربح .. وتربح كثيرا .. وفوق ربحها إحياءها الغنى، وقتلها الفقر.

قلت: هي تستثمر الآن.

---

1) رواه أبو داود والترمذي.

قال: هي تهتم بالبيع والشراء لتتضخم أكـثر من اهتمامهـا بالاسـتثمار، فـإن اهتمت بهـا سـقطت على الكبـار، ونسـيت الصغار.

قال: ولكن هذه المصارف بممووليها.

قال: فانشروا وعيا بين الناس.

قلت: بماذا؟

قال: بأن يسحبوا أموالهم من بنوك العالم، ويضـعوها في هذه المصارف، فلا أرى لكم حلا أنجع من هذا.

قلت: ولكن الخبراء الاقتصاديين ..

قال: دعكم من هذ الفلسفات .. تعـاملوا مـع اللـه، لا مـع الخبراء الاقتصـاديين .. وسـترون بركـات اللـه الـتي لا يراهـا هؤلاء الخبراء.

بعد أن قال ذلك فتح لنا الباب .. لكننا ما إن سرنا قليلا حتى رأيت بابا عجيبا، قد علقت عليه لافتة في منتهى الجمال مكتوب عليها قوله تعالى: وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً (النساء: 5)

قلت: أي باب هذا .. أهذا باب الحجر؟

قال: تقريبا .. ولكنا نسميه هنا (باب الحفظ)

قلت: فماذا تريدون منه؟

قال: أليس المال نعمة من نعم الله على عباده؟

قلت: بلى، فقد قال ﷺ:(نعم المال الصالح للرجل الصالح)(1)

قال: أفلم يأمر الشرع بحفظ النعم.

قلت: بلى، وقد أحسن الشاعر حين قال:

إِذا كنتَ في نعمةٍ فارعَها فإِن المعاصي تزيلُ النعمْ
وحافظْ عليها بتقوى الإِلهِ فإِن الإِلهَ سريعُ النقمْ

قال: ومن هذا الباب أمر الله تعالى بحفظ الأموال؟

قلت: أليست أحسن طرق حفظ الأموال هي كنزها .. فلا يراها إلا صاحبها الفينة بعد الفينة؟

قال: لا .. كنزها إماتتها .. وقد حرم الشرع قتل الأموال.

قلت: كيف؟ لا أرى نصا يقول:(ولا تقتلوا أموالكم)

قال: أنسيت ما ذكرناه في الباب السابق.

قلت: اعذرني، فإني آدمي، وقد نسي أبي، فنسيت.

---

(1) رواه أحمد والحاكم وابن سعد.

قال: فاعزم حتى لا تنسى، ألم يقل الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (طه: 115)

قلت: لقد ذكرت بأن حفظ الأموال مقصد من مقاصد الشارع .. ومقاصد الشارع لا تستنبط بالعقل .. بل تستنبط من النصوص.

قال: ما أكثر النصوص الدالة على ذلك، وما أكثر التشريعات المحققة لذلك.

قلت: فلنبدأ بالنصوص.

قال: ألم ينه النبي ﷺ عن إضاعة المال؟

قلت: بلى، فقد قال:(إنّ اللّه كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السّؤال)(1)

قال: وما قال ﷺ لسعد عندما عاده؟

قلت: قال له:(إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس)(2)

قال: فقد أمره بحفظ أمواله مع كونه طلب أن يتصدق بها جميعا في سبيل الله..

قلت: ومثله ما قال ﷺ لكعب لما قال:(يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله)، فقد قال له ﷺ:(أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك)(3)

قال: ألم يبح ﷺ القتال دون المال؟

قلت: بلى، فقد قال ﷺ:(من قتل دون ماله فهو شهيد)

---

1) رواه مسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه البخاري ومسلم.

(4)

قال: فهذه النصوص وغيرها كثير يدل على أن من أهم مقاصد الشرع حفظ الأموال .. وهناك ناحية أخرى قد لا نحتاج معها إلى كل هذا الاستدلال.

قلت: وما هي؟

قال: أيمكن أن تتحقق مقاصد الشرع من الاستثمار والتداول دون الحرص على حفظ الأموال؟

قلت: لا يمكن ذلك، فلا يمكن أن نتداول الخراب، ولا أن نستثمر السراب.

قال: ألا تقولون دائما:(ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)؟

قلت: بلى.

قال: فقولوها في هذا الموضع.

لاح لي أربعة أبواب داخل مدخل باب الحفظ، فسألت معلم السلام عنها، فقال: هذه أبواب التشريعات التي تحفظ الأموال؟

قلت: فما هو التشريع الأول؟

قال: حفظ المال من المختلسين والسارقين .. وكل من يروم أخذه من غير حله.

قلت: والثاني؟

قال: حفظه من السفهاء، ألم تقرأ الآية التي كتبت على لافتة الباب؟

قلت: بلى .. فما الثالث؟

قال: حفظه من المترفين.

4) رواه ابن عساكر.

قلت: والرابع؟

قال: حفظه من الاستغلال.

قلت: أليس الاستغلال هو الاستثمار؟

قال: لا .. الاستثمار أن تستثمر فيما هو لـك، والاسـتغلال أن تستثمر فيما ليس لك.

قلت: فاشرحها لي.

قال: هلم إلى أبوابها.

الاختلاس:

تقدمت من الباب الأول من أبواب الحفظ، فرأيت صورة هي أشبه بصـور المحـاكم، ولكنـه ينتشـر منهـا نـور مضـيء ونسيم عليل يمتلئ سلاما.

سألت المعلم عن هذا الباب، فقال: هذا باب حفظ المال من اختلاس المختلسين .. أتدري من المختلسون؟

قلت: ومن لا يـــدري؟ إنهم الـــذين يمـــدون أيـــدهم إلى الجيوب بخفة ومهارة .. وويل لمن وقع فيهم.

قـال: أولئـك بعض المختلسـين .. أو هم ــ بعبـارة أصـح ـ صغار المختلسين.

قلت: أفيهم الصغار والكبار؟

قال: أجـل .. كبـارهم يختلسـون ويحكمـون .. وصـغارهم يختلسون ويسجنون.

قلت: أرجو يا معلم أن لا تزج بي في متاهات السياسة.

قـال: أنـا لا أزج بـك، ولكنهـا الحقيقـة .. ألم تسـمع عن الملايير التي تختلس؟

قلت: بلى ..

قال: فأين أصحابها؟

قلت: أنت أدرى .. فدعنا منهم.

قال: أتعلم أن أخطر مخاطر الاختلاس أن تحمل أموال الأمة إلى البنوك الأجنبية عنها؟

قلت: لم أسمع أحدا يحرم هذا .. فإن حرموه نظروا إلى كونه ربا .. أو خشوا أن يكون للبنك علاقة باليهود؟

قال: ما أضعف تفكيركم .. لقد رفعتم هؤلاء الحثالة فوق ما تستحق .. حتى حصرتم العداوة فيهم.

قلت: ومن نعادي إن لم نعادهم؟ ألم يقل الله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ (المائدة: 82)

قال: وهو الذي يقول:﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر:6)، ويقول:﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (يوسف:53)

قلت: ولكن اليهود هم الذين اغتصبوا أرضنا.

قال: ولكنكم أنتم بأنفسكم تحملون أموالكم وتضعوها في مصارف غيركم طالبين منهم أن يغتصبوكم بها.

قلت: اشرح لي هذا.

قال: الأصل في المال أن يخدم المجتمع .. ألم تعلم أن صاحب المال مستخلف في المال لا مالك له؟

قلت: أجل هذا صحيح، وقد برهنا عليه في باب الاستخلاف.

قال: فهل يصح لمن كلف بإدارة مصنع يحوي آلاف العمال أن يسرحهم، ثم يحمل ذلك المصنع لبلد آخر، وبعمال جدد، يطلبون أجورا أعلى .. ويدع عمال قومه

يلتهمهم الفقر ..

قلت: هذا لا يصح .. ولا أرى أنه واقع.

قال: بـل هـو الواقـع .. ثم لا تعـالجون هـذا الواقـع إلا أن تطلبوا من هذا المختلس الكبير أن يدفع بعض مالـه زكـاة .. مع أن الشرع طالبه بأن يخرج كل ماله.

قلت: ولكنه يخشى أن يخسر في بلاده.

قال: ألا يقدم مثل هذا المستثمر على مشاريع قد يخـاف الخسارة فيها؟

قلت: أجل.

قال: فليكن هذا من مشـروعاته .. فإنـه إن يخسـر مالـه في بلاده، فيغتني به بعض فقراء قومـه، خـير من أن يخسـر في غير بلاده فيغتني به أعداؤه.

قلت: ولكن بلداننا صغيرة، والاستثمار فيهـا ضـعيف .. ألا تعلم أنا في عهد ملوك الطوائف؟

قال: ولكن بلادكم كبيرة .. ألستم تنشرون في أكثر بقـاع الأرض؟

قلت: بلى ..

قال: فأنا لا أقصد الوطن الضيق الذي عبـدتموه من دون الله.

قلت: فما تقصد؟

قال: أقصـد الـوطن الأكـبر: وطن المسـلمين، أو الـوطن الأكبر منه: وطن المستضعفين.

قلت: وما علاقة المستضعفين بهذا؟

قال: أليست هناك شعوب يفتك بها الجـوع والمـرض من غير المسلمين؟

قلت: بلى.. وما أكثرها.

قال: فهؤلاء المختلسون الكبار يتركون هـؤلاء يموتـون بلا رحمـة، ويـذهبون إلى السـمان غلاظ القلـوب ليسـلموهم أموالهم ونفوسهم ليستعبدوهم بها.

قلت: هذا صحيح، فكثـير من هـؤلاء لا يملكـون التصـرف في أموالهم .. بل يخافون أن تجمد أرصدتهم في كل لحظة.

قال: هذا جزاء وفاق على جرائمهم ..

قلت: ولكنهم مع ذلك يخافون؟

قال: لو خافوا من الله لأمنهم.

قلت: لا .. هم يخـافون من فشـل اسـتثماراتهم في تلـك البلاد.

قال: فلذلك خسف اللـه بهم، فجـاءهم الخـوف من حيث أمنوا، ألم تسـمع قولـه تعـالى: وَيَمْكُـرُونَ وَيَمْكُـرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (لأنفال: 30)؟

قلت: بلى.

قـال: فهـؤلاء مكـروا، فمكـر اللـه بهم .. واسـمع الأخبـار فستأتيك بالعجائب .. فـإنهم إن نجـوا بجلـودهم، ورضـوا من الغنيمة بالإياب، فقد أفلحوا.

قلت: ألديك شيء من أخبارهم .. فإن لي شوقا لاستكناه المستقبل لا أختلف فيه عن بني قومي.

قال: لا يعلم المسـتقبل إلا اللـه .. ولكـني أقـول لـك: إن صراخ كل طفل جائع، وبكاء كل امرأة عليلة، وعطالة كل يد قادرة على العمل والكسب، لن تذهب هدرا .. فقوانين اللــه السـارية في الوجـود لن يعجزهـا أن تطبـق على هـذه الثلـة التي عبثت بمال الله، وحولته إلى أرصدة الشياطين.

قلت: دعنا من الكبار .. ولنرجع إلى الصغار.

قـال: لقـد وضـع اللـه تعـالى من التشـريعات مـا يحفـظ الأموال من النهب والسلب والسرقة، وفي ذلـك دليـل على أهمية حفظ الأموال من عبث العابثين.

قلت: تقصد حد السرقة.

قال: نعم .. هو حـد وضـعه الشـرع لـدرء النفس الأمـارة بالسوء، ليكون عبرة لمن يعتبر.

قلت: ولكنه حد خطير تتقزز النفس من مرآه.

قال: ولكنه علاج.

قلت: كيف يكون علاجا، وهو قطع؟

قـال: ألا يتعامـل جراحـوكم بهـذا المنطـق مـع الأمـراض المستعصـية، فلم يكتفـوا باستئصـال الأيـدي والأرجـل، بـل يجاوزونهـا إلا الكلى والرئـات والمصـارين .. حـتى المخ لم يسلم من سكاكينهم!؟

قلت: أجل.

قال: فهم يجرون العمليات على مسـتوى الأفـراد حمايـة لبعض أعضـائهم من بعض، والشـرع يـأمر بـإجراء العمليـات لحماية أفراد المجتمع بعضهم من بعض.

قلت: ولكنهم ينشـــرون تحـــذيرات شـــديدة من الإســـلام بسبب هذا.

قال: دعوهم ولا تجادلوهم، فإن قصدهم أن تجادلوهم.

قلت: إلى متى نسكت؟

قال: إلى الـوقت الـذي يطلبـون فيـه منكم أن تعلمـوهم أحكام الله في هذا الباب ليطبقوها.

قلت: عجبا .. أذلك حاصل؟

قال: قريبا .. قريبا جدا .

قلت: كيف .. لا أمارة تدل على ذلك.

قال: ألم يكونوا ينكرون الطلاق .. ويسبونكم به، ويشهرون بدينكم بسببه؟

قلت: بلى، ولكنهم الآن شرعوه ..

قال: ألم يكونوا يتعاملون بالربا .. ويبالغون في التعامل به.

قلت: ولا زالوا.

قال: ألا زالوا؟

قلت: أجل .

قال: سيظهر لهم عواره، وسيتوبون منه، كما يتوبون من التثليب عليكم.

قلت: فما تأمرنا قبل ذلك؟

قال: أن تثبتوا على ما أنتم عليه حتى إذا بحثوا عن الحق وجدوكم.

قلت: وما تخشى علينا؟

قال: أن تسمعوا لهم، وتلغوا عقولكم باستماعكم .. وحين يبحثون عنكم لا يجدوكم ..

قلت: وأين نكون حينئذ؟

قال: حينها ستبحثون عن أنفسكم فلا تجدوها ..

السفه:

تقدمت من الباب الثاني من أبواب الحفظ، فرأيت صورة هي أشبه بصور المعتوهين، يريد أحدهم أن يبعثر أمواله، فتأتي يد من السماء تمسكها، وتحول بينه وبين ذلك.

سألت المعلم عن هذا الباب، فقال: هذا باب حفظ المال

من تصرفات السفهاء .. هذا باب قوله تعالى: وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (النساء:5)، وقوله تعالى: وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا (النساء: 6)

قلت: ومن السفهاء؟

قال: الذين لا يستخدمون عقولهم في صرف أموالهم.

قلت: ألمرض عارض؟

قال: لا .. لو كان مرضا لكانوا مجانين، ولما جاز تسليم الأموال لهم إطلاقا.. ولكن هؤلاء لم يتدربوا التدريب الكافي على صرف الأموال، فيحتاجون لمن يقومهم، ويعدل سلوكهم، فإن اعتدلوا سلمت إليهم أموالهم، الم يقل الله تعالى: فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ

قلت: إلى متى يستمر هذا الحجر؟

قال: إلى أن يتدربوا التدريب الكافي على الصرف الحسن للمال.

قلت: ولو أن أحدهم استمر على سفهه، ولم يستطع أن يتدرب.

قال: يستمر الحجر عليه، ما دام اسم السفه عالقا به.

قلت: ألم يخبر ﷺ أن الرجل يسأل عن ماله فيما أنفقه، فكيف يسأل هذا، وقد حجر عليه؟

قال: وقد أخبر ﷺ أن الرجل يسأل عن عمره فيما أفناه، فهل يحرم عليك أن تمنع شخصا أراد إفناء عمره بالانتحار؟

قلت: لا .. بل أمسك على يده، وأمنعه.

قال: فهذا، كذاك.

قلت: وحرية التصرف في المال، أليست الحرية هي منهج الشارع في التعامل مع الخلق، فهو يهبهم حريتهم لينظر كيف يعملون؟

قال: ولكنا عرفنا في الاستخلاف أن المال مال الله، وهو بالتالي مال الجماعة، فلا يجوز للجماعة أن تفرط في مالها بحجة اختباره.

الترف:

تقدمت من الباب الثالث من أبواب الحفظ، فرأيت صورا لطعام كثير، شكله يكاد يقول: (كلوني) لكن تنبعث منه رائحة دونها كلها الروائح المنتنة، تنفر النفس منه، وقد علقت لافتة على الباب مكتوب عليها: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ (الاسراء:16)

فسألت المعلم عن هذه الصورة، فقال: هذا باب الترف، وهو باب قد تحمده العين، ولكن آثاره تظل تلاحقك لتود بعدها لو أن الله رحمك بزكام لا ينقطع.

قلت: قد عرفنا سر الصورة، فما سر الآية؟

قال: هذه آية سنة الله في المترفين.

قلت: ففسرها لي، فإن بعض قومي يتخذها مطية لهجاء القرآن الكريم.

قال: وماذا يقولون؟

قلت: هم يفهمون منها بأن الله إذا أراد هلاك قرية بعث رسالة إلى مترفيها، أو بعث فيهم نبيا يطلب منهم أن يفسقوا فيها لينزل عليهم العذاب، فيدمرهم.

قال: وما جرهم إلى هذه الأغلوطة؟

قلت: قوله تعالى: ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾

قال: فهلا سألوا عن معناها، فإنما شفاء العي السؤال.

قلت: هم بين أمرين: إما أن يكونوا قد سألوا، فوقعوا في محرف زاد الطين بلة، وإما أنهم عرفوا الحق، فستروه، وعمدوا إلى الباطل يظهرونه.

قال: فانشروا الحق الذي أرادوا ستره.

قلت: بالرد عليهم .. فقد رددنا.

قال: الرد جدل، والجدل صراع، انصروا الحق بإخراجه ليراه الناس.

قلت: كيف، لم أتصور أن الرد صراع.

قال: أرأيت لو اتهم بعض الناس امرأة هي في قمة الجمال الذي حباه الله عباده، بالدمامة، فانبرى خطيب يصف جمالها، ويبالغ بالأشعار في وصفه، أكان يغني من الأمر شيئا؟

قلت: لو أنه بدل ذلك أسفرت المرأة عن بعض محاسنها، فرآه الذي اتهمها لتاب من اتهامه، ولعله يتقدم لطلب يدها، أو لعله يموت كالمجنون شوقا إليها.

قال: فكذلك فافعلوا .. لا تضيعوا أوقاتكم في الجدل والصراع .. ودعوا الحقيقة لتخرج للناس حقيقة لا أوهاما .. وسترون كيف يقبل عليها الناس يقبلون يدها، وينحنون أمامها.

قلت: أرانا ـ يا معلم ـ قد تهنا على هذا الباب وحقائقه.

قال: لم نته .. أرأيت لو كنت سائرا في طريق، فاعترضك شوك، أكنت تنزعه، أم تخاف أن يشغلك عن طريقك؟

قلت: بل أنزعه، لأني لو دست عليه لانقطعت عن سيري.

قال: فكذلك ما نفعله، ألم تقولوا:(السكوت عن البيان وقت الحاجة لا يجوز)

قلت: بلى، نحن نردد هذا كثيرا.

قال: فهذا من السكوت الذي لا يجوز.

قلت: فما معنى قوله تعالى: أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا

قال: فماذا قال المفسرون في معنى:(الأمر)

قلت: ذكروا أقوالا كثيرة، تعود إلى هذه الأقوال الثلاثة:

الأول: أنه من الأمر، وفي الكلام إضمار، تقديره: أمرنا مترفيها بالطاعة، ففسقوا.. والثاني: كثَّرنا يقال: أمرت الشيءَ وآمرته، أي: كثَّرته.. والثالث: أنَّ معنى أَمرنا أمّرنا، يقال: أَمرت الرجل، بمعنى، أمّرته.. هذا هو مجمل الخلاف الوارد في الآية .. فما ترجح يا معلم؟

قال: أرجح الأقوال الثلاثة.

قلت: تقصد التوقف .. لأن الأدلة متكافئة .. هذا صحيح، فكل ينصر دعواه بما ورد في اللغة.

قال: بل أرجح الأقوال الثلاثة .. لأن الأقوال الثلاثة تفسر الآية، أو تحاول أن تسمع بعض معاني الآية.

قلت: كيف، فقد اعتدت على أن الترجيح يكون لبعض الأقوال لا لجميعها.

قال: الأصل في الترجيح أن تجمع بين الأقوال لا أن تفرق بينها، لأن كل قول نتاج جهد، ولا ينبغي أن نرمي الجهد دون أن نستفيد منه.

قلت: فما وجه ترجيحك للأقوال الثلاثة؟

قال: هو الصيغة التي وردت بها الآية .. فلو أن الله تعالى

شاء أن لا يفهم من القرآن الكريم إلا القول الأول، لأتى بالمضمر، فقال:(أمرنا مترفيها بالطاعة)، ولو شاء القول الثاني لقال بدل أمرنا:(كثرنا)، ولو شاء القول الثالث لقال بدلها:(جعلناهم أمراء)

قلت: فما الفائدة في الجمع بين هذه الأقوال؟

قال: هذه الآية تبين ثلاثة مواقف إذا وقفها المترفون حاق بهم الهلاك، فهي تبين قانون الله تعالى في عقاب المترفين، وهذا القانون يستند إلى ثلاثة أمور، وتكون العقوبة بحسب اجتماع هذه الأمور او افتراقها.

قلت: فما **الأمر الأول**؟

قال: القانون الأول هو أن الترف يؤدي إلى الفسوق عن أمر الله، ألم يؤمر المترفون بالطاعة، فجنحوا إلى المعصية؟

قلت: بلى.

قال: فهل كان ذلك بإرادتهم؟

قلت: لو كانوا مكرهين لارتفع عنهم التكليف، ألم يقل ﷺ :(إن الله تعالى تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)(1)

قال: بل كانوا مكرهين .. ومع ذلك لم يرفع عنهم القلم.

قلت: أنت تخالف النص بذلك .. بل تخالف الإجماع .. فقد انعقد إجماع الأمة على عدم تكليف المكره .. بل تخالف القرآن الكريم، ألم يقل الله تعالى: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْأِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (النحل:106)

قال: معاذ الله أن اخالف واحدا مما ذكرت .. ولكن نوع

(1) رواه ابن ماجة والطبراني في الكبير والحاكم.

الإكراه الذي وقع فيه هؤلاء من الجنس الذي لا يرفع عن صاحبه العقوبة.

قلت: لقد تحدث الفقهاء عن شيء من هذا، فذكروا الإكراه الملجئ والإكراه غير الملجئ .. فما نوع هذا الإكراه؟

قال: هذا إكراه الترف لصاحبه .. فإن الشهوات إذا تغلغلت في كيان صاحبها تحكم سيطرتها عليه، فلا يستطيع منها انفكاكا.

قلت: هذا صحيح، ونحن نرى الرجل عندنا يدخن ويسرف في التدخين، فإذا نصحه الطبيب بالإقلاع لم يستجب، فإذا أخبره أن في تدخينه تلفه، لم يكد يسمع لقول الطبيب.

قال: فهذا واقع تحت عبودية ما وقع إدمانه عليه.

قلت: أللترف من القوة في نفس صاحبه ما للتدخين؟

قال: بل الأمر أخطر مما تتصور .. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (هود:116)، فقد اتبع المترفون ما أترفوا فيه ولم يتبعوا الرسل.

قلت: لكأن الله تعالى يعتبر المترفين عبادا وقفوا بموازاة الرسل يعارضون دعوتهم.

قال: ذلك صحيح، فللترف من التسلط على أتباعه ما يمنع من رؤية الحق أو الإذعان له.

قلت: لماذا؟

قال: لأن المترف لا يرى من الحياة إلا جانبها الجسدي.. ولا يرى من جانبها الجسدي إلا ما يملأ عليه شهواته التي لا تنتهي، فهو في شغل عن عبادة الله أو الاستماع لأوليائه، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ

يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْـرَبُونَ﴾ (المؤمنـون:33) .. أتعلم السر المودع في قوله تعـالى:﴿ يَأْكُـلُ مِمَّا تَـأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾؟

قلت: لعلهم لم يكونوا يـرون من نـبيهم إلا الطعـام الـذي يأكله، والشراب الذي يشربه.

قـال: نعم .. هـو ذاك، فقـد كـانوا يتصـورون أن معجـزة النبي ينبغي أن تكون طعاما فارها.

قلت: ويكـون كتابـه كتـاب طبخ يـدلهم على أجمـل الوصفات التي ترضي شهواتهم.

ضحك، وقال: هذه هي الحقيقة .. فلذلك تجـد خشـوعهم أمـام من يصـف لهم المطـاعم والمشـارب أعظم من خشوعهم أمام من يؤدبهم بآداب الله، ويهديهم إلى سبيله.

قلت: ألا تعلم أن أغلى المنشورات عندنا هي كتب الطبخ .. وأنها مع ذلك أكثر الكتب انتشارا.

قال: فهل يمكن أن يسـمع شـيئا من اسـتعبدته شـهواته، فصرفته عن الله؟

قلت: ولكن الـترف عنـدنا ــ يـا معلم ــ تجـاوز الأكـل والشرب .. فنحن الآن في مراحل متقدمة من الترف.

قال: وما هي؟

قلت: ترف الأكل والشرب أصبح عادة قديمـة، وهـو على الأقـل تـرف لـه معـنى، ولكنـه نشـأ الآن تـرف يطلـق عليـه (الدلال) أو (الترف للترف)

قال: وما هو الترف للترف؟

قلت: الترف الذي لا يرضي أي شهوة إلا شهوة الترف.

قال: لم أفهم.

قلت: سأضرب لك أمثلة مما توره الصحف عندنا، وهو قليل من كثير.

لقد أوردت بعض الصحف(1) أن:(6000 دولار تنفقها أمريكية لتغسيل ملابسها في مرة واحدة .. وذلك بإرسالها برسالة خاصة إلى باريس إلى مغسلة تعتني بتغسيلها، وذلك في كل مرة تغسل ثيابها بها ..) .. وذكرت هذه الصحيفة أن (أمريكية غيرت رخام منزلها ليتوافق مع لون جلد كلبيها)

وذكرت صحيفة أخرى(2) أن 17 مليار دولار ينفقها الأوربيون وحدهم سنويا لشراء غذاء الحيوانات المنزلية.. في نفس الوقت الذي ذكرت فيه هذه الصحيفة أن 6 مليار دولار تكفي لتغطية نفقات التعليم الأساسي لكل شخص يحتاج إليه في شتى بقاع العالم.

قال: ما سر هذا الغرام الغريب بالحيوانات؟

قلت: لعلهم قرأوا قوله تعالى:﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ ﴾ (لأعراف: 179)، فراحوا يرحمون بني جنسهم.

قال: أهم يطبقون القرآن الكريم إذن؟

قلت: بل القرآن الكريم هو الذي يطبق عليهم.

قلت: وعيت هذا .. فما **الأمر الثاني**؟

قال: الترف أشبه ما يكون بالفيروس الذي ينشر العدوى بين الناس، فلا يكتفي بالأغنياء يستل ما في خزائنهم من ثروات، بل يلجأ إلى الفقراء يستل ما في جيوبهم منها.

قلت: هذا صحيح، فما إن يقدم غني من الأغنياء عندنا على عرف من الأعراف يستحدثه حتى يسرع الفقراء إلى كتب أولادهم ودفارتهم يبيعونها ليشتروا بدلها الترف الذي

(1) المجلة الاقتصادية: 10/4/2000.

(2) مجلة الأسرة، عدد صفر 1420.

ابتدعه الغني.

قال: وما سبب ذلك؟

قلت: التقليد الأعمى .. أو الانبهار ..

قال: هو الترف .. هذا أثر من آثار الترف .. أليس لكل مرض أعراضه؟

قلت: بلى.

قال: فهذا من أعراض مرض الترف.

قلت: لكنه سبب مشاكل عظيمة في حياة الناس حتى أن الصحف نشرت أن 13 مليون شاب في مصر بلغوا سن الزواج ولا يستطيعون تدبير نفقاته، وأن مليون ونصف المليون شاب عقد قرانه ولا يستطيعون البناء في مصر.

قال: وما سبب ذلك؟

قلت: هو ما نشرته الصحيفة نفسها، فقد ذكرت أنه من 100 -250 ألف جنيه تكلفة بعض الأعراس في مصر، وذكرت أن 60 ألف درهم تكلفة بطاقات دعوة (في دبي).

ألا تعلم يا معلم: أن 1.5 مليار دولار تنفقها المرأة الخليجية على مستحضرات التجميل(1)؟

قال: ولماذا لم تنشروا معاني الزهد لتقضوا على مظاهر الترف؟

قلت: ولكن المجادلين سيملأون الدنيا ضجيجا بتجريم الزهد، ليودعوه بعدها السجون والزنازن.

قال: ولماذا لا يودعون الترف هذه السجون؟

قلت: لأن النص يدل على استحبابه.

قال: أي نص .. ألا ترى النصوص تحرمه؟

---

1) مجلة الوطن 5/4/1422..

قلت: إيجاد النصوص والتلاعب بها ليس صعبا، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (القصص: 77)،وقوله: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (لأعراف: 32)، وقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾ (الكهف: 7) .. وقوله: ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (الكهف: 28) .. وقوله: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (الكهف: 46) .. وقوله: ﴿ مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ ﴾ (طه: 87)

قال: ما بالك تقطع القرآن الكريم تقطيعا يحرف معناه، ويغير حقائقه.

قلت: يا معلم لا تلمني، فأنا أحكي ما يفعلون وما يفهمون، وليس على من روى ذنب.

قال: أتعلم النصوص القرآنية الدالة على هذه السنة الاجتماعية: سنة تقليد الصغار للكبار، والمعوزين للمترفين؟

قلت: لعلك تقصد قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً ﴾ (سبأ: 31 ـ 33)

قال: نعم .. وآيات كثيرة .

قلت: ولكن المستكبرين يتبرأون من التأثير في المستضعفين؟

قال: هذا صحيح.

قلت: ولكن .. لماذا يرمي المستكبرون المستضعفين؟

قال: هم لا يرمونهم في الحقيقة، وإنما يرمون استضعفاهم وتقليدهم واتباعهم الأعمى، وبيعهم دينهم بدنيا غيرهم .. ألا تعلم أن الشعور بالضعف هو أخطر الأمراض،

بل هو الأرضية التي على أساسها تقبل الأمراض؟

قلت: كيف؟

قال: ألم يقل الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (النساء:97)

قلت: لقد سماهم الله تعالى ظالمي أنفسهم، وسموا أنفسهم مستضعفين.

قال: ولو سموا أنفسهم:(ظالمي أنفسهم) لسماهم الله تعالى:(مستضعفين)

قلت: كيف؟ وما الفرق؟

قال: المستضعف الحقيقي يبحث عن كل أرض، ويمارس كل سبب، لكن الظالم لنفسه يقعد به كسله وشعوره بضعفه عن عن أي سبب ولا يعتل لذلك إلا بضعفه.

قلت: وعيت هذا .. فما **الأمر الثالث**؟

قال: التسلط.

قلت: هذا صحيح، فمن معاني (أمرنا) أمَّرنا.

قال: هذه الآية تبين سنة اجتماعية أخرى يفرزها الترف، وهي تسلط المترفين على المستضعفين.

قلت: بالسيف؟

قال: لا بالترف.

قلت: كيف ذلك، لم أسمع أن حاكما تربع على العرش، وجعل وسيلته إلى ذلك ترفه.

قال: هو لم يجعل .. ولكن الاستضعاف الذي امتلأت به نفوس العامة، أو انتشار فكر الترف بين العامة أعماهم عن

الصالحين، فلم يروا صالحا للحكم غير المترفين، ألم تسمع قوله تعالى عن الطريقة التي تربع بها فرعون على العرش: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف:54)؟

قلت: لقد ربط تعالى بين استخفافه وفسقهم.

قال: لولا فسقهم، ما استخفهم.

قلت: ولكن لماذا يتسلط المترفون على أموال الشعب .. ألا يكفيهم ما هم فيه من ترف؟

قال: المترف يرى كل شيء ملكا له، ولذلك إذا استبدوا بالحكم جعلوا من أموال الشعب اموالا لهم يهبونها لمن شاءوا، ويبنون بها ما شاءوا، ألم تسمع الصلات الضخمة التي كانت توهب للشعراء من الخلفاء والوزراء؟

قلت: بلى، ونحن نستدل على ذلك بكرم الخليفة والوزير، ولا نزال نروي أن المعتصم بن صمادح وهب قرية بأكملها للشاعر أبي الفضل جعفر بن أبي عبد الله بن مشرف حينما أنشده قصيدته التي مطلعها:

قامت تجر ذيول العَصْبِ والحِبَرِ ضعيفة الخصر والميثاق والنظَر

ولما بلغ منها قوله:

لم يبق للجور في أيامهم أثر إلا الذي في عيون الغيد من حَوَرِ

قال المعتصم:(لقد أعطيتك هذه القرية نظير هذا البيت الواحد) ووقع له بها، وعزل عنها نظر كل وال(1).

قال: وتغفلون عن الرعية الجائعة.

قلت: إلا من كان منها من له القدرة على نظم الشعر،

(1) ابن بسام، الذخيرة: 4 1/192.

أو امتلك من البيان ما يسحر به الخلفاء والوزراء والقادة.. ولكن مع ذلك، فقد أنكر العلماء ما وقع فيه الحكام، فهذا ابن حزم يقول:(اللهم إننا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب، عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم، وبجمع أموال ربما كانت سبباً في انقراض أعمارهم وعوناً لأعدائنا عليهم عن حاجة ملتهم حتى استشرف لذلك أهل القلة والذمة، وانطقت ألسنة أهل الكفر والشرك)(1)

قال: ألا تخافون أن يحيق بكم ما حاق بالمترفين من هلاك؟

قلت: ولكنا من الأمة المرحومة.

قال: سنة الله مع خلقه واحدة، ألا تعلم أن الله (عدل)

قلت: ولكن النصوص وردت برحمة هذه الأمة.

قال: لماذا تأخذون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، ألم يكن ﷺ يخشى على أمته عواقب الترف، فقد قال ﷺ:(والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم)(2)

قلت: ولكنا لم نهلك، مع أن الترف منتشر عندنا، ويحكمنا المترفون ..

قال: أتستعجل عقوبة الله؟

قلت: بل أبحث عن مصاديق سنن الله.

قال: فسر في الأرض .. لترى سنن الله.

---

1) ابن حزم، رسائل ابن حزم 3/14 .

2) رواه البخاري ومسلم.

قلت: وعيت هـذا.. لكن أيحجـر على المـترفين، لقـد ورد في القـرآن الكـريم الحجـر على السـفهاء، ولم أجـد الحجـر على المترفين؟

قـال: وهـل تتصـور هـذا الـذي يبحث عن حتفـه بظلفـه رشيدا.

قلت: لا .. الرشيد يبحث عن حياته لا عن حتفه.

قـال: فهـؤلاء بسـبب غـرقهم في الـترف، يبحثـون عن حتفهم.

قلت: فبم تنصحنا؟

قال: احجروا على مترفيكم كما تحجرون على سفهائكم.

قلت: كيف؟ أتريدنا أن نحجر على شعوبنا؟

قال: إن وقعت جميع شعوبكم في الترف، فاحجروا عليها تشريعا قبل أن يحجر عليها الله تعالى تقديرا.

قلت: فكيف نحجر عليها؟

قال: غيروا صياغة كل طلب يرسل لطلب سـلعة بسـلعة أخرى؟

قلت: كيف ذلك؟

قال: سمعت أنكم تبالغون في استيراد السجائر.

قلت: أجـل، فالسـعودية وحـدها تسـتورد مـا قيمتـه 1.1 مليار ريال، وهي تعادل 14.4 ألـف طن من السـجائر، منهـا 10 آلاف طن تستورده من أمريكا، بقيمة 895 مليون ريال، ومنهـــا 3 آلاف طن بقيمـــة 173.5 مليـــون ريـــال من بريطانيا(1) حتى قال سعد الدوسري:(كنا ندخن سـبعة آلاف طن، وصـرنا نـدخن 14 ألـف طن بزيـادة قـدرها 100 %

(1) المجلة الاقتصادية 26/7/1422.

والمستفيد الأكبر أمريكا وبريطانيا)(2)

قال: فهذه المبالغ الضخمة التي ترسل إلى هذه الشركات الآثمة غيروا اتجاهها.

قلت: إلى أين؟

قال: إلى مصانع الفؤوس والمعاول.

قلت: لم؟ .. وما الحاجة إليها؟

قال: لتعمروا بلادكم، فبلادكم لا يعمرها الدخان، وإنما تعمرها الفؤوس والمعاول .. وصحراؤكم لا يحييها اللهيب الذي تنفخه سجائركم، وإنما يحييها النشاط الذي تبعثه فؤوسكم.

الاستغلال:

تقدمت من الباب الرابع من أبواب الحفظ، فرأيت صورة لرجل جلد قوي يجري وراء صبية صغار يحبون ليسرق حليبهم، وهم يتضاغون من الجوع، فلا يرحمهم .. ثم يغسل بالحليب الذي سرقه منهم يديه ورجليه ويرمي الباقي منه في بركة صغيرة .. ثم يرمي نفسه يسبح فيها.

فقلت للمعلم: ما هذه الصورة؟

قال: هذه صوركم.

قلت: معاذ الله أن تكون هذ صورنا .. كيف هذا؟

قال: هذه صورتكم التي تسترونها، وتلحون في سترها، ولكن الحقيقة تأبى إلا أن تفضحكم.

قلت: كيف تكون هذه صورتنا، ونحن الذين نهتم بالطفولة، ونرعاها، ونؤسس لها دور الحضانة ونخترع لها كل يوم من الألعاب ما يجعلها تعيش جنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

---

2) المجلة الاقتصادية 26/7/1422.

قـــال: أنتم تكـــذبون عليهـــا، وتكـــذبون على أنفســـكم، وتكـذبون على كـل الأجيـال الـتي تـأتي بعـدكم، ولا تكتفـون بالكذب، بل تضمون إليه السرقة والغصب.

قلت: كيف؟

قال: لقـد أودع اللـه ثـروات في الأرض تكفي لكـل فـرد فيها إلى قيام الساعة.

قلت: هذا صحيح .. خاصة إن حددنا نسلنا.

قال: الله أكرم من أن يأمركم بحد نسلكم، فرزقه وفـير، وخيره كثير.

قلت: فكيف نغتصب إذن ما ليس لنا؟

قال: أنتم تغتصبون ثروات الاجيال التي تأتي من بعــدكم، لتجعلوا منها بركا ترضي غرامكم بالسباحة.

قلت: فسر لي يا معلم، فإني لا أكاد أفهم.

قال: هذا النفط الذي ظهر بأرضكم .. أهـو ممـدود لا حـد له .. أم مصيره إلى النفاذ؟

قلت: بل هو محدود .. ومحـدود جـدا .. ولـذلك نسـمعهم يتحدثون عن احتياطي البترول.

قال: فكونه محدودا يعني أن له نهاية ينتهي إليها.

قلت: أجل .. فلا فرق بينـه في ذلـك وبين مـا يخـزن من طعام، بل إنه في هذه الناحية أقل من الطعام قدرا.

قال: لم؟

قلت: لأن الطعام يمكن استنباته وزرعه ليعطينـا أضـعافا مضاعفة .. أما البترول، فلـو زرعنـاه لأنبت لنـا التلـوث، ولم يعطنا قطرة بترول واحدة.

قال: أهذا البترول الذي وجد على أرضكم لكم خاصة، أم

لكل من يسكن هذه الأرض التي تسكنونها؟

قلت: ما تقصد؟

قال: هل هو لكم خاصة .. أم هو لأحفادكم وأحفاد أحفادكم؟

قلت: هو لنا ولأحفادنا .. لا ينبغي أن نستأثر به دونهم.

قال: فأنتم تستأثرون به .. ألستم تبالغون في الإنفاق من هذا الكنز؟

قلت: كيف؟

قال: أنتم تنفقون منه مئات أضعاف ما تحتاجونه، ثم تنفقون ما تنفقونه منه في تنمية تخلفكم.

قلت: هذا صحيح، فنحن نتعامل مع البترول بإسراف.

قال: أنتم تتعاملون معه كما يتعامل ذلك الأبله الذي يسرق حليب الرضع ويتركهم يتضاغون من الجوع.

قلت: ولكن البترول ليس حليبا .. أتتصور أنه يمكن أن نصنع من البترول حليبا!؟ .. هذ فكرة جيدة.. سأطرحها على قومي.

قال: دعك من هذا .. فالغذاء ما خلقه الله، لا ما تصنعونه من سموم.

قلت: ففسر لي ما تقول؟

قال: الحليب رزق الله لهؤلاء الرضع .. وأنتم تعتدون عليه من غير حاجة.

قلت: ولكنه وجد في أرضنا.

قال: ولكل من وجد في أرضكم.

قلت: أليس من قتل قتيلا استحق سلبه، ومن أحيا أرضا

مواتا فهي له.

قال: لا .. هي له يستغلها وينتفع بها لا ليستأثر بها دون غيره من خلق الله، ألم تعلم حقيقة الاستخلاف؟

قلت: تعني أن ننتفع دون أن نتملك.

قال: نتملك تملكا مجازيا .. لا حقيقيا .. فالمال مال الله.

قلت: ولكن لا نستطيع أن نفرض على أي شخص أن لا يتمتع بماله، بحجة تركه لعياله.

قال: فسجلوا هذا في كتب فقهكم.

قلت: ولكن كتب الفقه التي ندرسها وندرسها لا تتحدث عن البترول.

قال: فاكتبوا كتبا جديدة عن فقه البترول.

قلت: ولكن البترول بيدهم؟

قال: ولكن الأقلام بأيديكم .. اكتبوا فلعل الله يخرج من أصلابهم من يقرأ ما تكتبون .. أو لعل لله يبارك في المداد الذي تكتبون به، فيرسل نفحات عطر تجذبهم إلى قراءة ما تكتبون.

قلت: هذه فكرة جيدة .. فللمترفين غرام عجيب بالعطور .. فلنصطدهم بها.

قال: اصطادوهم بثباتكم وعفافكم وزهدكم، أما العطور، فالشياطين أبرع في صناعتها منكم.

بعد أن قال ذلك فتح لنا الباب .. لكنا ما إن سرنا قليلا حتى رأيت بابا عجيبا، قد علقت عليه صورة لرجل يلوح النور في وجهه، يتحرك حركات منتظمة دقيقة على صراط معتدل مستقيم، وكلما لاح له شيء يريد أن ينحرف به عن مساره فتح كتابا كان يحمله لينظر ما فيه، ثم يستمر على سيره.

وكان الصراط دقيقا جدا .. لعله أدق من الشعرة، وأحد من السيف .. فلذلك كان يسير، وفي قلبه خوف من أن يحيد قيد أنملة، فيقع أسفل ذلك الصراط .. وهو حيات وعقارب.

سألت المعلم عنه، فقال: هذا باب الورع، وهو أول باب من أبواب الشرعية .. لا يحل دخول مدائن السلام إلا منه.

قلت: فمن هذا الرجل الذي على هذه الصورة.

قال: هذا رجل منكم امتلأ ورعا، فراح يحمل جميع حركاته على هدي الله، فلا يحيد عنه قيد أنملة.

قلت: ليت المسؤولين عن هذه المدينة يعلمون مدى إخلاصه فيرحموه من هذا السير.

قال: وأين يضعونه؟

قلت: في مكتب من المكاتب.

قال: لو كان الأمر إلي لأغلقت جميع مكاتبكم، أو حولتها مصانع ومخابر .. أو حولتها دورا للذين يفترشون الأرض في الشوارع.

قلت: والمسؤولون .. أين سيجلسون؟

قال: مع العمال .. يعاينون جهودهم، ويعينونهم فيها.

قلت: ليس الأمر بهذه السهولة يا معلم .. فهم لا

يستطيعون التفكير في قاعات غير مكيفة.

قال: التكييف يخدر عقولهم.

قلت: ويريح أجسامهم.

قال: الجسم الذي لا يتعب لا يعرف الراحة .. الراحة نعمة من الله يمن بها على من يعانون ويجتهدون.

قلت: ولكن هذه مثالية.

قال: بالورع تصير واقعية.

قلت: إذن نحن دخلنا باب الحديث عن الورع من غير أن نشعر ..

قال: قل: من غير أن أشعر، فليس من الورع أن تعبر بلسانك عن مشاعر غيرك.

قلت: هذا أيضا من الورع في التعبير .. لقد قرأت بأن الورع يدخل كل باب.

قال: وبالورع ينفتح كل باب ..

قلت: فما أول الأبواب؟

قال: **باب السماء** .. ألم تسمع ذكره ﷺ:(الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء:(يا رب يا رب) ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك)(1)، فمع أن هذا الرجل الذي ذكره ﷺ قد أتى بجميع ما يتطلبه من الدعاء من تواضع وتبذل ومسكنة إلا أن الله تعالى لم يستجب له، لتساهله في الحرام، وعدم تورعه عنه.

قلت: ذكرتني بقول بعض السلف:(لا تستبطيء الإجابة وقد سددت طرقها بالمعاصي)، وقد أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال:

---

1) رواه مسلم.

نحن ندعو الإله في كل كرب   ثم ننساه عند كشف الكروب

كيف نرجو إجابة لدعاء   قد سددنا طريقها بالذنوب

قال: فهـذا أول بـاب يفتحـه اللـه على من آثـر اللـه على المتاع الزائل.

قلت: فما الباب الثاني؟

قال: **باب البركة** .. ألم تعرف باب البركة؟

قلت: بلى .. مررنا سابقا على بابها.

قال: فكيف وجدته؟

قلت: بابا طيبا تجتمع الخيرات فيه، بل تتضاعف.

قال: فالورع من مفاتيحه .. ألم تسمع قوله تعالى: وَلَـوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَـوْا لَفَتَحْنَـا عَلَيْهِمْ بَرَكَـاتٍ مِنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِـبُونَ (لأعـراف: 96)

قلت: فما الباب الثالث؟

قال: **باب العزة**.

قلت: العزة! .. ما العزة؟

قـال: الـرأس الـذي لا يعـرف الانحنـاء إلا في الركـوع .. والجبهة التي لا تطأ الأرض إلا في السجود.

قلت: وما علاقة الورع بالعزة.

قال: من تورع عن أموال النـاس لم يضـطر إلى الانحنـاء لهم.

قلت: ومن يدخل هذا الباب؟

قال: هـذا بـاب العلمـاء الـذين رأوا العلم أشـرف من أن يبتذلوه أمام أبواب السلاطين.

قلت: أتقصد علماء قومي.

قـال: أقصـد من يفعـل ذلـك من علمـاء قومـك .. أقصـد الذين خـاطبهم الفضـيل بقولـه:(كنتم معشـر العلمـاء سـرج البلاد يستضاء بكم، فصرتم ظلمة، وكنتم نجوما يهتــدى بكم، فصـرتم حـيرة، ثم لا يسـتحي أحـدكم أن يأخـذ مـال هـؤلاء الظلمة، ثم يسند ظهره يقول: حدثنا فلان عن فلان)

قلت: لكنه قال:(لأن أطلب الدنيا بطبل ومزمار أحب إلي من أن أطلبها بالعبادة) فكيف يقـول هـذا: ألم يعلم مـا قيـل في الطبل والمزامير؟

قال: انصـح الـدجالين من متعـالمي قومـك بـأن يشـتروا طبولا ومزامير، فهي خـير لهم من بيـع الـدين بالـدنيا، أليس للطبل عندكم سوقا؟

قلت: بل أسواقا.

قال: فلأن يأتوا يوم القيامة مع الطبالين والزمارين، خــير من أن يأتوا مع الأحبار والرهبان.

قلت: كيف؟

قال: ألم يقل الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْـوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِـلِ وَيَصُـدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (التوبة: 34)

قلت: وهؤلاء هم الذين قال فيهم عبد الله بن المبارك:

وهل أفسد الدينَ إلا الملوكُ   وأحبارُ سوء ورهبانُها

قال: فهل هذه حقيقة أم دعاوى؟

قلت: لكن يا معلمي .. لقد وجد فقهاؤنا لكل مـا يفعلونـه مخارج من الشرع نفسه.

قال: هي مخارج كمخارج أهل السبت ..

قلت: هم أهل السبت .. لكننا أهـل الجمعـة .. ونحن أمـة مرحومة.

قال: كف عن هذا .. فإن الله العدل لا يفـرق في حسـابه بين أهــل السـبت وأهــل الجمعــة .. فــالخلق كلهم ســواء ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَـلْ سُـوءاً يُجْـزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّـاً وَلا نَصِـيراً﴾ (النسـاء:123).

بعد أن قال ذلك فتح لنـا البـاب .. لكنـا مـا إن سـرنا قليلا حتى رأيت بابا عجيبا، قـد علقت عليـه صـورة لنفس الرجـل السابق .. الرجل الذي يلوح النور في وجهه، والـذي يتحـرك حركات منتظمة دقيقة على صراط معتدل مسـتقيم، وكلمـا لاح له شيء يريد أن ينحرف بـه عن مسـاره فتح كتابـا كـان يحمله لينظر ما فيه، ثم يستمر في سيره.

ولكني لم لم أر الصراط دقيقا جدا كمـا رأيتـه في البـاب السابق، صـحيح أنـه أدق من الشـعرة، وأحـد من السـيف .. ولكن الكتاب الذي كان يحمله يحول من ذلك الضيق مساحة تستغرق الأرض جميعا.. بل تحتوي الكون جميعا ..

فلذلك لم أر الرجل خائفا، ولا وجلا .. بل إنه يكـاد يـرقص على ذلك الحبل الدقيق من عظم اتساعه.

سألت المعلم: أرى أن الذي رسم هذه الصورة لم يقصد إلا معارضة رسام الصورة السابقة.

قال: التعـارض في أرض الصـراع، لا في أرض السـلام .. المسالم لا يعارض أحدا.

قلت: كيـف هـذا؟ إن أبسـط عاقـل يـرى التعـارض بين الصورتين.

قال: عندما يعزل العاقـل عقلـه، فـيرى الأشـياء بعينـه، لا بعين الحقيقة يرى التعارض.

قلت: أأنا الآن أعزل عقلي؟

قال: ما أكثر ما تعزلون عقولكم ..

قلت: ولكنها معنا.

قــال: هي معكم .. ولكنكم لا تســتخدمونها .. أنتم كتائــه في الصحراء لا ينظر إلى الهـداة ولا يسـتمع لهم .. ثم يظـل

حزينا لأن الصحراء تلتهمه برمالها.

قلت: بين لي كيف ينتفي التعارض بين الصورتين.

قال: إن نفرا من قومك قـرأوا مـا في الـورع من فضـل، فضيقوا به ما وسـع اللـه من دينـه، ولم يـروا في الـدين من ألفاظ إلا ألفاظ (الباطل والحرام)

قلت: ولكن هذه الألفاظ موجودة.

قال: ولكنها محدودة.

قلت: فلماذا لا نجعل الأصل الحذر من وجودها لنتقيها؟

قــال: لأنــك لــو فعلت ذلــك لم تقــدم ولم تتحــرك ولم تتطور ..

قلت: بلى .. التدريب يقتضي التطوير، والتطـوير يقتضـي التحرك، والتحرك يقتضي التغيير.

قال: ونفر من قومك يعتـبرون التغيـير محـدثا، ويعتـبرون كل مجدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

قلت: هذه حقيقة نطق بها رسول الله ﷺ، فقد قال:(من أحدث في أمرنا هذا، فهو رد)(1)

قال: لكن ذلك في أمور الدين، لا في شؤون الدنيا.

قلت: أتقصد أن نبيح كل التعاملات لكي نتطور.

قال: التعاملات الإنسانية التي يقرها العقـل، ولا يعارضـها الشرع.

قلت: وهم لا يتكلمون إلا فيما يعارضه الشرع.

قال: الشرع يضع الضوابط، ويحد الحدود، ويـترك الحيـاة بعد ذلك تسـير في مسـاحة واسـعة من الاختيـارات، ألم تـر الرجل الذي في الصورة كيف يسير في مساحة تسع الكون

(1) رواه البخاري وغيره.

مع أنها في نظر العقول الضيقة أحد من السيف وأدق من الشعرة.

قلت: إذن الصورة ترمز إلى هذا المعنى.

قال: إن رحمة الله التي وسعت كل شيء تأبى أن تختبر عباد الله بما هو أدق من الشعرة، وأحد من السيف، ألم تقرأ ما ورد في أوصاف رسول الله ﷺ الذي هو قدوة العلماء في بيان أحكام الشرع؟

قلت: بلى .. فقد وصفه الله تعالى بالرحمة والرأفة بالخلق، فقد قال تعالى فيه: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:128)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الانبياء:107) .. وقد قال ﷺ عن نفسه:(إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً)(1)

قال: فهل كان ﷺ يتخير التشديدات ليعاقب بها أمته؟

قلت: كلا .. بل كان رحمة مهداة، يقول فيه الحق تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (لأعراف:157).. وكان ﷺ يقول عن نفسه:(بعثت بالحنيفية السمحة)(2)

قال: فالتوسعة على الناس أصل من أصول الدين، وسنة من سنن رسول الله ﷺ .

قلت: يا معلم .. ولكن ما علاقة هذا بما نحن فيه؟

---

1) رواه مسلم.

2) رواه أحمد والطبراني.

قـال: ألم تعلم أن السـعي الجـاد للخـروج من التخلـف يستدعي ـ أول ما يستدعي ـ الشرعية؟

قلت: أجل، فقد عرفنا ذلك.

قال: وهذا يستدعي اللجوء إلى العلماء للبحث عن أحكام الله.

قلت: هذا صحيح، فالورع هو الـذي يـراعي خطواتـه، أين يضعها؟

قال: ولكن الذين لا يدركون سماحة الشريعة ورحمتهـا لا يـرون من الأحكـام إلا جانبهـا التشـديدي، فيمنعـون من كـل نشاط، ويوقفون كل حركة، ويمنعون كل تطور.

قلت: فاضرب لي أمثلة على ذلك.

قال: لو ضربت لك الأمثلة لعرفت من نقصـد .. والناصـح ينصح ولا يفضح.

بعد أن قال ذلك فتح لنا الباب .. لكنا ما إن سرنا قليلا حتى رأيت بابا عجيبا، قد علقت عليه صورة لرجل ينظر إلى ما حوله .. ويحد البصر .. ولا يتحرك حركة حتى يحسب لها كل حساب.

فسألت المعلم عنه، فقال: هذا رمز الإنسان الواقعي الذي يعيش واقعه ولا يتيه عنه بالأحلام، ولا بالخيال، ولا بالواقع الذي قد مضى، ولا بالمستبقل الذي لا يزال في رحم العدم.

قلت: ولكن الفقهاء يستمدون علومهم من الماضي، فكيف لا ننظر إلى الماضي، وهم يتوقون لتحقيق المثل، فكيف يجمعون بين الواقع والأحلام؟

قال: ومن قال بأن ما ورد في النصوص المقدسة ماض .. إنها تخاطب الماضي والحاضر والمستقبل.. هي خطاب الله .. وخطاب الله لا يؤثر فيه الزمان.

قلت: ولكنها نزلت في الماضي.

قال: ولا تزال تتنزل .. ألم تسمع بأن الفهم الحقيقي لها يتطلب سماعها لا قراءتها .. سماعها يجعلها تأمرك وتنهاك .. وقراءتها تجعلك تفسرها بالوقائع التاريخية لتنزلها على غيرك لا على نفسك.

قلت: هذا صحيح .. فالله يخاطب الأجيال لا جيلا واحدا .. بل إنه يتحدث عن المستقبل بصيغة الماضي .. فلا معنى للزمن عند الله .. ولكن ما علاقة الواقعية بهذا الباب؟

قال: أحكام الله ثابتة، ولكن تطبيقها تتغير صوره بتغير الواقع .. فما أبيح هنا قد يحرم هناك.

قلت: لا أفهم هذا، فكيف تكون ثابتة، ثم هي في نفس الوقت متغيرة.

قال: هي ثابتة ثبات الأصول، متغيرة بتغير الحوادث ..

قلت: اشرح لي هذا، فإني لا أكاد أفهم هذا التعارض.

قال: إذا قصدت وجهة معينة، فإن طلب الوجهة مستقر في نفسك .. أليس ذلك؟

قلت: بلى.

قال: ولكن طريق الوجهة قد يحوي منعرجات ومنحدرات وعوائق، فهل تسير فيها جميعا سيرا واحدا؟

قلت: لا .. بل ألبس لكل حالة لبوسها.

قال: فكذلك أحكام الشرع، مقاصدها ثابتة لكن تطبيقاتها تختلف باختلاف مطبقيها.

قلت: أجل، بل إنهم وضعوا لذلك قاعدة فقهية تقول:(لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان)(1)

قال: ولكنكم تخطئون كثيرا في تطبيق مثل هذه القواعد، وفي تبرير الواقعية، فتجعلونها أحيانا وسيلة للإفلات من الأحكام الشرعية، ومن مقتضيات الورع.

قلت: كيف هذا؟

قال: ألم يفت متأخروكم بجواز إغلاق أبواب المساجد في غير أوقات الصلاة(2) مع أن مكان العبادة ينبغي ألا يغلق، بل يظل مفتوحا لكل قاصد من ليل أو نهار؟

قلت: إنما جوزوا ذلك صيانة للمسجد من السرقة والعبث.

قال: أفلم يجدوا من الحلول غير إغلاقها؟

قلت: هذا أيسر الحلول .. فذلك خير من أن يتداولوا على

---

1) انظر: القواعد الفقهية للشيخ أحمد الزرقا ص227.

2) انظر: الوجيز في القواعد د.البورنو ص255.

حراستها أو يكلفوا من العمال من يقوم بحراستها.

قال: ولكني أرى أسواقكم ومحالكم تفتح ليل نهار؟

قلت: تلك معايشنا لا بد لنا منها.

قال: لو فكـرت في دينكم مثـل مـا تفكـرون لمعايشـكم لضمنتم الدين والدنيا.

قلت: فما تنصحنا؟

قال: أبواب الله مفتوحة، ويده مبسوطة لخلقه كل حين، فافتحوا مساجدكم يفتح الله عليكم.

قلت: وهل نخطئ في غير هذا؟

قـال: أحيانـا كثـيرة .. عنـدما جـاءتكم الإشـتراكية جعلتم دينكم إشـــتراكيا، وعنـــدما جـــاءت الرأســـمالية حولتمـــوه رأسـماليا، وعنـدما جـاء من يحـذركم من الجهـاد ذهبتم إلى آيات الجهاد تمحونها من مقرراتكم، وأخشـى إن جـاءكم من يدعوكم إلى الإلحاد، أن تمحوا اسم (الله) من وجودكم.

قلت: فبم تنصحنا؟

قال: ارفعوا الواقع .. ولا تنزلوا إليه.

قلت: كيف؟

قال: أثروا فيه .. ولا تدعوه يؤثروا فيكم.

قلت: كيف .. لا أزال أحتاج توضيحا.

قال: اصنعوا واقعكم، ولا تدعوه يصنعكم.

قلت: وما الفرق بين صناعتنا له، وصناعته لنا.

قال: إذا صنعتموه تناسب مع طبائعكم ودينكم وكمـالكم، وإذا صنعكم عجنكم بالقوالب التي صنع بها، فالواقع لا بد أن يصنعه بشر .. فإما أن تكونوا أنتم الصانعون، وإما أن تكونـوا

مجرد لبنات من صنع غيركم.

بعد أن قال ذلك فتح لنا الباب .. لكنا ما إن سرنا قليلا حتى رأيت بابا عجيبا، قد علقت عليه صورة لرجل مستغرق في التأمل، يشعر بكل ما حوله، ولكنه في تأمله يبدوا كغائب عن كل ما حوله.

فسألت المعلم عنه، فقال: هذا رمز الاجتهاد.

قلت: لا أفهم رمزية هذا الرمز .. فهل هذا يبصر كل ما حوله .. أم هو غائب عن كل ما حوله .. هل هو خليط في الواقع .. أم هو مميز عنه .. هل هو معتزل كاعتزال المفكرين، أم هو مخالط للعامة والدهماء؟

قال: هو ذلك جميعا.

قلت: إن رسامي مدينتكم يتقنون فنون المتناقضات.

قال: من لم تكن له القدرة على التنسيق بين المتناقضات وفهمها لا يعيش السلام، ولا يرى السلام، ولا يحلم بأن يرى السلام.

قلت: كيف؟

قال: لأن السلام تتناسق فيه الموجودات ولا تتناقض .. وتتسالم ولا تتصارع ..

قلت: يا معلم اسمح لي، فقد أخطأت خطأ لغويا.

قال: وما هو؟

قلت: أنت قلت:(تتسالم) لتشاكله مع قولك (تتصارع)، وهذا غير صحيح في اللغة، فيجوز أن تقول:(تتصارع)، ولا يجوز لك أن تقول (تتسالم)

قال: ولماذا أجزتموه في الصراع، ولم تجيزوه في السلام؟

قال: هكذا نطقت العرب؟

قال: أكلام العرب وحي يوحى لا يجوز خلافه، أو لا يجوز القياس فيه، أو لا يجوز استنباط الألفاظ منه؟

قلت: في ذلك خلاف.

قال: فاجتهدوا أن ترفعوا الخلاف، فاللغة الحية لا ينبغي أن تميت نفسها بالتقليد.

قلت: فقد دخلنا إلى الحديث عن الاجتهاد في الشريعة من باب الاجتهاد في اللغة.

قال: الاجتهاد في الشريعة يقتضي الاجتهاد في كل شيء.

قلت: كيف؟

قال: سلف هذه الأمة الصالح تناولوا من الحضارات الأخرى، فطبعوها بطابعهم، ولم يأخذوها كما أخذتموها أنتم بحلوها ومرها وخيرها وشرها حتى ألسنة من أخذتموها منه ترطنون بها في دوركم وأسواقكم وجامعاتكم، وتفخرون بها ولا تفخرون باللغة التي حملت كتاب ربكم.

قلت: هذا صحيح .. ولكن ما علاقة هذا بالاجتهاد التشريعي؟

قال: هذا ميدانه .. فالشريعة لا نبحث عن أحكامها فقط، بل نحاول أن نطبق أحكامها بالبحث عن الكيفيات المناسبة والبدائل الصحيحة.

قلت: ولكن المجتهد في الشريعة يشبه المراقب، فدوره يقتصر على استنباط أحكام النوازل ليبين صحتها أو بطلانها، أو موافقتها للشريعة أو مخالفتها.

قال: المجتهد في الشريعة هو الذي لا يقول عن شيء: (إنه باطل) حتى يضع له من البدائل ما يجعل في الخلق شعورا باستغنائهم عن ذلك الباطل القليل إلى الحق الكثير

الذي اجتهد المجتهد في البحث عنه.

قلت: ولكن ذلك قد لا يكون ميدان اختصاصه.

قال: فكيف يتكلم في شيء لا علاقة له به.

قلت: هو مستشار في ذلك.

قال: إنكم تعبرون عن الفقهاء بأنهم أطباء، وأن الناس في التجائهم إليهم كالمرضى.

قلت: أجل.

قال: أرأيت لو ذهبت إلى طبيب، أفيكتفي بإخبارك باسم مرضك، ثم يصرفك عنه، أم يعطيك العلاج؟

قلت: إن لم يعطني ما أعالج به علتي لم يستحق مني أي أجر؟

قال: فكيف تعتبر المجتهد مجتهدا، وهو لا يبحث عن الحلول المناسبة للوقائع المختلفة.

قلت: لا أزال أتصور أن هذا ليس ميدانا للفقهاء.

قال: سأضرب لك مثالا مما نحن فيه.

قلت: بالمثال سيتضح المقال.

قال: ألا ترى الفقراء عندكم ــ على حسب الإحصائيات التي تذكرها ـ من الكثرة بحيث يحتاجون بحثا شرعيا شاملا يعالج المشكلة من أساسها؟

قلت: أجل .. هذا صحيح.

قال: فما دور الفقهاء المجتهدين في هذا؟

قلت: يطالبون الأمة بالزكاة التي أمر الله تعالى بها.

قال: ويكتفون.

قلت: وبالصدقات.

قال: وهل ينظمون كلامهم في هذا بحيث يؤتي ثماره؟

قلت: لا .. بل يـتيهون في أحيـان كثـيرة في الخلاف وفي نصرة المذاهب عن القضية التي يريدون الحديث فيها.

قال: فهل عولج الفقر؟

قلت: بـل هـو يـزداد كـل حين مـع كوننـا ــ بحمـد اللـه ـ أصحاب ثروات هائلة نحسد عليها، ونغزى بسببها.

قال: فليخرج المجتهدون من صوامعهم والأبـراج العاجيـة الـتي بنوهـا لأنفسـهم، وليتخلصـوا من القيـود الـتي ربطـوا أنفسهم بها، وليحيوا دين الله ويحببوه إلى الخلـق، فـإنهم إن لم يفعلوا كانوا حجبا بين الله وعباده.

قلت: يا معلم .. لا يـزال في نفسـي شـيء .. فلا أرى أن على الفقيه هذه المهمة الثقيلة التي تكلفـه بهـا، فحسـبه أن يراجع أحكام الشـريعة من مصـادرها المختلفـة، وهي كثـيرة جدا لا يفي العمر ببعضها، فكيف تكلفه مع ذلـك بـالبحث عن البدائل؟

قال: اسمح لي .. وليسمح فقهـاؤكم أن أقـول لهم: لقـد ضيعتم أوقاتا كثيرة فيما لا طائل وراءه .. همكم أن تختصروا الكتب لتجعلوها متونا ثم تشرحوها، ثم تعقبوا عليها، وتجعلوا جل جهودكم أن تفسـروا تلـك المتـون وكأنهـا قـرآن يتلى .. فكم من الأوقـات ضـاعت في الحفـظ .. وكم من الأوقـات ضــاعت في الشـــرح .. كــان يمكنكم بــدلها أن تجــدوا من الحلول أضعاف ما حفظتموه وتعبتم في شرحه.

قلت: ولكن هذا المنهج العلمي ضروري.

قـال: والبـدائل ضـرورية .. ألم تعلم لمـاذا طلب يوسـف ﵇ من الملك أن يتولى خزائن الأرض؟

قلت: لقد آنس من نفسه القدرة على حل المشكلة التي

تنتظر المصريين ومن يحيط بهم، فرأى أن حلها لا يصلح له إلا أن يتولى بنفسه أمر التموين، قال تعالى على لسانه: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف:55)، فقد ذكر خصلتين يحتاجهما من يقوم بهذه الوظيفة، وهي الحفظ ليحفظ الأرزاق التي تساق إليه، والعلم بكيفية حفظها وتوزيعها.

قال: فكيف حصل هذا؟

قلت: هذا اجتهاد اجتهده.

قال: ولكن الأنبياء مهمتهم حفظ الدين لا حفظ الدنيا.

قلت: هذا خاص بيوسف ﷴ.

قال: ما أسرع ما تفرون للتخصيص، ألا تعلم أنه لا تخصيص بدون مخصص..

قلت: فما تفهم ن هذه الآيات؟

قال: الله تعالى يأمر المجتهدين أن يبحثوا عن حلول الأزمات، ولا يكتفوا بوصفها .. لقد كان يوسف ﷴ قادار على الاكتفاء بتأويل الرؤيا، ولكن همته العالية أبت عليه أن يترك أمة من الناس تموت جوعا، فظل يفكر في حل الأزمة إلى أن وجد حلها.

قلت: فما الدور الذي تأمر الفقهاء بأدائه انطلاقا مما فهمت من قصة يوسف ﷴ.

قال: سأخرج بك قليلا إلى السياسة .. ما حديث فقهائكم فيها؟

قلت: حفظك الله يا معلم .. دعنا من السياسة .. فكم ألهت أمتي وشغلتهم عن مصالحهم؟

قال: فعن الاقتصاد .. فكنوز الفقراء تستدعي اقتصادا رائدا يغني الفقراء .. فهل اجتهد فقهاؤكم على مدى الأجيال في هذا الجانب.

قلت: هناك تقصير كبير في هذا الباب ..

قال: أسببه النصوص والمصادر التي تضيق عليكم البحث في هذا الجانب؟

قلت: لا .. النصوص والمصادر تتيح لنا مساحة كـبرى من التفكـير .. ولكن نصـرة المـذاهب وشـرح الأقـوال والخلاف والجدل شغلنا ..

قال: فلذلك قلت لك: لا يمكن أن تنهظوا قبل أن تتعلموا علم السلام.

قلت: وما علاقة علم السلام بهذا؟

قـال: علم السـلام يجعلـك تبحث في الحقـائق لا في الألفـاظ، وفي الحلـول لا في الجـدل، وفي نصـرة اللـه، والمستضعفين لا في نصرة الأقوال والقائلين.

قلت: لقد قلت لـك يـا معلم .. ليس هنـاك كتب في هـذا العلم.

قال: بلى، كتاب ربكم وسنة نبيكم هو الخزانة الـتي تخـتز درر هذا العلم .. ففجروها .. واخرجوا من خلافاتكم، وابحثـوا عن علاج لأدوائكم.

بعد أن قال ذلك فتح لنـا البـاب .. لكنـا مـا إن سـرنا قليلا حتى رأيت بابا عجيبا، قد علقت عليه صـورة ثغـرات كثـيرة، بعضها أخاديد بسيطة، وبعضـها أخاديـد عميقـة، وبعضـها في عمقهـا كالآبـار، وبعضـها في سـعتها كالأنهـار والبحـار .. ثم لاحظت رجـالا مختلفين بألبسـة مختلفـة يحـاولون سـد تلـك الثغرات، وملأها بأصناف الخيرات .. وهم لا يـألون جهـدا في ذلك.

سألت المعلم عن سر هـذه الصـورة، فقـال: أتـرى تلـك الثغرات الكثيرة؟

قلت: أجل .. فما أكثرهـا، ومـا أكـثر تنوعهـا .. أهي حفـر يدفن فيها الخلق، أم سراديب تخبأ فيها الأموال .. أم ..

قال: هي أصناف الحاجات الـتي يتطلبهـا وجـود الإنسـان على هذه الأرض، واستقامة حياته فيها.

قلت: وأولئك الرجال؟

قال: هم العمال المكلفـون بسـد تلـك الثغـرات، وقضـاء تلك الحاجات.

قلت: لقد فهمت المعنى الرمزي الذي تحمله الصــورة .. لكني لم أفهم المراد منها هنا.

قال: أخبرني: لو أن الجهد المبذول كـان شـرعيا، أي أنـه لم يتصف بأي وصف من الأوصاف الـتي تجلب لـه الحرمـة، أيكون ذلك كافيا ليكون جهدا ناجعا؟

قلت: لا .. لا يكفي ذلك.. بل يجب أن يكون منتجا، أي لـه إنتاج ينتفع به.

قال: أرأيت لو أن جميع الجهود تـوجهت وجهـة واحـدة لا تعدوها، أتضيع مصالح الخلق بذلك.

قلت: أجل .. وهي تشبه كما أن لو أن جميع العمال الذي رأينـاهم على لوحـة البـاب توجهـوا لأخـدود واحـد ليسـدوه، وتركوا سائر الأخاديد يتضرر الناس بها، وتتضرر حياتهم.

قال: فتوزيع الجهد على الحاجات المختلفة هو ما سـموه هنا في مدائن الغـنى بــ (الكفايـة)، وهم يتشـبهون في ذلـك باسم الله (الكافي)، وقد عـرفت أنـه الاسـم المرتبـط بسـد الحاجات.

قلت: فهمت هـذا، وقـد ذكرتـني بكلام جميـل لأبي حامـد الغزالي يلوم فيه طالبي العلم في عهده إلى الانصـراف إلى الفقه، وترك الطب، مع أن الحاجة لكليهما واحدة.

قال: فما قال ذلك الفقيه العارف؟

قلت: قال بحسرة وألم:(فكم من بلدة ليس فيهـا طـبيب إلا من أهـل الذمـة، ولا يجـوز قبـول شـهادتهم فيمـا يتعلـق بالأطبـاء من أحكـام الفقـه، ثم لا نـرى أحـدا يشـتغل بـه، ويتهـاترون على علم الفقـه لا سـيما الخلافيـات والجـدليات، والبلد مشحون من الفقهـاء بمن يشـتغل بـالفتوى والجـواب عن الوقائع .. فليت شـعري كيـف يـرخص فقهـاء الـدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال مـا لا قـائم به، هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول بــه إلى تولي الأوقاف والوصـايا وحيـازة مـال الأيتـام وتقلـد القضـاء والحكومــة والتقــدم بــه على الأفــران والتســلط بــه على الأعـداء .. هيهـات هيهـات قـد انـدرس علم الـدين بتلـبيس العلمـاء السـوء فاللـه تعـالى المسـتعان وإليـه الملاذ في أن يعيـذنا من هـذا الغـرور الـذي يسـخط الـرحمن ويضـحك

الشيطان)(1)

قال: لهذا حرقوا كتبه.

قلت: من؟

قال: أولئك الذين لبسوا عبـاءة الفقهـاء، كمـا لبسـها من قبلهم أحبار أهل الكتاب.

قلت: أراك متحاملا عليهم .. أخشى أن يحرقوا مـا تقولـه كما أحرقوا كتب الغزالي.

قال: لوأحرقوها .. فستنبت كما نبتت كتب الغزالي .. بـل كما نبتت كل الكتب المحروقة، وكل الجثث المحروقة.

---

1) إحياء علوم الدين: 1/21.

بعد أن قال ذلك فتح لنـا البـاب .. لكنـا مـا إن سـرنا قليلا حتى رأيت بابا عجيبا، عليه لافتة مشعة مكتـوب عليهـا قولـه تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَـى اللَّهَ مِنْ عِبَـادِهِ الْعُلَمَـاءُ ﴾ (فـاطر: 28)، وتحتها أو في أثنائها صورة لرجـال بطلعـات مهيبـة ينظـرون إلى الكون، ويقتبسون منه أنوارا كثيرة مختلفـة، ثم يصـبونها على الخلـق، فيهتـدوا بهـا في الفلـوات، ويسـتنيروا بهـا من الظلمات.

فســألت المعلم: من هــؤلاء .. فوجــوههم وجــوه خــير، وأعمالهم أعمال خير.

قال: هؤلاء وسائط النور الإلهي.

قلت: وما وسائط النور الإلهي؟ .. وهـل نـور اللـه بحاجـة إلى وسائط؟ .. ومـا معـنى الواسـطة؟ .. ومـا وجـه الحاجـة إليها؟ .. وما علاقة ذلك بالباب؟ .. وما ..؟

قال: رويدك، فالعلم إذا أتى جملة ذهب جملة ..

قلت: فما معنى الواسطة؟ وما وجه الحاجة إليها؟

قال: ما الفرق بين ضياء الشمس ونور القمر؟

قلت: هذا من أسـرار الدقـة في التعبـير القـرآني، فاللـه تعالى يعبر في القرآن الكريم عمـا يصـدر عن الشـمس من أشعة بالضياء، ويعبر عن أشعة القرم بالنور، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً ﴾ (يونس: 5)

قال: وما السر في هذا التنوع في التعبير؟

قلت: ما أكده العلم الحديث من أن المراد من الضياء هو النور الذاتي، أما النور فإنه أعم من الضياء، ويـشـمل الذاتي

والعرضي، وعلى هذا فان اختلاف تعبير الاية يشـيرالى هـذه النقطة، وهي أن اللّه سبحانه قد جعل الشمس منبعـا فـوارا للنور، في الوقت الـذي جعـل للقمـر صـفة الاكتسـاب، فهـو يكتسب نوره من الشمس .

ويدل لهذا قوله تعـالى: وَجَعَـلَ الْقَمَـرَ فِيهِنَّ نُـوراً وَجَعَـلَ الشَّـمْسَ سِـرَاجاً (نـوح:16)، وقولـه تعـالى: تَبَـارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّـمَاءِ بُرُوجـاً وَجَعَـلَ فِيهَـا سِـرَاجاً وَقَمَـراً مُنِـيراً (الفرقان:61)، فإن نورالسراج ينبع من ذاته، فلذلك شـبهت الشمس في الآيتين بالسراج.

قال: فنور القمر إذن مستمد من ضياء الشمس؟

قلت: هذا صحيح .. ولا يخالف فيه أحد.

قال: فكذلك من رحمة الله بعباده أن جعـل فيهم أقمـارا تستمد نورها من الشمس لتضيء به ظلمات الخلائق.

قلت: فهم وسائط الشمس.

قال: هم وسائط الهداية.

قلت: فهم الفقهاء والمفسرون ..

قـال: كـل العلمـاء .. أتحسـب أن من يبحث في الـذرة والخلية لا علاقة له بالله .. إنه قمر من أقمار اللـه يهـدي بـه الله من شاء من عباده .. ولكن لكـل ميدانـه .. ولا يسـتغني بعضهم عن بعض.

قلت: فهمت هذا .. فلا يمكن أن تسير الحياة بدون عمـل العقل.. ولكن في أي ميدان؟

قال: في كل الميادين، ابتداء بالتعرف على الله والسلوك إليه، وانتهاء بمرافق الحياة .. أرأيت لو أن البشـر لم يعلمـوا

عقولهم في مرافق الحياة، واكتفوا بالجهد العضلي، أكان يمكن أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه؟

قلت: لو اكتفوا بذلك لكنا الآن من البدائيين .. نعيش على الصيد أو على ما تنتجه الأشجار من أنواع الثمار.

قال: هذا إن ظللتم موجودين .. ألا تعلم الأوبئة الفتاكة، وما تفعل بالبشرية .. ألم ينهض لمقاومتها أقمار الأطباء الذين اهتدوا بشموس شفاء الله!؟

قلت: أجل .. ألهذا إذن كان الفكر مقدمة لكل عمل؟

قال: هذا سبب .. وسبب آخر هو ما أرى عليه قومك من التقصير في حق المفكرين والمبدعين .. أقمار الهداية الربانية.

قلت: كيف نقصر في حقهم .. فلهم وظائف تدر عليهم مرتبات .. نعم هي أقل من مرتبات غيرهم .. ولكنها مع ذلك أحسن من مرتبات كثير من المستضعفين، ثم هي تكفيهم لحياة لا تجعلهم يمدون أيديهم للخلق بالسؤال.

قال: هذه الوظيفة الخطيرة .. وظيفة الفكر المنتج تتطلب أربعة حقوق لا تقوم إلا بها .. والتفريط في واحد منها قد يؤدي إلى خسوف جزئي أو كلي لهؤلاء الأقمار.

قلت: فما هي؟

قال: التفريغ، والتيسير، والتحفيز، والتأثير.

قلت: أهي محصورة كانحصار الأركان.

قال: أجل .. ولا يغني بعضها عن بعض ..

لاح لي أربعة أبواب داخل مدخل باب الفكر، فقلت: لا

شك أن هذه أبوابها.

قال: أجل .. هي أبوابها، فهلم إليها.

التفريغ:

اقتربنا من الباب الأول من أبواب الفكر، وقد علقت على بابه صورة عالم جليل، قد توفر له من أسباب الرزق ما صرفه صرفا كليا لطلب العلم وتعليمه، وقد أبدع الفنان الذي رسم الصورة في التعبير عن هذا المعنى، بما لا يستطيع اللسان التعبير عنه.

قلت للمعلم: لا شك أن هذا باب التفريغ، فالراحة النفسية التي جعلت هذا العالم منصرفا انصرافا كليا للعلم سببها ما توفر لديه من انتفاء الموانع التي تحول بينه وبين البحث والطلب.

قال: أجل .. وهذا هو أول ركن من الأركان التي تسهم في النهضة العلمية، فلا بد أن يوفر للعالم ولطالب العلم من الرزق ما يجعله متفرغا لطلب العلم أو للبحث فيه، فلا يمكن للعقل المملوء بهموم المعيشة أن يتفرغ للتفكير السليم.

قلت: أتقصد أن يعطى العلماء من الأجور ما يفرغهم للبحث؟

قال: ليس العلماء فقط، بل العلماء وطلبة العلم، فلا يمكن أن يصير الشخص عالما إذا لم يبدأ طالبا.

قلت: لو أن الأمر بهذه الصورة، فإن كل الخلق سوف يتركون وظائفهم وأعمالهم ليسجلوا أنفسهم في دوائر أهل العلم .. وستتعطل بذلك الحياة.

قال: للعلم أهله، وليس كل من سـجل نفسـه في دائـرة من الدوائر قبل فيها.

قلت: أتقصد الانتقاء؟

قــال: أجــل، فــالعلم لا ينهض بــه إلا من تــوفرت فيــه خصائص أهل العلم، فإن وجدت في المتقدم، وكـان لـه من القدرات ما يمكن أن يصير به قمرا من أقمـار الهدايـة قبـل، ووضع له من الرزق ما يغنيه عن الانشغال عن العلم.

قلت: أتقصــد أن يكــون حــاملا لشــهادة من الشــهادات العالية؟

قـال: ليس بالضـرورة ذلـك، فكثـيرمن حملـة الشـهادات أميون متسترون بذلك القرطاس الذي منحوه.

قلت: فكيف يعرف العـالم أو طـالب العلم إن لم يعـرف بالشهادة؟

قال: بالعلم .. وبإنتاج العلم .. وبتحقيق العلم.

قلت: ولكن البشر توصلوا إلى الشهادة كسبيل من سبل التعرف على أهل العلم .. وقد سـبق المسـلمون إلى ذلـك، ففرقـوا ــ مثلا ــ بين المجتهـد المطلـق، ومجتهـد المـذهب، والمتبع، والمقلد، وفرقوا في الحديث بين المحدث والحافظ والحجــة والحــاكم وهكــذا في كــل العلــوم نجــد المــراتب المختلفة.

قـال: فتلـك المـراتب بم نالوهـا .. أبشـهادات نالوهـا أم بالبحث والاجتهاد؟

قلت: بل بالبحث والاجتهاد.

قـال: فلـذلك إن أردتم أن تتحققـوا بحقـائق أهـل العلم

انشـــروا العلم بين النـــاس، ودعـــوا العبـــاقرة يولـــدون في الشوارع والطرقـات والأكـواخ والقصـور، فالعبقريـة ليسـت حكرا على الجامعات والمعاهد.

قلت: لم أفهم إلى الآن قصدك من كل هذا.

قال: التفريغ الذي أقصـده لا يتعلـق إلا بمن تـوفرت فيـه القدرة على الإنتـاج العلمي، فلا يكفي فيـه مجـرد الانتسـاب للجامعات والمعاهد.

قلت: وكيف نعرف ذلك؟

قال: بالجرح والتعديل.

ضحكت، وقلت: وما علاقة الجرح والتعديل بهذا؟

قـال: ألم يكن العلمـاء في القـديم يدرسـون شخصـيات المحدثين لـيروا مـدى ورعهم، ومـدى قـدرتهم على الحفـظ والضبط ليحكموا على حديثهم بعد ذلك بالقبول أو الرفض؟

قلت: أجل ..

قال: فكذلك فافعلوا .. فللعلم أماراته.

قلت: فإن لم نجد فيهم الأهلية؟

قال: أنواع الجهود كثيرة، فمن لم يصلح لهذا الباب صـلح لغيره.

قلت: ولكن نفوسهم قد تميل لهذا النوع من الجهد.

قال: ليثبتوا ما تميل إليه نفوسهم، وإلا فـإن أكلهم المـال المرصد لأهل العلم حرام، ألم تقـرأ مـا قـال الغـزالي فيمن يسكن الرباطات الموقفة على الصوفية من غير تحقـق بمـا يقتضيه هذا الوقف من صفات؟

قلت: أجل، فقد قال وهو ينكر على متصوفة عصره: (وإنما عصيانهم في التلبيس والسؤال على اسم التصوف والأكل من الأوقاف التي وقفت على الصوفية،لأن الصوفي عبارة عن رجل صالح عدل في دينه مع صفات أخر وراء الصلاح، ومن أقل صفات أحوال هؤلاء أكلهم أموال السلاطين وأكل الحرام من الكبائر، فلا تبقى معه العدالة والصلاح، ولو تصور صوفي فاسق لتصور صوفي كافر وفقيه يهودي، وكما أن الفقيه عبارة عن مسلم مخصوص، فالصوفي عبارة عن عدل مخصوص لا يقتصر في دينه على القدر الذي يحصل به العدالة، وكذلك من نظر إلى ظواهرهم ولم يعرف بواطنهم وأعطاهم من ماله على سبيل التقرب إلى الله تعالى حرم عليهم الأخذ وكان ما أكلوه سحتا)(1)

قال: فكذلك الأموال المرصدة لأهل العلم هي من أموال موقوفة على من اتصف بصفات معينة، فمن توفرت فيه جاز له أن ينالها، ومن لم تتوفر فيه كان آكلا للسحت، وتحق بحقيقة قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ (التوبة: 34)، فمن أكلهم الباطل نيلهم لأجر لا يستحقونه.

التيسير:

اقتربنا من الباب الثاني من أبواب الفكر، وقد علقت عليه صورة مكتبة ضخمة تحوي أصناف الكتب، وقد هيئت في تلك المكتبة كل الوسائل التي يحتاجها الباحث من الأقلام والأوراق .. بل حتى أصناف الحواسيب والأجهزة العلمية الحديثة .. ولا أحسب أن هناك ما يحتاجه الباحث في هذه المكتبه إلا ويجده فيها.

(1) إحياء علوم الدين:2/251.

قلت للمعلم: لله .. ما أجمل هذه المكتبة .. لكأنها مركـز ضخم من مراكز البحوث، وليست مجرد مكتبة.

قال: نعم، فهـذا بـاب التيسـير المتفـرع من بـاب الفكـر، والتيسير يستدعي توفير كل ما يحتاجه المفكر من وسائل.

قلت: ولم سمي هذا تيسيرا؟

قال المعلم: لأن الوسائل التي يحتاجها البـاحث هي الـتي تيسر عليه الوصول إلى المعلومة التي يريدها .. قل لي: هل كان يمكن لعلماء الفلـك أن يصـلوا إلى مـا وصـلوا إليـه من نتائج لولا توفر المراقب؟

قلت: كلا .. بل ستظل النظريات القديمة سـواء مـا بـني منها على العقل أو على الوهم هي السائدة.

قال: ولو لم يخترع المجهر؟

قلت: سـتظل الميكروبـات وغيرهـا من أصـناف الأحيـاء الدقيقة في حصون عالم الغيب لا يمتد إليها العقل، ولا تكدر صفوها الأدوية.

قال: فهكذا كل الوسائل نعم من نعم الله علينا خلقها لنـا لنسـخرها في البحث والاكتشـاف .. فلـذلك كـان توفيرهـا للباحثين جزءا من الحقـوق الـتي تتطلبهـا وظيفتهم .. فأهـل العلم لا يحتاجون فقط إلى الطعام والإدام، بل هم في حاجة أكـثر إلى الكتب والأقلام، وكـل مـا يخرجـه اللـه لعبـاده من أصناف الأجهزة والوسائل.

قلت: فكيف يتحقق التيسير؟

قال: بتوفـير كـل مـا يخـدم العلم وينشـره ليسـتفيد منـه الخاصة والعامة .. فالعلم لا يعرف خاصة وعامة.

قلت: علمت احتياج الخاصة، وكيفية سده، فما احتياج العامة، وكيف نسده؟

قال: بالتيسير.

قلت: كيف؟

قال: أنا لا أقترح، وإنما أدل .. ولكن قل لي: أنتم تتفنون فيما تسمونه بالمسلسلات والأفلام والرسوم المتحركة.

قلت: أجل .. فالعامة يحبونها حبا جما .. فلذلك نستورد منها كل جديد.

قال: تستوردون! .. أهذا ما تتقنون؟

قلت: فما عسانا نفعل، فالمطالب أكبر من طاقتنا الإنتاجية؟

قال: فوفروا المطالب بالتحفيز.

قلت: وما التحفير؟

قال: سنمر على بابه لنعرفه .. ولكن قل لي الآن: ألا يمكنكم استغلال هذا الحب الجم الذي عليه جمهوركم نحو الأفلام الهابطة في تغذيتهم بالمعارف والعلوم والسلوك الصالح!؟

قلت: يمكن ذلك .. ولكن هل سيقبل العامة ذلك؟

قال: حاولوا أن تتعرفوا على أذواقهم لتطعموهم إياها حتى يألفوها.

قلت: يا معلم .. أرى في الصورة حواسيب كثيرة .. ما الغرض منها؟

قال: هذه الحواسيب هدية الله إليكم .. وهي السيف الذي تفتحون به روما وواشنطن وبكين وباريس ..

ضحكت، وقلت: أهذه الحواسيب لنا .. ولكنها صنعت عندهم.

قال: هم صنعوها لتعمروها أنتم .. ثم تنشروا ما هداكم الله إليه من الخير بها.

قلت: أعرف يا معلم ما لبرامج هذه الحواسب من تأثير عميق .. بالإضافة إلى ما يسره الله في هذا العصر من الاتصال بالعالم أجمع بضغطة زر واحدة.

قال: فتعلموا تلك الضغطة .. فهي مفتاح كل خير .

قلت: إن بعض قومي ينظرون إلى هذه الوسائل نظرة مغايرة .. بل هم يتصورون أن مجرد كونها من الغرب يجعلها عارية من كل خير.

قال: فدعهم .. ولا تجادلهم .. فهؤلاء لا يفقهون عن الله .. ألم يسم الله ما ابتدعتموه من وسائل النقل خلقا لله؟

قلت: بلى .. فقد قال تعالى:﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:8)، ففي هذه الآية إشارة صريحة لوسائل النقل الحديثة.

قال: وهكذا .. فقد ذكر الله تعالى القلم ليشير إلى كل الوسائل التي تيسر الوصول للعلم وتنشره.. ألم يذكر الله القلم في أوائل ما أنزل؟

قلت: بلى، فقد قال تعالى في أول ما أنزل من القرآن الكريم:﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (العلق:4) ..

التحفيز:

اقتربنا من الباب الثالث من أبواب الفكر، وقد علقت عليه صورة إعلان عن مسابقة لتشجيع المواهب المختلفة .. كانت المواهب كثيرة .. وكان التشجيع على المتحقق عظيما.

لم أكد أنتهي من قراءة ما فيها حتى فاجأني المعلم، وهو يقول: هذا باب التتحفيز، وهو الباب الذي يخدم الفكر وينشره متوسلا بما في طبيعة الإنسان من الرغبة والطمع.

قلت: دعني أقرأ .. فلعلي أرشح نفسي لبعض هذه الجوائز.

قال: فقد أدركت إذن تأثير الحوافز في خدمة العلم ونشره من غير أن نحتاج إلى شرح لذلك.

قلت: ومن يشك في تأثير الحوافز .. لا في النهضة العلمية وحدها .. بل في كل المجالات .. ولكن قد عرفت ـ يا معلم ـ فيم توضع الحواز عندنا .. ومن يحفزون؟

قال: عرفت .. وتأسفت ..

قلت: نحن نحفز مواهب الغناء والرقص والتمثيل .. أما أهل العلم فنتركهم في دركات النسيان.

قال: فإن أردتم أن تنهضوا .. فحفزوا الأمة على التنافس على الخير .. ودلوا من يتولى أمركم على حل بسيط لحفظ الأمن في بلده وحفظ الكراسي التي يجلسون عليها من كل شغب.

قلت: أهناك حل لذلك ..

قال: أجل .. قل لهم: ضعوا تلك الأموال التي تضعوها

رشوة في أيدي الأجهزة المختلفة حـوافز للأمـة على البحث والعلم .. فسوف تنشغل الأمـة بـالعلم عنكم، وعن المكيـدة لكم .. بل ستضيف إلى ذلـك الـدعاء لكم .. فتكسـبوا الـدنيا والآخرة.

قلت: هـذا حـل جميـل .. ليتهم ينتبهـون إليـه .. ولكن يـا معلم .. ألم يـأمر اللـه بـالإخلاص .. وهـو يسـتدعي خلاص النفس من كل مطالب العوض، ولهذا وردت النصوص تحث على الإخلاص، وتشـدد في ذلـك، وقـد ورد في الحـديث الشريف:(صدقة السر تطفىء غضب الرب عزّ وجلّ)(1)

وورد في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله:(ورجل ذكر اللـه خاليـا ففاضـت عينـاه)، ومنهم (ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله مـا تنفـق يمينه)(2)

قـال: هـذا صـحيح .. وهـو لا يتنـافى مـع مـا ذكرنـا .. لأن الغرض هنا هو نشر وعي معين .. أما الإخلاص فمن السـهل تحصيله لمن صدق في طلبه.

قلت: لم أفهم .. فالإخلاص أصعب الأمور.

قال: ولكن أليس العامل هو الذي يخلص؟

قلت: أجل .. فالقاعد فيم يخلص.

قال: فلنعلمهم أولا العمل .. فإذا عملوا وأتقنـوا علمنـاهم الإخلاص .. بـل إن العلم نفسـه قـد يكـون دليلهم على الإخلاص .. ألم تقرأ ما قال بعضهم:(طلبنـا العلم لغـير اللـه، فأبى أن يكون إلا لله)

1(1) رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن.

2(2) رواه مالك، البخاري.

قلت: بلى .. وقد كان هذا من الحوافز التي جعلتني أستكثر من العلم لعلي أصل إلى سر الإخلاص.

قال: ألم تعلم بأن الله تعالى يدعو عباده إلى بابه بهذه الحوافز؟

قلت: كيف؟

قال: ألم تقرأ قوله تعالى وهو يدعو رسول الله ﷺ لتبشير المؤمنين بما أعد الله تعالى لهم من فضل جزاء على أعمالهم الصالحة، كما قال تعالى: وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة:25)

ففي هذه الآية الكريمة تبشير لمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح بهذا الجزاء العظيم الذي سيلقونه عند الله تعالى .

التأثير:

اقتربنا من الباب الرابع من أبواب الفكر، فرأيت صورة لمنصة عالية جلس عليها رجل يظهر على ملامحه أنه من أهل العلم يخاطب أقواما كثيرين.. وقد صوبت أمامه كاميرات كثيرة تنقل كلامه لجميع الدنيا.

فقلت للمرشد: لا شك أن هذا هو الحاكم.

قال: لا .. هذا هو العالم .

قلت: أيترك للعالم أن يخاطب كل هذه الجموع؟

قال: هذا باب التأثير، وهو الباب الذي يخرج فيه العلم

من المكتبات والمخابر ليملأ حياة الناس، فلا يصح أن يحجر على العلم.

قلت، وقد غلبني الضحك: أيحجر على العلم، وهل هو سفيه حتى يحجر عليه؟

قال: أنتم تعاملون العلم معاملة السفيه، فتحجرون عليه، وتحجرون على أهله.

قلت: كيف ذلك؟

قال: أرأيت لو منع الطبيب من معالجة المرضى، أيكون قد استفاد شيئا من إرهاق نفسه في البحث عن الأمراض وعلاجها؟

قلت: لا يستفيد شيئا .. فالغرض من الدواء هو المداواة.

قال: فكذلك من أغراض العلم التعليم .. فالعلم يبدأ بالنفس لينتشر إلى المجتمع.

قلت: ولكنا وضعنا لأهل العلم المدارس والجامعات.

قال: لا يكفي ذلك .. العلماء يوضعون في كل الأماكن .. ابتداء بوسائل الإعلام، وانتهاء بكل مراكز الاتصال والتأثير من المساجد وغيرها.

قلت: المساجد! .. هي للأئمة .. فهل نترك هؤلاء يزاحمونهم فيها؟

قال: ليس في العلم مزاحمة .. والمساجد ـ خصوصا ـ ليست حكرا على الأئمة وحدهم .. ألا يحتاج الناس إلى الأطباء؟

قلت: أجل.

قال: فلماذا لا يقدم الأطباء للنـاس دروسـا في المسـاحد تحفظ صحتهم، وتزيد وعيهم؟

قلت: ولكن المساجد تبع لـوزارة الأوقـاف، والأطبـاء تبـع لوزارة الصحة.

قال: وما علاقة الوزارت بهذا؟ أتضعون مصـالح المجتمـع في يد سياسات تتلاعب بها الرياح.

قلت: فما تقصد؟

قال: هذه مؤسسات المجتمـع .. لا مؤسسـات الساسـة، وقوانينها ثابتة لا ينبغي للحكام أن يتلاعبوا بها.

قلت: ولكن للدولــة في هــذا الــوقت تــدخلها في كــل الشؤون دينا ودنيا.

قال: فكيف تنهضون، وأنتم كلعبة بيد أطفال من الساسة يتحركون كما يشتهون، فتتزلزل الأرض بحركاتهم.

بعد أن قال ذلك فتح لنا الباب .. لكننا ما إن سرنا قليلا حتى رأيت بابا عجيبا، علقت عليه لافتة مشعة مكتوب عليها قوله تعالى: وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (الرعد: 23)، وتحتها أو في أثنائها صورة لرجل قد التف حوله جمع غفير من الخدم، كل واحد يقدم له خدمة من الخدمات.

سألت المعلم عن سر هذا الرجل: أفرعون هذا .. أم قارون؟

قال: لا .. هذا كل مسلم .. بل كل إنسان.

قلت: كيف؟ أرى الخدم يلتفون به.

قال: هذا باب الخدمات .. وهو الباب الذي تبذل فيه كل ألوان الخدمات لمن يحتاجها.

قلت: ولكن ما سر وضع هذه الآية هنا، فلا أرى لها مناسبة.

قال المعلم: في هذه الآية إشارة بديعة إلى وجوب توفير كل الخدمات لكل من يحتاج إليها، لتسد بكل باب من الأبواب نافذة من نوافذ الحاجات.

قلت: ولكن الآية تتحدث عن الجنة.

قال: وما الذي يمنعكم أن تجعلوا من الدنيا جنة؟

قلت: ولكن الآية تتحدث عن الملائكة ـ عليهم السلام ـ

قال: وما الذي يمنعكم من التشبه بالملائكة ــ عليهم السلام ــ ألم يكن ﷺ يقول لأمته:(ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟)، قالوا:(يا رسول الله، وكيف تصف

الملائكــة عنــد ربهــا؟)، فقــال:(يتمــون الصــفوف الأول، ويتراصون في الصف)(1)

قلت: فكيف ندخل على الناس من كل باب؟

قال: كل بـاب يشـير إلى حاجـة من الحاجـات، فـالمرض حاجــة تســتدعي توفــير الأطبــاء والــدواء، والجــوع حاجــة تستدعي توفـير من يقـوم بتوفـير الطعـام ابتـداء من الفلاح وانتهاء بالطباخ، والمأوى حاجة تستدعي توفير كل من يقـوم بــه ابتــداء من المهندســين، وانتهــاء بكــل وســائل البنــاء وأسبابه .. وهكذا.

التفت فرأيت أربعة أبـواب مفتوحـة تقابـل الـداخل لهـذا الباب، فسـألت عنهـا، فقـال: هـذه هي الأبـواب الـتي تمثـل الأركان التي تقوم عليها الخدمات.

قلت: فما هي؟

قال: التنوع، والعموم، والاحترام، والرعايـة، فـإن كـل مـا يتعلق بالخدمات من وظائف يعود إليها.

التنوع:

تقدمنا إلى باب التنوع، وقد علقت على بابه صورة مصنع ضخم تجمعت فيه كل الأعمال، ففيه آلات النســيج والتغذيــة والمطابع وما لا يحصى من الآلات .. بل إن أرض المصنع لم تخــل من اســتغلال، فقــد غرســت فيهــا أصــناف النباتــات، والأشجار المثمرة.

قلت للمرشد: ما هذا المصــنع العجيب؟ وفي أي منطقــة من منـاطق العـالم يوجـد؟ عهـدي بالمصـانع متخصصـة في صناعات معينـة؟ وعهـدي بالفلاحـة منفصـلة عن الصـناعة ..

1) رواه مسلم.

فما هذا الاختلاط؟

قال: هذا باب التنوع، وما رأيته من الصورة يشير إليه، فالتنوع يستدعي توفر كل ما رأيته وغير ما رأيته من أصناف الحاجات، واجتماعها مع بعضها يدل على وجوب التناسق بينها، فلا ينبغي للصناعة أن تضر بالزراعة، ولا ينبغي للصناعات أن يضر بعضها ببعض.

قلت: فهمت الصورة، فما الحقائق التي تنطوي عليها؟

قال المعلم: لا بد من توفر الخدمات التي يحتاج إليها البشر لاستقرارهم، فلا ينبغي التفريط في أي حاجة من الحاجات.

قلت: أليس في انشغالنا بسد منافذ الحاجات ما يشغلنا عن الله، وعن الوظيفة التي خلقنا لها؟

قال: لا .. فالله خلق لنا ما في الكون لننتفع به، فلا يجوز لنا أن نقصر في الانتفاع بما خلق الله لنا.

قلت: نعم، لقد وردت النصوص الكثيرة تخبر بتسخير الكون لنا، ولكني لا أفهم منها إلا معنى التفضل المستوجب للشكر لا معنى الإيجاب المستوجب للعمل.

قال: إن نفس معنى الشكرالذي تفهمه يدل على العمل؟

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى: يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (سبأ:13)؟

قلت: لقد ربط الله تعالى بين العمل والشكر، فما سر

ذلك؟

قال: الشكر ينتظم ثلاثة أمور: معرفة النعمة وعلاقتها بالمنعم، والفرح الحاصل بانعامه، والقيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه .. ومن هذا الأخير يدخل العمل، ويدخل كل ما تعرفونه من الشكر بالجوارح واللسان.

قلت: عرفت الركنين الأولين لكني لم أفهم علاقة العمل بالركن الثالث.

قال: الركن الثالث من أركان الشكر يتعلق بالجوارح .. بأن تستعمل نعم الله تعالى في طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته، فشكر كل نعمة لا يتم إلا باستخدامها فيما خلقت له.

قلت: فهمت كل هذا .. ولكني لا أقصد بالعمل إلا ما يتمحض منه للدنيا.

قال: لا فرق بين الدنيا والآخرة .. ولا بين الدين والحياة .. ألم تسمع قوله تعالى: وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (الأنعام:138)

قلت: هذه الآيات تشدد على الذين حرموا ما رزقهم الله من النعم معتبرة ذلك من الافتراء على الله.

قال: فهي لذلك تدعوكم إلى تناول هذه النعم باسم الله ليكون تناولكم لها جزءا من شكركم لله.

قلت: لم أفهم هذا .. فلا أرى في التناول شكرا.

قال: أرأيت لو أن محسنا أهدى إليك قميصا .. فرحت

ووضعت ذلك القميص في القمامة .. وفي موضع يـراه .. ألا تعتبر بذلك قد رددت هديته بأبشع رد؟

قلت: أجل.

قـال: فكـذلك نعم اللـه الـتي أهـداها لنـا من شـكرها أن نتناولهـا باسـمه، ونسـتعملها فيمـا أمـر، ولا نرميهـا في القمامات.. فقد سخر الله لنا كل شـيء، فـإن اسـتفدنا ممـا سخر الله لنا نكـون قـد أدينـا شـكر ذلـك المسـخر، وإلا كنـا مقصـرين في الشـكر، ولهـذا اعتـبر اللـه عمـل آل دود الحضاري شكرا.

قلت: فنحن في عصرنا إذن قد تحققنا بقمـة شـكر اللـه، فإنا لم نترك قانونا من قوانين الكون إلا سخرناه.

قال: لا .. الشكر يستدعي معرفـة المنعم .. فلا يكفي أن تستعمل النعمة وتغيب عن المنعم بها.

قلت: ألا يدخل في هـذا البـاب مـا ورد في النصـوص من أمره ﷺ بتنـاول الطعـام السـاقط على الأرض وعـدم تركـه للشـيطان، وقولـه ﷺ:(إذا وقعت لقمـة أحـدكم فليأخـذها فليمط ما كان بها من أذىً وليأكلها، ولا يدعها للشـيطان، ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه؛ فإنه لا يـدري في أي طعامه البركة)(1)،

قـال: أجـل، فـالنبي ﷺ يحـذرنا من التفريـط في النعمـة صـغيرها وكبيرهـا .. حـتى مـا يبقى في القصـعة أو في الأصابع .. وقد ربط ﷺ هذا بالشـيطان، لأن الشـيطان يمثـل جحود النعم، ولهذا اعتبر المبـذر من إخـوان الشـيطان، كمـا قـال تعـالى: إِنَّ الْمُبَـذِّرِينَ كَـانُوا إِخْـوَانَ الشَّـيَاطِينِ وَكَـانَ

---

1) رواه مسلم.

الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ (الاسراء:27)

قلت: على هـذا الاعتبـار أيـأثم من لـه مـورد من مـوراد الرزق يملكه، ولكنه لا يستغله.

قال: أجل .. فقد عرفنا أنه لا حق لأحد في شيء، فالمال مال الله، والعبد مستخلف فيه، فلا يحق له أن يكنز من مال الله ما يعود ضرره على خلق الله، ألم تسمع قولـه ﷺ :(من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه)(1)..

قلت: بلى.

قـال: فلا يحـل لأحـد أن يـترك نعمـة من نعم اللـه لا يستسخرها فيما ينتفع به الخلق.

قلت: أتعلم يـا معلم أن هـذا الأصـل الـذي ذكرتـه يجعـل جميع الخـدمات الـتي يحتـاج إليهـا الإنسـان تخـرج من بـاب الشكر لا من باب الأنانية والهوى؟

قال: أجل .. وهذه هي نظرة المؤمن في تناولـه الأشـياء وتسخيره لها .. هو يتناولها من باب العبوديـة للـه، أمـا غـيره فيتناولها، وهو يصارع في تناولهـا .. فلـذلك قـد يعبث بهـا، أو يسخرها فيما لم تخلق له، ألم تقرأ شكوى العصفور ؟

قلت: بلى، فقـد أنكـر رسـول اللـه ﷺ على من قتـل عصفوراً عبثاً، وأخبر أنه سيشكو إلى الله قاتله يـوم القيامـة قائلا:(يا رب، قتلني عبثاً ولم يقتلني منفعة)(2)

قال: ألا تسمع صياح آلاف الأبقار وشكاواهم؟

قلت: أسمع خوارهم، ولا أسمع شكاواهم.

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه أحمد والنسائي وابن حبان.

قال: أولئك المجرمون غلاظ القلوب الذين يضعون الثيران في حلبات، ثم يطعنونهم بما شاءت لهم قلوبهم القاسية، أرحم أم هذا الذي ركب على البقرة؟

قلت: بل هو أرحم، فلعل المسكين احتاج إلى ركوبها، أما هؤلاء فلا مبرر لما يفعلونه سوى ما تنفخه شياطينهم فيهم من القوة الكاذبة.

قال: فأنت تسخرون كثيرا من قوانين الكون، ولكنكم تخلطون التسخير بعبث كثير.

قلت: فحدثنا عنه حتى نتقيه.

قال: ذلك درس آخر من دروس السلام.

قلت: متى موعده؟

قال: حين نرحل إلى (أكوان الله)

قلت: عرفت أصول التنوع، فما أصول التنسيق بين الأنواع؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى:﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد:25)

قلت: بلى، فالله تعالى يمن على عباده بما أنزل عليهم من الكتاب والميزان والحديد.

قال: ألا ترى ذلك الجمال في اجتماع هذه جميعا في محل واحد، ثم التعبير عنها جميعا بكونها منزلة من الله.

قلت: بلى، بل إني أرى ضرورتها جميعا، فلا يصح أن

نكتفي بأحدها دون الآخر.

قال: فالله تعالى في هذه الآية عندما ذكر الحديد، هل اكتفى بوجه من وجوه صناعته؟

قلت: كلا، بل إن الله تعالى جمع في الآية بين الصناعات السلمية للحديد، والصناعات الحربية.

قال: فهل تستقيم الحياة بوجه واحد من وجوه الصناعة؟

قلت: كلا .. إلا إذا عمر السلام العالم، فحينذاك لن يحتاجوا إلى الصناعات الحربية.

قال: وذلك لن يكون .. فالبشر هم البشر.

قلت: وبذلك ستظل الحاجة إلى حمل السلاح دائمة .. وإلى صناعة السلاح ضرورة.

قال: فقد فهمت إذن معنى التناسق.

قلت: أتقصد أنه مراعاة جميع الحاجات، والاهتمام بها جميعا في نسق واحد.

قال: أجل، بل إن في قوله ﷺ:(إذا تبايعتم بالعينة، ورميتم بالزرع، وتبعتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد في سبيل الله سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم،حتى تراجعوا دينكم)(1) دليلا على هذا.

قلت: كيف، فالحديث ينهى عن الركون للأرض، وإن من قومي من يفهمه عكس ما تريده .. فهو يفهم منه ضرورة الاهتمام بالجهاد، وإغفال الجوانب الأخرى.

قال: إن النبي ﷺ في هذا الحديث لم ينه عن التجارة، ولا

---

(1) رواه أحمد والطبراني والبيهقي.

عن الزراعة، وإنما ينهى عن ترك الجهاد في سبيل الله، لما في تركه من الثغرات التي تطمع الأعداء، وتمكن لهم.

قلت: كأنك تقصد أن النبي ﷺ في هذا الحديث ينهى عن استغلال الحديد في الجانب السلمي فقط.

قال: أجل .. مادام الصراع موجودا، فلا بد من توفر الحديد الذي يردع النفوس المصارعة، وهكذا .. فكل حاجة من الحاجات منفذ من المنافذ يحتاج إلى ما يسده .. أتحسب أن الحروب تأتيكم فقط من الجيوش المحاربة؟

قلت: أتقصد الاستعمار الثقافي والاقتصادي .. وغيرها؟

قال: أقصد استعمار كل شيء لكم حتى استعمار الفيروسات والجراثيم .. فإنها إن لم تلاق بجنود من الأطباء يردعونها، فستعيث في أرض أجسادكم من الفساد ما لا يستطيع أي عدو القيام به.

الاحترام:

تقدمنا إلى الباب الثاني من أبواب الخدمات، وقد علقت على بابه صورة، لست أدري هل كانت كاريكاتورا ساخرا، أم أن صاحبها جاد فيما قصده، فقد صورت أناسا محترمين ببذلات مهنهم، بعضهم أطباء، وآخرون قضاة، وآخرون أساتذة، بل بعضهم سياسيين وحكاما، وليس في هذا كله أي غرابة، ولكن الغرابة هي وضعهم في مرتبة واحدة مع الكناسين والحمالين، أو ما يسميهم بعض الفقهاء بأصحاب الصناعات الدنية.

سألت المعلم عن سر هذه الصورة، والمعنى الذي ترمز له، فقال: هذا باب الاحترام، وهذه صورته، فالعمال كلهم محترمون .. فلا وضيع بينهم ولا محتقر.

قلت: ولكن الخلــق يكـادون يتفقـون على شـرف بعض الحـرف ووضـاعة بعضـها، بـل إن من الفقهـاء من اعتـبروا الكفاءة في الحرفة، وقد سئل بعضـهم عن تـاجر قمح يقـرأ بعض القـرآن زوج ابنتـه لرجـل شـلبي طحـان، فهـل الـزوج كفء لها وهل العقد صـحيح أو لا؟ فأجـاب:(أنـه ليس الـزوج كفء الزوجة ونكاحها باطل)(1)، وليس ذلـك لأجـل القـرآن، لأن القرآن ليس حرفة، وإنما لأجل التجارة.

قال: وبم يستدلون على ذلك؟

قلت: يـروون في ذلـك حـديثا يقـول: (النـاس أكفـاء إلا الحائك والحجام)(2)، وهو مع ضعفه الشديد إلا أنهم يقبلــون الاستدلال به، وقد روي أنه قيل لأحمد في هذا الحديث:كيف تأخـذ بـه وأنت تضـعفه؟ قـال: العمـل عليـه. يعـني أنـه ورد موافقا لأهل العـرف)(3).. ويسـتدلون كـذلك بقولـه تعـالى: ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾(النحل:71)

قال: أما الحـديث، فيكفي فيـه مـا قـال المحـدثون، ولـو أجزنا الاستدلال بمثل هذا لخربنا الشريعة، بل لخربنـا الـدين جميعا عقيـدة وشـريعة.. أمـا الآيـة فليس لهم فيهـا مطمـع، فالتفاضـل في الأرزاق لا يعـني تفاضـل أصـحابها، ولـو كـان الأمر كذلك لكان الرعي أشـرف الحـرف، ألم يـرع الأنبيـاء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ الأغنام..

ثم أين تـراهم يضـعون قولـه تعـالى:﴿ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَـرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَـاكُمْ شُـعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَـارَفُوا إِنَّ

---

(1) فتاوى الرملي:3/159

(2) روي الحديث بطرق مختلفة وكلها ضعيفة أو موضـوعة، نصـب الراية:3/398.

(3) المغني:7/29.

أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات:13)؟

ثم .. لو أن هؤلاء الكناسين والحمالين تركـوا هـذه المهن الوضيعة التي رماهم بهـا هـؤلاء الفقهـاء، وذهبـوا جميعـا إلى المهن الشـريفة الـتي تخـول لهم الـزواج بمن شـاءوا من النساء، هل تستقيم الحياة؟

قلت: لا شك أنه لو ترك عمال النظافة التنظيف أسـبوعا واحدا لامتلأت الشوراع بالأوساخ والقاذورات، ولهرب الناس إلى البوادي يطلبون العافية.

قال: فكيف تعتبرون مهن هؤلاء المنظفين خسيسة؟

قلت: فما الأصل الذي دعا الفقهاء إلى هذا؟

قـال: هـو الأعـراف المنحرفـة الـتي أسسـها المـترفون، وأرادوا أن ينسخوا دين الله بها ..

قلت: ولكن العرف مصدر من مصادر الشريعة.

قـال: عـرف الصـالحين، لا عـرف المـترفين، وعـرف المقربين، لا عرف الفاسقين، وعرف السامعين من اللـه، لا عرف المستقبلين لإلهام الشياطين.

قلت: يـا معلم .. أتعلم أن من اكـبر أسـباب البطالـة في عصرنا، والمؤدية إلى الفقر هذا الجانب؟

قال: كيف؟

قلت: إن الكثير من المتخرجين من الجامعات عنـدنا تربـأ أنفسهم في بداية حياتهم العملية من أي عمل قد لا يتناسب مع البذلات التي يلبسونها، فيظلون يحلمون بمكـاتب مكيفـة إلى أن ينطـوي بسـاط العمـر من بين أيـديهم من غـير أن يفعلوا شيئا.

قال: فهلا اقتحموا مسـتنقعات الحيـاة، ليسـتخرجوا منهـا لآلئ النجاح.

قلت: وهل في المستنقعات لآلئ.

قال: اللآلئ والكنـوز في كـل محـل، ففضـل اللـه واسـع وبره عظيم، ولكنه لا ينال إلا الباحثين المجدين.

العموم:

تقـدمنا إلى البـاب الثـالث من أبـواب الخـدمات، فـرأيت أرزاقا شتى تنزل على خلـق كثـير، فلا تمـيز في نزولهـا بين غني وفقير، وشريف ووضيع.

فسألت المعلم عنها، فقال: هذا باب العموم.

قلت: وما باب العموم؟

قال: هو الباب الذي ينتشر منه فضل الله على خلق الله.

قلت: وخدماتنا تنشر فضل الله على خلق الله.

قال: خدماتكم تميز بين الخلـق، فتهطـل وابلا صـيبا على السمان، وتترك المهزولين يموتون بهزالهم.

قلت: ولكن المهزولين ليس لديهم من المال ما يسددون به ثمن الخدمات.

قـال: الخـدمات حـق من حقـوق الخلـق، ولا علاقـة لهـا بقدرتهم على السداد.

قلت: فكيـف يتمـبز الأغنيـاء عن الفقـراء إذن إذا تسـاووا في الخدمات؟

قال: الأغنياء يملكون، والفقراء يستفيدون.

قلت: فهم طفيليون إذن.

قال: لا .. الطفيلي هو الذي يستفيد من غير أن يكون لــه حق في الاستفادة، أما الفقراء فيستفيدون ما هو حق لهم.

قلت: بأي وصف نالوا هذا الحق؟

قال: بوصف فقرهم.

قلت: وهل الفقر صك يجوز لهم تناول الخدمات من غــير أن يدفعوا ما يقابلها؟

قــال: نعم .. فلا ينبغي أن يحــرم الفقــراء من حقــوقهم بسبب فقرهم.

الرعاية:

تقــدمنا إلى البــاب الرابــع من أبــواب الخــدمات، فــرأيت عمالا بثياب مهنهم، منشغلون انشــغالا كليــا، فلا تطــرف لهم عين، ولا ينشــغل منهم عضــو بغــير مــا هم فيــه، فقلت في نفسي: ما أصدق هؤلاء العمال، وما أعظم إخلاصــهم، ليتــني قـــــدرت على حملهم إلى بلادي .. إذن لنجحت في كـــــل مشروع أقوم به.

وبينمــا أنــا كــذلك إذ رأيت شخصــا لا يكــاد يختلــف عنهم، ولكنه مع ذلك يبدو أنه صاحب المصنع، فقــد كــان يتفقــدهم، ولكنه لا يتفقد فقط إتقــانهم، بــل يتفقــد حاجــاتهم، ويســألهم عن أهلهم، ويعطي كل واحد منهم ما يحتاجه، وهم يبتسمون له، ويبتســم لهم، فقلت: لا غرابــة أن يصــدر منهم كــل ذلــك الإخلاص، ورئيسهم يتعامل معهم بهذا الأسلوب.

قــال: نعم، فهــذا بــاب الرعايــة، وهــو البــاب الــذي يخــدم أصحاب الخدمات .. فلا يمكن للخــدمات أن تتم، والقــائمون عليها ضائعون.

قلت: أتقصد حقوق العمال؟

قال: الرعاية أعظم من الحقوق .. الحقوق فيها نفحة من نفحات الصراع .. أما الرعاية ففيها نفحة من نفحات الأبوة والأخوة ..

قلت: فما الفرق بين الرعاية والحقوق؟

قال: من وجوه شتى، أقلها أنكم لا تعتبرون الابتسامة حقا من الحقوق.

ضحكت، وقلت: الابتسامة .. وما جدواها .. لا هي تطبخ، فتؤكل، ولا هي تفصل، فتلبس.

قال: وهل الحياة أكل ولباس؟ أين المشاعرالطيبة، والنفس المطمئنة الوديعة، ألم يكن من سنة رسول الله ﷺ طلاقة الوجه وانشراح الأسارير والابتسامة إلى درجة أن لوحظ ذلك عليه، فقال بعضهم: ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله ﷺ (1).

قلت: أجل، ولهذا لا تذكر وجوه المؤمنين في القرآن إلا مستبشرة منطلقة مسفرة ضاحكة، ولا تذكر وجوه غيرهم إلا وعليها غبرة ترهقها قترة.. وقد بين ﷺ الثمرة التي تجنى من هذا السلوك السهل البسيط الذي ينتفع به الجسم والروح والأهل والمجتمع بقوله:) إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط الوجوه وحسن الخلق) (2)

قلت: فنحن نسمي هذا النوع من الحقوق:(الحقوق النفسية)

قال: سموها بما تشاءون .. المهم أن تعيشوها وتطبقوها.

قلت: لا أكتمك أن كثيرا من الرؤساء عندنا يحرصون على ألا يظهروا إلا بوجوه عابسة مكفهرة.

1(1) رواه الترمذي وأحمد.

2(1) رواه ابن أبي شيبة.

قال: لم .. أهم في مأتم دائم؟

قلت: لا .. ولكن يخشـــون إن أظهـــروا بعض التواضـــع لعمالهم أن يتسلطوا عليهم .. أو يستهينوا بأعمالهم.

قـــال: الصـــراع إذن هـــو الســـبب .. ألم أقـــل لـــك: إن الصراع هو سم الحياة .. فليتعلموا السلام.. فلا يبتســـم إلا من تعلم السلام.

قلت: فهمت الحق الأول، فما الحق الثاني؟

قال: هو ما عبر عنه ﷺ بقوله:(اعطوا الأجـير أجـره قبـل أن يجـــف عرقـــه)(1)، بـــل أخـــبر ﷺ أن من الثلاثـــة الـــذين يخاصمهم الله يوم القيامة:(ورجل اسـتأجر أجـيرًا فاسـتوفى منه، ولم يعطه أجره)(2)

قلت: تقصد حق العامل في أجرة عمله.

قال: أجل .. فهذا من الجهد المشروع المتج.

قلت: نحن لا نختلـف في هـذا .. فليس هنـاك عامـل في الدنيا إلا وينال أجره.

قـــال: لا .. أنتم تظلمـــون العمـــال ظلمـــا عظيمـــا .. فلا تعدلون في الأجور .. بـل تجعلـون النـاس طبقـات مختلفـة، فترفعون المرتفع، وتخفضون المنخفض.

قلت: أتريد أن نخفض المرتفع، ونرفع المنخفض ليتساويا .. هذه شيوعية.

قال: هذه عدالة .. وسمها بأي اسم شئت؟

قلت: كلامك صحيح.. ولكن الأمر مختلف عندنا ..

قال: لقد خالفتم فخولف بكم.

---

1) رواه ابن ماجة.

2) رواه البخاري.

قلت: ما هذا؟

قال: ألا تعلم أن الله لا يغير عادته مع قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

قلت: بلى.

قال: فالله تعالى أكرمكم بما أكرمكم به من عزة وعـدل ووحدة، فلما خالفتم أصابكم ما أصاب كل مخالف، ألم تسمع قوله تعالى: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (مريم:59)، فاحذروا من الغي؟

قلت: هو واد في جهنم.

قال: ومثله وديان في الدنيا .. فالله ديان الدنيا والآخرة.

قلت: يا معلم .. دعنا من الوزراء ومن فوقهم، ولنتكلم عمن تحتهم.

قال: سل ما بدا لك.

قلت: إن من قومي من يجعلون المستأجر حرا في التعامل مع أجرائه، فالمال ماله والعمل عمله، فلذلك له أن يفرض من الأجور ما يشاء .. أما العميل فهو بين أن يقبل أو يرفض.

قال: هذا صحيح، فقد وسع الله على الخلق في هذا الباب، وهو ما يدعو إلى التنافس.

قلت: ولكن هذا قد استغله البعض فظلموا العمال مستغلين حاجتهم.

قال: يمنع الظالم من ظلمه.

قلت: ولو بمخالفة ما ذكر الفقهاء.

قال: الفقهاء ذكروا لأصل .. ولكنهم يتفقون على تحريم

الضـرر، فلـذلك لـو ظلم العامـل بطلب مـا يفـوق أجـره، أو طلب المستأجر بما يفوق عمل العامل رد إلى العدل.

قلت: أهذا تسعير للأجرة؟

قال: لا .. هذا رد للعـدل .. فلا يحـل لأحـد أن يظلم أحـدا مستغلا حاجته وضرورته.

قلت: فما **الحق الثالث**؟

قال: حق الراحة بعد العناء، والتفرغ لله بعد النصــب، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الشرح:7 ـ 8)

قلت: بلى .. ولكن ما محل هذه الآيـة هنـا .. هي تتحـدث عن رسـول اللـه ﷺ تقـول لـه:(إذا فـرغت من أُمـور الـدنيا وأشـغالها، وقطعت علائقهـا فانصـب إلى العبـادة، وقم إليهـا نشيطاً فارغ البال، واخلص لربك النية والرغبـة).. ولكن هـذا المعنى لا علاقة له بهذا الباب.

قـال: كيـف يتفـرغ العامـل للـه إن لم تـترك لـه فرصـة للتفرغ.

قلت: له فرصة للتفرغ كل يوم في وقت الراحة.

قـال: تلــك الفرصــة اليوميــة، وأنتم تفســدونها بــبرامج أعمالكم.

قلت: وهل هناك فرصة أخرى.

قال: فرصة العمر .. الراحـة الـتي يتسـلمها العامـل بعـد انتهاء أشغال العمر.

قلت: تقصد التقاعد.

قـال: أنتم تسـمونها كـذلك .. أمـا نحن فنسـميها التفـرغ لله .. ألم تقرأ ما ذكره بعض السلف عن أهل المدينة؟

قلت: تقصد قوله عن تفرغ أهل المدينة لله إذا بلغوا الأربعين.

قال: أجل، ويشير إليه قوله تعالى: حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (الاحقاف: 15)

قلت: أتقصد أن نجعل سن التقاعد يبدأ من الأربعين، إن العامل عندنا يبدأ عمله من الأربعين، ويتزوج في سن الأربعين ..

قال: أنا لا أحدد لك سنا معينة، ولست أعني بالتفرغ ما تفهمونه من التقاعد .. فأنتم أعلم بأمور دنياكم.

قلت: وماذا تعني؟

قال: أعني أن يمنح العامل في سن معينة ما يتيح له أن ينصب لله بعد نصبه في عمله.

قلت: تقصد أن يخفف عنه.

قال: بحسب عمله .. أما أصحاب الأشغال الشاقة فبحسب ما تتيح لهم وظائفهم .. وأما العالم فمن المحبرة إلى المقبرة .. إلا إذا قعدت قواه العقلية عن ذلك.

بعد أن قال ذلك فتح لنا الباب .. لكنا ما إن سرنا قليلا حتى رأيت بابا عجيبا، علقت عليه لافتة مشعة مكتوب عليها قوله تعالى: وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (قريش: 4)

ورأيت في مدخل الباب أقواما هم أشبه بالجنود والشرطة، ولكنهم لا يحملون أذناب البقر، ولا يعبسون في وجوه الناس، ولا يرتدون الخوذات الواقية.

فقلت للمعلم: ما بال هؤلاء .. ألا يخافون أن تطحن رؤوسهم بالحجارة، ومن يرهبهم وهم لا يحملون أذناب البقر؟

ضحك، وقال: وما أذناب البقر؟

قلت: تلك التي أخبر عنها ﷺ بقوله:(صنفان من أهل النار لم أرهم بعد: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا)(1)

قال: وهل ذكر رسول الله ﷺ هؤلاء ليحث على الاقتداء بهم، أم ذكرهم ليستهجن أسلوبهم؟

قلت: بل ذكرهم كرمز للقمع والظلم.

قال: فاعلم إذن أن السلام لا يصنعه هؤلاء، فالأمن لا تحققه الهراوات، ولا المدافع، ولا السجون..

صحت: فما الذي يحققه؟ .. وما الذي يردع النفوس الظالمة، والقلوب القاسية، والعيون المتحجرة؟ .. من الذي

---

1) رواه مسلم.

يحطم ذلـك الكبريـاء الـذي تمتلئ بـه نفـوس المجـرمين، فيقدمون أنانيتهم على كل شيء؟

قال بهدوئه المعتاد: السلام.

قلت: أبهذه البساطة؟ .. إن الأمر أخطر من هذا بكثير.

قـال: أنتم تبحثـون عن الأمن .. ولا يمكنكم تحقيقـه إلا بالسلام ..

قلت: ومن نسـالم .. أنسـالم الـذين يقتلوننـا، ويمـدون أيديهم لدمائنا يمتصونها؟

قال: نعم .. السلام لا يتعامل مع كل شيء إلا بالسلام.

قلت: أنت تحيرني يا معلم .. فأفصح .. فقد يفهم كلامـك خطأ، فالسلام عند بعضنا مرادف للخنوع والذلة.

قال: لا .. السلام هو العزة والكرامة والرفعـة .. ولا يصـح أن يرادف الخنوع والذلة.

قلت: فكيف نتعامل إذن مع من يظلموننا؟

قال: بالسلام تتعامل مع من يظلمك، ومن لا يظلمك.

قلت: لقد عدنا يامعلم، فوضح.

قال: أجبني: في أي باب نحن؟

قلت: في باب الحماية.

قال: وما تعني الحماية؟

قلت: الأمن.

قال: أي أمن؟

قلت: الأمن الداخلي والخارجي.

قال: فبم يتحقق الأمن الداخلي والخارجي؟

قلت: أما الأول فيتحقق بمجوعات كثيرة منها الشرطة والمخابرات وفرق التدخل السريع والحرس الملكي أو الجمهوري أو الوطني أو .. وأما الثاني، فيتحقق بالجيش وبالأسلحة التي تمتلكها الجيوش.

قال: فقد ذكرت صنفين من أصناف الحماية.

قلت: أجل: حماية داخلية، وحماية خارجية.

الحماية الداخلية:

قال: فلنبدأ بالحماية الداخلية.

قلت: هي الحماية التي تمثلها الشرطة وغيرها من المكلفين بحفظ الأمن الداخلي.

قال: فما وظيفتهم؟

قلت: يراقبون حركات المجتمع، ليردعوا الظالم، ويعينوا المظلوم.

قال: أهذه هي الحماية في تصوركم؟

قلت: أجل، وفي تصور جميع الناس، ولا أرى أن هناك تصورا آخر .. بل لا أرى أنه يمكن أن تكون هناك مدينة بلا شرطة إلا في حالة واحدة هي أن يكون سكان المدينة ملائكة لا بشرا.

قال: ولكن الجنة مدينة الحضارة الربانية لا تحتوي على الشرطة.

قلت: تلك الجنة، وهي التي قال الله تعالى فيها:﴿ وَنَزَعْنَـا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَـارُ﴾ (لأعـراف: 43)، وقال فيهـا:﴿ وَنَزَعْنَـا مَـا فِي صُـدُورِهِمْ مِنْ غِـلٍّ إِخْوَانـاً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر:47)

قال: فما تعني؟

قلت: إن طهارة قلوب أهل الجنة تجعلهم لا يحتاجون إلى الشرطة.

قال: لماذا؟

قلت: لأن أساس الجرائم جميعا مهما تنـوعت يرجـع إلى الصدور المملوءة بالأمراض من غل وحسد وحرص وجشع .. فلولاها لما ظهرت السرقة والقتل وجميع أنوع الجنايات.

قال: فسبب الجرائم الداخلية إذن هي الصـدور المظلمـة بأوزار الذنوب.

قلت: أجـل، لا شـك في ذلـك .. ولهـذا خلت الجنـة من الجرائم لطيبة أهلها، كمـا قـال تعـالى:﴿ وَسِـيقَ الَّذِينَ اتَّقَـوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَـا سَـلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَـا خَالِـدِينَ﴾ (الزمـر:73)، فقد كانت طبيتهم هي المفتاح الذي فتحت لهم به الجنة.

قال: فحضارة الجنة إذن مبنية على طيبة أهلها.

قلت: إلى الآن ـ يا معلم ـ لم أفهم سر تعبيرك عن الجنة بكونها حضارة .. الجنة هبة ربانية، وليست حضارة مكتسبة.

قال: ستفهم سر هذا عندما نرحل إلى (دور السـعادة) .. ولكن أليس تفاضل أهل الجنة في الجنة منطلقه الكسب؟

قلت: بلى، قـد قـال تعـالى:﴿ وَنُـودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ

أورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (لأعراف: 43)

قال: فالحضارة كذلك هبة من الله، وهي تنال بالكسب، وهي درجات قد تصلون إلى قمتها إذا تحققتم بما يتطلب هذا الكسب من سلوك.

قلت: فهمت هذا .. ولكني لم أفهم تحقيق الحماية بالسلام بدل الشرطة.

قال: أنا لم أقل:(استغنوا عن الشرطة، وعن جميع الأجهزة المذكورة) ولكني قلت: علموا الشرطة أن يقضوا على الجريمة بالسلام.

ضحكت، وقلت: عدنا إلى السلام.

قال: نعم .. فهو الحل .. وهو مفتاح الحضارة .. فلا يمكن لأمة أن تتحضر الحضارة الحقيقية، الحضارة الفردوسية، وهي تصارع.

قلت: أتطلب من الشرطة إذن أن يعلموا السلام.

قال: أجل .. بسلوكهم وأخلاقهم، لا بأذناب البقر التي يحملونها.

قلت: فهمت الآن .. أنت تخالف أساليب الشرطة القاسية.

قال: أنا لا أخالف ذلك فقط .. بل أخالف أساس وظيفتهم التي ينالون عليها رزقهم.

قلت: لقد أقررت بضرورة وجودهم.

قال: أجل .. فوجودهم فرض في الواقع.

قلت: فكيف تناقش في أساس وظيفتهم؟

قـال: أرأيت لـو أن كـل شـرطي وقـف يعلم النـاس مـا يقتضـيه السـلام من أخلاق ممـا يحـد من الجريمـة.. أتبقى هناك جريمة؟

قلت: لعل الناس سيضحكون من سـلوكه، ويقولـون لـه: اذهب إلى المسجد، فهو أولى بك من هذا المحل.

قال: هذه بدع ابتـدعتموها، أو أعـراف تعـارفتم عليهـا، أو سنة من سنن من قبلكم، ومن معكم حذوتم حذوها .. رأيتم الشرطة عابسين فعبستم، ورأيتموهم يحملون أذناب البقـر، فحملتموها، ورأيتم كل شرطي يحمل مسدسـا، فحملتم، ثم تصورتم أن أمنكم موكول بذلك المسدس الذي يحمله ذلـك الشرطي .. ثم لم تكتفـوا بـذلك، بـل رحتم تصـورون الأفلام البوليسـية الكثـيرة، والـتي تبـدأ بـإطلاق الرصـاص، وتنتهي بإطلاق الرصاص.

قلت: هذا واقع يا معلم .. أتريـد من الأفلام البوليسـية أن تبدأ بالمصافحات، وتنتهي بالمصافحات؟

قال: فالشرطي الناجح هو الشرطي الذي ينسى سلاحه.

قلت: سيحكم عليه بالإعدام إن نساه.

قال: ولكنهم لا يحكمون عليه بالإعدام إن لم ينسه.

قلت: هذه وظيفته.

قال: التي ابتدعتموها.

قلت: ولكن الاقتراح الذي تطرحه يكاد يكون محالا.

قال: لقد جربتم الكثير من الطرق والسياسات .. جـربتم الشـيوعية والاشـتراكية الرأسـمالية .. فلا عليكم أن تجربـوا هذا الاقتراح.

قلت: أتقصد أن نعلم الشرطة الأخلاق بدل تعليمهم السلاح.

قال: السلاح يتعمله كل مؤمن لوجه الله، ولا يتعلمه الشرطي فقط، والأخلاق يتعلمها كذلك كل مؤمن.

قلت: فبم يتميز الشرطي؟

قال: بالسلوك والتعليم.

قلت: إذن يصبح كل الشرطة معلمين .. فكم من المدارس يكفي لذلك؟ وأين نضع المعلمين؟

قال: لا .. الشرطة يعلمون في الشوارع والطرقات .. وفي الأسواق والحدائق .. يراقبون سلوك الناس وينصحونهم.

قلت: فهمت .. أنت تتحدث عن المحتسب .. لا عن الشرطي.

قال: لا فرق بينهما .. بل إن ذهاب من تسمونه بالمحتسب هو الذي رفع البركة فملأ دكاكين الشرطة بالزبائن.

ضحكت، وقلت: أللشرطة دكاكين؟

قال: لكل قوم دكاكينهم.

قلت: فمخازنهم إذن هي سجونهم؟

قال: أجل .. فقد ملأتم خزائن الشرطة بجميع أصناف البضاعات البشرية.

قلت: هذا واقع .. فما علاجه؟

قال: أن تلبسوا الشرطي لباس المحتسب .. فلا يتعامل بالسلاح فقط .. بل يتعامل بالعلم والتعليم والتربية والنصح .. فالخلق لا يؤدبهم السلاح .. بل يؤدبهم السلام.

قلت: فهمت الآن قصدك من استخدام السلام وسيلة للحماية.

قال: هذا حل من الحلول .. فالأمن لا يمكن أن يصنعه الشرطي وحده؟

قلت: فمن يصنعهم عداهم؟

قال: ألم تقل بأن النفوس الطيبة لأهل الجنة هي التي منعت ظهور المجرمين؟

قلت: أجل.

قال: فضعوا جزءا من تلك الأموال الكثيرة التي تخدمون بها الأمن في ملأ القلوب بالطيبة ونزع الأحقاد .. فسوف تكفون كل شر.

قلت: بماذا؟

قال: بتعليم السلام .. فإنكم تتفننون في تعليم الصراع أكثر من تفننكم في تعليم السلام.

قلت: نعلم الصراع ..

قال: نعم .. تلك الأفلام البوليسية ألا تعلم الصراع؟

قلت: بلى .. بكل أسف .. بل هي جامعة لتعليم جميع أنواع الإجرام.

قال: فلو أنكم بدلها .. وبدون حاجة إلى مسدسات علمتم الناس فنون الابتسامة العذبة، وفنون ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ

إِلَيَّ يَدَكَ (المائـدة: 28)(1) لتخلـوا عن الصـراع، ولجعلـوا القوي في نظرهم هـو قـوي الـروح لا قـوي الجسـد، فليس الشـديد بالصـرعة، ولكن الشـديد الـذي يملـك نفسـه عنـد الغضب.

قلت: فكيف السبيل إلى ذلك؟

قال: بتعليمهم الإيمان.

قلت: الناس مؤمنون بحمد الله ورثوا الإيمان أبا عن جد.

قال: دعوكم من الإيمان الـوراثي .. فالإيمـان لا يـورث .. الإيمان جدة وحياة، وأنتم تبلونه وتقتلونه بالوراثة.

قلت: فكيف نحييه .. وكيف نجدده؟

قال: نفس الأساليب التي تحيون بها الصراع في النفوس أحيوا بها السلام فيها.

قلت: تقصد التعليم والإعلام ..

قـال: كـل مـا تمارسـونه من أسـاليب لإحيـاء الصـراع مارسوها لتعليم الإيمان الذي هو مفتاح السلام.

الحماية الخارجية:

قلت: حدثني عن الحماية الداخلية، فحدثني عن الحمايـة الخارجية؟

قال: من يتكفل بها بين قومك؟

قلت: الجيوش المجيشة، والآلات العسكرية المتطورة.

قال: فكم تصرفون من أمـوال على هـذه الجيـوش، ومـا

(1) إشـارة إلى قولـه تعـالى:﴿ لَئِنْ بَسَـطْتَ إِلَيَّ يَـدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَـا أَنَـا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة:28)

تستعمله من أسلحة؟

قلت: ما يكفي لإغناء الشعب كله.

قال: وبأي حجة تصرفون كل هذه المصاريف؟

قلت: لا يمكن للناس أن يعيشوا أغنياء، وهم يخــافون، ألا تعلم يا معلم أن الأمن شيء أساسي في الحياة؟

قال: بلى، فقد ذكره اللـه في مواضـع كثـيرة شـرطا من شـروط الحيـاة، وركنـا من أركانهـا.. ولكن مـا علاقـة هـذه الجيوش بالأمن؟

قلت: هي التي تحمينا إن داهمنا العدو.

قال: اذكر لي مثالا واحدا حمت فيـه الجيـوش بلادهـا من الاستعمار.

قلت: الآن .. لا أذكر .. ولكن لا أتصـور أن للجيـوش دورا آخر غير حماية بلادها.

قـال: سأضـرب لـك مثـالا عن دولـة من دولكم صـرفت أموالا ضخمة على جيوشها، وعلى ترسانتها العسـكرية حـتى أصبحت قوة من القوى يحسب لها كل حساب .. أتـدري من هي؟ وما مصير جميع أسلحتها؟ بل ما مصير شعبها؟

قلت: أجل .. أدري، وأتأسف.

قال: على ماذا تتأسف؟

قلت: على الذي حل بها .. فهم قوم من قومي ممتلئــون طيبة وكرامة وإيمانا.

قـال: السـلام لا يحب التأسـف، ولايحب المتأسـفين، ألم تسمع قوله تعالى: لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ

﴾ (آل عمران: 153)

قلت: بلى .. ولكنه حادث عظيم.

قال: ولكن العبرة منـه ــ إن اسـتفدتم منهـا ــ قـد تكـون أعظم مما فاتكم .. فالأسف لا يجدي، ولا ينفع.

قلت: وبماذا نعتبر؟

قــال: أنتم منــذ فــترة طويلــة تتأســفون على تخلفكم العســكري، ولا تتأســفون على تخلفكم الأخلاقي.. فجــاءت هذه الأحداث لتنبهكم على أن التقدم العسكري لا ينفع وحده .. بل قد يكون داء من الأدواء الخطيرة ..

ثم سكت برهة، وقال: هيا لنمحو بعض الـزمن .. أو لنعـد تركيب الزمن .. ولنبحث عن موضع العبرة.

قلت: نمحو الزمن .. ونركب الزمن .. كيف؟

قال: لنفرض أن تلك البلاد توجهت بجميع ما آتاها الله من ثـروة في خدمـة اقتصـادها وشـعوبها وسـمعتها الطيبـة في العالم .. بحيث صارت مضرب المثل في كرامتهـا وشـهامتها ونبلها .. وصار حكامها مضرب المثل في عـدلهم وإخلاصـهم وحكمتهم .. ولنفـرض جـدلا أنهم لم يصـنعوا أي سـلاح.. بـل ولم يـدربوا أي جنـدي .. هـل كـان يمكن أن يحـدث لهم مـا حدث؟ .. أو يمكن أن يحصل لجيرانهم بسببهم ما حصل؟

قلت: إن شئت الصدق .. فإنه لو حصل مـا ذكـرت لتغـير التاريخ تماما.

قال: كيف؟

قلت: دعني أجنح بخيالي لأرى ما سيمكن أن يحصل.

قـال: اجنح بخيالـك .. فلا خـير فيمن لم يسـتعمل هـذه الطاقة العظيمة التي وهبها الله له.

سرحت بذهني أقـول، وكـأني أرى مـا أقـول: تلـك ثـروة عظيمة من الله بها علينـا، فرحنـا نحسـبها .. نقسـمها فلسـا فلسا .. وضعنا نصيبا وافرا منها في خطة مستعجلة للقضـاء على الفقـر وقتلـه.. ونصـيبا آخـر لرفـع الاقتصـاد وبنـاء المؤسسات التي لا تحوجنـا لأحـد من الخلـق .. ونصـيبا آخـر لنشـر العلم وبجانبـه التربيـة .. ونصـيبا آخـر للإعلام .. ننشـر القنوات الفضائية الملتزمة .. وننشر الكتب بكل لغات العالم .. لنعود كمـا كنـا مهـدا للحضـارة .. وحينهـا ستشـتاق جميـع أفئدة العالم لزيارة بلادنا، والتبرك بثراهـا.. وسـوف لا نبخـل عليهم .. بل نحسن معاملتهم .. ونتألف قلوبهم، ونـريهم من نحن، بل نريهم حقيقة الإنسان التي غفلوا عنها.

قال: والميزانية العسكرية الضخمة؟

قلت: لن نحتاج إليها .. لأن الحب الذي عمرنـا بـه قلـوب العـالم نحونـا يجعلهم لا يفكـرون في غزونـا ولا قهرنـا ولا الاستيلاء علينا، فإن فكروا لم يجدوا الشعوب التي تؤيدهم .. ولم يجدوا من شعوبنا من يقف معهم.

قال: فإن فكروا، ودخلـوا .. وليس لكم أي جنـدي، ولا أي سلاح .. فماذا تفعلون؟

قلت: لن يتغير الموقف كثيرا .. بل لعل الموقف سيكون أحسن من وضعنا الحالي.

قال: كيف؟

قلت: سـيدخلون من غـير أن يـدمروا .. لأنهم لن يجـدوا السلاح الذي يخافون منه.

قال: ولكنهم سيرهبونكم بسلاحهم.

قلت: ولكن القوة التي بثها فينا العلم والتربية لن تسمح لهم بأن يغزونا .. ألا تعلم أنهم لا يغزون إلا من وجدوا فيه الاستعداد لأن يغزى .. هم كالذباب تماما لا يقعون إلا حيث توجد المستنقعات والقاذورات.

قال: فقد أجبت عن سؤالك ..

عدت إلى نفسي، وقلت: أي سؤال؟

قال: ألم تكن تحيل أن تكون هناك دولة بلا جيش؟

قلت: بلى .. ولا زلت أقول باستحالة ذلك.

قال: فماذا يفعل الجيش؟ .. وماذا تفعل الترسانة العسكرية المتطورة التي تسرفون في تدليلها؟

قلت: هي ثقل علينا، وعلى اقتصادنا .. ومع ذلك نرى لزومها.

قال: سمعت أنكم تشترون أسلحة متطورة .. وطائرات ضخمة .. ممن تشترونها؟

قلت: إن شئت الصدق، فنحن نشترها من أعدائنا .. لأنه ليست لدينا صناعات متطورة في هذا الميدان، كما في غيره من الميادين.

قال: وهل أعداؤكم ينصحونكم إلى هذه الدرجة، بحيث يبيعونكم هذه الأسلحة المتطورة.

قلت: هي على الأقل تقف لنتفرج عليها ..

قال: فإذا تطورت الأسلحة .. واستحدثت أسلحة جديدة .. ماذا تفعلون؟

قلت: سنعوض القديمة بالجديدة.

قال: فمن يستفيد من كل هذا؟

قلت: إن شئت الصدق .. لا يستفيد من هذا إلا تجار الأسلحة .. أما نحن، فهذه الأسلحة عبء كبير علينا .. فنحن نحتاج كل لحظة لصيانتها في انتظار أن نرمي قطع غيارها لنلوث بها البحار.

قال: ومن يشترون الأسلحة، هل يفكروون في الغزو بها؟

قلت: هم أضعف في أن يفكروا في ذلك .. بل هم لا يفكرون حتى في مجرد الدفاع بها.

قال: فانصحهم بأن يبيعوا أسلحتهم، ويشتروا بدلها ما ينفعهم وينفع شعوبهم.

قلت: والجيوش .. أتبقى بدون أسلحة؟

قال: انصحهم بأن يستثمروا الأراضي الكثيرة التي وهبكم الله لتشبعوا بطونكم وبطون المستضعفين.

قلت: ما الذي تقول؟

قال: هذا خير لكم من سلاح تعطونه كل ما تملكون من مال وجهد لترموه بعد ذلك في المستنقعات.

قلت: ولكن كيف نحمي أنفسنا؟

قال: بالسلام .. بنشر السلام .. بملأ قلوب العالم محبة لكم وشوقا إليكم .. اجعلوهم ينظرون إليكم كما ينظرون إلى القديسين .. وسوف لن يؤذيكم أحد.

قلت: ولكن هل يمكن أن تكون هناك دولة بلا جيش؟..

إن النظام سيفلت.

قال: النظـام يفلت من الجـور والظلم والاسـتبداد، لا من العدل والرحمة والصفاء.

قلت: ولكن قومي لن يقبلـوا مـا تطرحـه .. أنت تتحـدث عن خيالات.

قال: فما أجـداهم الواقـع .. ومـا أجـدتهم جيوشـهم .. ألا تعلم من وراء أكـــثر الانقلابـــات الـــتي تحـــدث في بلاد المستضعفين؟

قلت: لا شك في ذلك، فنحن نسميها:(انقلابات عسكرية) أي أن العسكر هم سببها.

قال: فالجيش إذن لا يفعل شيئا مع العـدو .. ويفعـل كـل شيء في بلاده.

قلت: هو ماهر في ذلك .. ولعله ماهر في ذلك فقط.

قال: فما الحاجة إليه إذن؟

قلت: يا معلم .. هناك شـيء لم تنتبـه إليـه .. وهـو يـدعو إلى ضرورة الجيش؟

قال: تقصد الحدود.

قلت: بلى .. فنحن نحمي حدودنا من جيراننا.

قـــال: ومن جـــيرانكم؟ .. هـــل المستضـــعفون، أم المستكبرون؟

قلت: لـو كـانوا مسـتكبرين لوهبنـاهم أرضـنا من غـير أن يسألونا، ولكنهم مستضعفون مثلنا.

قال: فلماذا ترهقون أنفسكم وشعوبكم من أجل قطع أرض لا تسمن ولا تغني من جوع؟

قلت: ولكنه الوطن .. ألم تسمع قول الشاعر:

بلادي وإِن جارتْ عليَّ عزيزةٌ وأهلي وإِن ضَنُّوا عليَّ كرامُ

قال: أنتم تتاجرون بالوطن أكثر مما تخدمونه.

قلت: نعم، هناك من يفعل هذا، كما قال الشاعر:

وجدْنا خدمةَ اللأوطانِ فخاً يصيدُ به مطامعَه الأريبُ

وكم مُلِئَتْ جيوبٌ من نُضارٍ بذاكَ كأنما الوطنُ الجيوبُ

ولكن فينا المخلصون لأوطانهم.

قال: الإخلاص لا يكون إلا لله .. فمن أخلص لله أخلص لكل شيء، ومن خادع الله خادع كل شيء.

قلت: حب الوطن من الإيمان .. وهو مفطور في الطباع.

قال: فرق بين أن تحب، وبين أن تتاجر .. وفرق بين أن تحب، وبين أن تظلم .. ألا تعلم أن الإخلاص ينبغي أن يكون لكل الكون لا للوطن وحده؟ .. ألا تعلم أن جميع هذا الكون وطن المؤمن؟

قلت: هذه حقائق كبرى.

قال: فعيشوها .. فالحقائق الصغرى تقتلكم وتبيدكم وتجعل قراكم كقرى النمل، وبيوتكم كبيوت العنكبوت.

قلت: فأنت تدعو إذن للعالمية والوطن الإنساني.

قال: مخطئ أنا إن قلت ذلك.

قلت: فقد كنت تقوله.

قال: أنا أدعو إلى الأخوة الكونية، والوطن الكوني .. فمـا العالم إلا جزء من الكون .. ومـا الإنسـان إلا فـرد من أفـراد العالم.

قلت: أتريدنا أن نؤاخي الملائكة وسكان الكواكب ..

قال: الملائكة والجن وكل سكان الكون .. ألسـنا نشـترك في العبودية لله؟

قلت: أجل .. ولكن لكل منا خصائصه ومزاياه.

قـال: الخصـائص والمزايـا المختلفـة تـدعو للتعـارف لا للتنـافر، وتـدعو للأخـوة لا للعـداوة .. وتـدعو للانسـجام لا للانفصال .. سمعت بعضكم يقـول:(غـزو الفضـاء) أتفكـرون في غزو الفضاء أيضا؟

قلت: لا تلمهم يا معلم .. فقد تفرجوا في الأفلام الخياليـة كيف يحاربون سكان الكواكب المختلفة.

قال: أتدري ما منبع هذا التعبير؟

قلت: ما منبعه؟

قـال: تلـك الجيـوش الـتي تتفننـون في صـناعتها ونشـر قواعدها وتطوير أسلحتها .. تلك القوة التي صاحت بها عـاد، فقالت: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً (فصلت: 15) .. فماذا فعل الله بهم؟

قلت: أبيدوا عن آخرهم.

قال: فهل نفعتهم قوتهم؟

قلت: كما لم تنفعنا قوتنا.

قال: فاعتبروا بهم، واعتبروا بأنفسكم، واعتبروا بعدوكم.

قلت: بعدونا.

قال: أجل .. سمعت أنكم في هذا القرن تجرعتم غصص حربين متتاليتين حصدت الأخضر واليابس.

قلت: أجل .. هما الحربان العالميتان الأولى والثانية .. وقد قتل فيهما الملايين .. وشرد عشرات الملايين .. وآثارهما لا زلنا نعيشها إلى الآن.

قال: أتدري سبب تلك الحروب؟

قلت: أحداث تاريخية .. فألمانيا ..

قال: دعنا من التاريخ .. ولنبحث في السنن .. إن تلك الجيوش غرتها قوتها وغرها سلاحها وغرها فوق ذلك الفراغ القاتل الذي تعانيه، فراحت تبحث لها عن حرب تتذرع لها الذرائع.

قلت: هذا صحيح ..

قال: هذا هو السبب المباشر .. ولو أن ذلك الجيش كان عمالا في المصانع والمزارع .. ولو أن الباحثين توجهوا إلى الزراعة والصناعة وامتطاء سنن الله، لكان واقع الآن خلاف ذلك تماما.

قلت: فأنت تدعو لإلغاء الجيوش.

قال: لا جيوشكم وحدها، بل جيوش العالم جميعا .. فلم يصدر شر في العالم إلا بسببها .. ولعلي أجد من أنصار الإنسان من يقف معي يدعو لإلغاء الجيوش، كما وجدت الحيوانات أنصارا لها تحميها من الانقراض.

قلت: ولكن الجيوش هي التي خلصت المستضـعفين من نير الاحتلال، وهي التي ..

قال: عندما تجدون جيوشا كتلك الجيـوش طـالبوا بعـودة الجيوش.

قلت: وقبل ذلك .. إن داهمنا عدو ماذا نفعل؟

قال: تعاملوا معهم كما تعامل أسلافكم مع التتر.

قلت: وما فعلوا؟

قال: حولوا المنتصر إلى دين المنهزم .. فسلم الأمر لهم من غير سلاح.

قلت: كيف هذا؟

قال: لأنه لم يكن للعدو فضل ثقافة .. كان فارغـا كفـراغ أعـدائكم .. فلمـا دخلـوا امتلأوا، أو امتلأت فطـرهم برؤيـة الحق، فصاروا أنصارا للحق.

قلت: أنت تدلنا على طرق جديدة للدفاع.

قال: سمها:(تقوية الجبهة الداخلية)

قلت: نحن نطلق هذا على الجيوش.

قال: فأطلقوها على جبهات الأنفس .. فلا خير في جندي مدجج بجميع أنواع الأسلحة .. وباطنه خراب في خراب.

قلت: ولكن الله تعالى يقول: وَأَعِـدُّوا لَهُمْ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَـاطِ الْخَيْـلِ تُرْهِبُـونَ بِـهِ عَـدُوَّ اللَّهِ وَعَـدُوَّكُمْ (لأنفال:60)، فقد أمر بالإعداد.

قال: وبمـاذا أمـر قبلـه؟ .. فالسـورة جميعـا تتحـدث عن

الإعداد ..فلا تأخذوا ببعض الكتاب، وترفضوا بعضه.

قلت: تبدأ هذه السورة بالحث على طاعـة اللـه ورسـوله وإصلاح ذات البين، كما قـال تعـالى: يَسْـأَلونَكَ عَنِ الْأَنْفَـالِ قُـلِ الْأَنْفَـالُ لِلَّهِ وَالرَّسُـولِ فَـاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْـلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (لأنفـال:1)، ثم تـبين صفات المؤمنين، قال تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُـونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِـرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُـوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُـهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانـاً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (لأنفال:2)

قال: فإن وجدتم جيشا كهـذا، فعلمـوه السـلاح، وأعطـوه السلاح.

قلت: فإن لم نجد.

قال: إن لم تجدوا مثل هؤلاء .. فلا تعطـوهم السـلاح، لئلا يجرحوا أنفسهم به.

قلت: ولكنهم ليسوا أطفالا .

قال: من لم يكن كمن وصـفهم اللـه من المؤمـنين، فهـو أقل عقلا من الأطفال.

قلت: بجـد تحـدثني يـا معلم .. فـإن قـومي سـتمتلئ أفواههم ضحكا إن سمعوا هذا الكلام.

قال: فليضحكوا .. هذا خير من أن يبكوا.

قلت: ولكنهم سيضـحكون عليـك .. وعلي تبعـا لـك .. ولعلهم يملؤون الجرائد استهزاء وسخرية.

قال: فقـد ملأوهـا قبـل ذلـك صـيحات حماسـية .. فمـاذا فعلوا بعدها؟

قلت: نكسوا على رؤسهم .. وكتموا دمعات حارة في مآقيهم.

قال: فليعتبروا بتلك الدمعات .. وليرسلوها ولا يكتموها كما لم يكتموا ضحكاتهم.

قلت: نحن نحسن كتمان البكاء .. ولكنا لا نحسن كتمان الضحك.

قال: واجهوا أنفسكم .. اصرخوا ببكائكم وبضحككم .. انتقدوا أخطاءكم .. قاوموا الدجل الذي تعيشونه .. فلن ترتفعوا قيد شبر، وأنتم راضون عن أنفسكم ساكنون لها.

قلت: ولكن أرضنا ضاعت .. ونحن لا نزال نصرخ.

قال: أنتم ضيعتموها .. لقد كانت لكم أسلحة كثيرة، وجيوش جرارة .. ولكن لم يكن هناك فرد واحد يستطيع أن يحمل السلاح .. فلذلك سلمتم أرضيكم وأراض كثيرة جديدة من أراضيكم .. ثم بكيتم كثيرا .. ثم ضحكتكم .. ثم أنتم الآن تعيدون المهازل من جديد .. فدعهم يضحكون .. وأوصهم فقط بأن يضعوا أيديهم على أفواههم عند الضحك حتى لا يدخل الذباب إلى أفواههم فيستعمرها، كما استعمر أراضيهم.

مفتاح المصلحة

بعد أن قال ذلك فتح لنا الباب .. لكننا ما إن سرنا قليلا حتى رأيت بابا عجيبا، علقت عليه لافتة مشعة مكتوب عليها قوله تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾(القصص: 77)، وقد برز منها شعاع رسم صورة جيش من العمال، له أياد كثيرة، تتوزع على الوظائف المختلفة، ولم يكن هذا غريبا في نظري، ولكن الغريب أن جميع هذا الجيش يتحرك بقلب واحد ينبض بالحياة، وقد كان لذلك القلب عينان، لا كسائر العيون، أما إحداهما، فتتوجه إلى السماء مستغرقة فيها غافلة عما حولها.. وأما الثانية، فتتوجه إلى حركات الأيدي، فتتنسق بينها، وتنظم حركاتها.

سألت المعلم عن سر هذه الصورة، فقال: هذه صورة رمزية لباب المصلحة.

قلت: فما سر القلب الواحد، والأيدي الكثيرة؟

قال: القلب الواحد يدل على الهدف الواحد الذي تتوزع الوظائف والأيدي على خدمته، فالوظائف كثيرة، ولكن المصالح محدودة.

قلت: وما سر العينين الغريبتين؟

قال: العينان إشارة إلى قبلة المصالح.

قلت: أللمصالح قبلة؟

قال: للمصالح قبلتان، لكل قبلة عينها، مصالح الدنيا ومصالح الآخرة.

قلت: ولكن قومي يقصرون المصالح على مصالح الدنيا.

قال: هم كالدجال .. أليس الدجال أعور؟

قلت: ولكنهم يرون بأبصارهم.

قال: كل من اقتصر في أي جهد يبذله على مصالح دنيـاه غافلا عن مصالح أخراه فهو أعور.

قلت: فمـا مصـالح الآخـرة الـتي يتوجـه جهـد المـؤمن لتحقيقها؟

قـال: المـؤمن في حياتـه لا يبـذل جهـده إلا في مصـالح آخرته، فهو لا يحب الآفلين.

قلت: ولكن لا بد لـه من أن يتنـاول الـدنيا .. أليس بشـرا يحتاج من المرافق ما يحتاجه البشر؟

قال: أجل .. وهـو يتنـاول من دنيـاه لأخـراه .. فلا تحجبـه دنياه عن أخراه.

قلت: لا أفهم هذا .. فالدنيا دنيا، والآخرة آخرة.

قـال: مثـل ذلـك مثـل قـوم مسـافرين، وليس لهم من المطايا ما يتنقلون عليـه، فراحـوا يخـترعون صـنوف الحيـل ليقطعوا طـريقهم، فهم في ظـاهرهم يلهـون ويلعبـون، وهم في حقيقتهم يقطعـون المفـاوز الـتي تحـول بينهم وبين أوطانهم.

قلت: لقد ذكرتني بما كنت أفعله في صغري مع رفـاقي، فقـد كنـا نحتـال على بعـد المسـافة بالتسـابق والعـدو .. فسرعان ما نقطع طريقنا من غير تعب ولا عناء.

قال: فهكذا يقطـع أهـل الآخـرة مفـازات الـدنيا، فهم في ظاهرهم من أهل الدنيا، وفي حقيقتهم من أهل الأخرى.

قلت: ولكن كل الناس يعدون، ويتسابقون، فكيـف أفـرق بين أهل الدنيا، وأهل الآخرة؟

قال: هم لا يكادون يفترقون في حركات أيديهم، ولكنهم يفترقون في هممهم، فعيون أهل البصيرة تتوجه لكلا القبلتين، أما عيون أهل الغفلة، فهي قاصرة على الدنيا، عوراء عن الآخرة.

قلت: أتقصد أن جهود أهل الدنيا هي نفس جهود أهل الآخرة .. والفرق بينهما لا يعدو الهمم والنيات؟

قال: الأصل في الفرق بينهما هو الهمم والنيات .. وهذا الأصل ينبت لكل قوم ما يتناسب مع رغباتهم.

قلت: اضرب لي أمثلة على هذا تقرب لي ما يعز على خاطري تصوره.

قال: أكثر ما يمارسه قومك من الجهود عبث لا حاجة له .. وهم في سبيله يقضون مضاجعهم ومضاجع أهل الكون من حولهم .. ثم لا يكادون يأبهون لما يفعلون.

قلت: وضح ما تريد.

قال: أكثر مصانعكم وملاعبكم ودور لهوكم وعبثكم تحجبكم عن حقيقتكم، وتملأ الكون من حولكم بالضباب.

قلت: وأهل الآخرة، الذين جمعوا بين الدنيا والآخرة.

قال: هم بمنجاة من ذلك كله .. فحياتهم بسيطة، ولكنها تمتئ بالجمال، فالعالم من حولهم من الصفاء والرقة ما يجعلهم يستغنون عن أكثر ما تمارسونه من لهو.

قلت: ومصانع الغذاء واللباس وأصناف المراكب ..

قال: أكثرها مما يمكن الاستغناء عنه .. فقد جعل الله في دار ضيافته ما يغني عن أكثر ما يملأ حياتكم عبثا.

قلت: وعيت هذا .. فما مصالح الآخـرة الـتي ينشـغل بهـا عن أكثر لهو الدنيا وعبثها.

قال: أما العارفون، فقد انشـغلوا باللـه عن كـل شـيء .. فهم في حمى اللـــه، وفي كنفــه، عجلت لهم جنـــانهم، فهم يروحون عليها ويغدون.

قلت: هم ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيـــــــلٌ مِنَ الْآخِــــــرِينَ ﴾ (الواقعة:14)، فحدثنا عن الأكثرين.

قـال: لقـد لاح لهم من نفحـات الجنـة مـا جعـل جميـع حركـــاتهم تنتظم متوجهـــة إليهـــا .. فلـــذلك امتلأت حيـــاتهم بالراحة، كما امتلأت حياة قومك بالعناء.

قلت: كيف تقول عن قومي هذا.. وهم من هم؟

قـال: إن الضـنك النفسـي الـذي يعيشـه قومـك نتيجـة الانشغال بالمصالح التي يوهمون أنفسـهم بهـا لا يعوضـه أي مكسـب كسـبوه أو دنيـاه اسـتفادوها، فمـا الـدنيا إلا لأهـل الطمأنينة والسلام.

قلت: مـا دام أهـل الآخـرة متوجهـون إلى الآخـرة توجهـا كليا، فكيف يتجهون إلى الدنيا، وهـل عنـدهم من الفـراغ مـا يجعلهم يتوجهون إليها؟

قال: ألم أقل لك: إن أهـل الآخـرة لا يفرقـون بين الـدنيا والآخرة، فهم يعيشون الـدنيا بأجسـادهم، ويعيشـون الآخـرة بهممهم وأرواحهم، كما قال ﷺ:(ليس بخيركم من تـرك دنيـا لآخرته، ولا آخرته لدنياه حتى يصيب منها جميعـا، فـإن الـدنيا بلاغ الآخرة، ولا تكونـوا كلا على النـاس)(1)، وقـال:(إذا كـان في آخر الزمان لا بد لناس فيها من الـدراهم والـدنانير، يقيم

---

1) رواه الحاكم.

الرجل بها دينه ودنياه)(1)، وقال:(من استطاع منكم أن يقي دينه وعرضه بمال فليفعل)(2)

قلت: لقـد قـال تعـالى: وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الـدُّنْيَا (القصـص: 77)، فمـا النصـيب الـذي لا ينبغي نسـيانه من الدنيا؟

قال: لقد ذكر الله تعالى مجامع متاع الدنيا، فقـال: زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَـرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَـوَّمَةِ وَالْأَنْعَـامِ وَالْحَـرْثِ ذَلِـكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (آل عمران:14)

قلت: ولكن الله تعالى ذكر هذا بصيغة الـذم بـدليل قولـه بعدها: قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْـوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(آل عمران:15)

قال: لا .. لم يذكر الله تعالى ذلك بقصد الـذم، فاللـه هـو الذي زين فينا محبة تلك الشهوات، وما كان الله ليـذم شـيئا خلقه فينا.

قلت: ولكن النص ظاهر الدلالة على ذلك.

قال: لا .. النص يدل على معـان أعمـق ممـا قـد يوهمـك ظاهره.

قلت: اشـرح لي ذلـك .. فـإني لا أكـاد أفهم منـه غـير ظاهره.

قال: إن الله تعالى يبين في تلك الآيـة الكريمـة مـا جبـل

1) رواه الطبراني.

2) رواه أبو داود.

عليه عباده من حب للشهوات، وهو لم يحرم عليهم تناولهـا، فما كان الأمر التشريعي ليخالف الأمر التكويني، ولكن الـذم متوجه للمنشغل بها المنحصر في أكفانها، الذي حجبتـه عين دنياه عن مصالح أخراه، فلذلك راحت الآيـة تنبهـه إلى عظم الغبن الذي يقعون فيه.

مفتاح الشهادة

بعد أن قال ذلك فتح لنا الباب .. لكنا ما إن سرنا قليلا حتى رأيت بابا عجيبا، علقت عليه لافتة مشعة مكتوب عليها قوله تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً (البقرة: 143)

ورأيت تحتها صورة رجل يتربع على قمة السمو الأخلاقي، والترقي الإيماني، والسلوك الرفيع .. ورأيت خلفه أمة من الناس تسلك سبيله، وتهتدي بهديه، ورأيت خلفهم أمما كثيرة من الناس تنظر إليهم، وتحن لأن تسلك سبيلهم، وتهتدي بهديهم.

سألت المعلم عن سر الصورة، وسر الآية التي وضعت على الباب، فقال: هذا باب الشهادة، وهو وظيفة من وظائف الأمة.. ومسؤولية من مسؤوليات الساسة.

قلت: ما علاقته بالسياسة؟

قال: لأن الساسة هم المكلفون بتحقيق المقاصد الكبرى للأمة.

قلت: فإن قصروا؟

قال: وجب على الأمة أن تنوب عنهم في تحقيق مقاصدها، ووجب عليها أن تبحث عن الساسة الذين يحققون مقاصدها.

قلت: لم أفهم إلى الآن المراد من الشهادة.

قال: الشهادة من أخطر وظائف هذه الأمة.

قلت: أجل .. فقد قال تعالى: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ

أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (الحج:78)

قال: هذه الآية تبين سر الشهادة وشروطها وكيفية تحقيقها.

قلت: فما سر الشهادة؟

قال: لقد كان الصالحون يذكرون أربع مراحل لسير السالكين: أولها السير من النفس إلى الله، وهي رحلة البحث عن الله.. وثانيها: سير الإنسان من الله في الله، بحثا عن معرفة الله .. وثالثها: سير الإنسان مع الله إلى خلق الله .. ورابعها: سير الإنسان مع الله بين خلق الله، لإنقاذ خلق الله .

قلت: فأي سير منها يحقق الشهادة التي هي وظيفة الأمة ووظيفة ساستها.

قال: هي المرحلة الأخيرة من سير السالكين .. وهي رحلتهم لإنقاذ خلق الله من عبودية الشيطان.

قلت: فهمت الآن علاقة ذلك بالسياسة.

قال: فما فهمت؟

قلت: الحاكم هو الذي يسير الجيوش التي تفتح أقطار الأرض، وتجعلها بأيدي المسلمين.

قال: لا .. ليست هذه هي الشهادة .. الشهادة أخطر من هذا .. والحاكم الصالح لا يبحث عن الاستيلاء على الأراضي، وإنما يبحث عن الاستيلاء على العقول والقلوب.

قلت: عرفت هـذا ووعيتـه .. ولكـني لا أزال أتسـاءل عن سر الشهادة التي هي وظيفة هذه الأمة نحو سائر الأمم.

قـال: الشـهادة تتحقـق بـأن تكـون الأمـة نموذجـا صـالحا تهتدي بهديها الأمم، بل تحن لسلوك سبيلها.

قلت: فكيف تتحقق هذه الشهادة في منتهى كمالها؟

قال: بأربع وظائف كـبرى تشـترك الأمـة مـع أولي أمرهـا في تحقيقها.

القوة:

قلت: فما أولها؟

قال: القوة.

قلت: تقصد امتلاك الأمة لأنواع أسلحة الدمار الشامل.

قال: أقصد امتلاك الأمة لأنواع ما يتطلبه السلام الشامل.

قلت: فما يتطلب السلام الشامل؟

قـال: يتطلب تحقــق الإنســان والمجتمــع والأمــة بــأرفع مراتب الكمال الممكن.

قلت: في أي مجال؟

قال: في كل المجالات: المعرفية، والخلقية، والمرافقية.

قلت: ولكن النصـوص تـذم القـوة، وتعتبرهـا من مظـاهر الطغيان .. بـل إن القـرآن الكـريم يعتـبر الفـرح بـالقوة هـو الحائــل بين كــل قــوة عظمى أو صــغرى ــ من الحضــارات الكـبرى أو القبائـل البدويـة البدائيـة البسـيطة ــ وبين قبـول الحــق، كمــا قــال تعــالى ضــاربا المثــل بعــاد: ﴿ فَأَمَّا عَــادٌ

فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُـوَّةً أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُـوَ أَشَـدُّ مِنْهُمْ قُـوَّةً وَكَـانُوا بِآيَاتِنَـا يَجْحَدُونَ(فصلت:15)

وهـو الـذي حـال بين أكـثر القـرى وبين طاعـة أنبيائهـا والإسلام لله، فكان فرحهم حـائلا بينهم وبين كـل خـير، كمـا قـال تعـالى:كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَـانُوا أَشَـدَّ مِنْكُمْ قُـوَّةً وَأَكْثَـرَ أَمْـوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْـتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْـتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَـا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُـوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـالُهُمْ فِي الـدُّنْيَا وَالْآخِـرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِـرُونَ (التوبة:69)

قال: صدقت في كل ما ذكرت، وبورك فيك .. ولكن قوة أهل الله تختلف عن هذا الطغيان الذي سـميتموه قـوة، كمـا سميتم الخمر مشروبات روحية.

قلت: ولكن هـذا المصـطلح واضـح في دلالتـه على هـذا المعنى.

قال: مصطلحات أهل الله تختلف عن مصــطلحاتكم، ألم تسمع قوله ﷺ:(ليس الشديد بالصـرعة، إنمـا الشـديد الـذى يملـك نفسـه عنـد الغضـب)(1)، فقـد بين ﷺ أن المصـارع الحقيقي الذي يتمتع بأعلى درجـات القـوة هـو من أوتي من الحلم ما يجعله يقهر غضبه، كما وضـح ذلـك الحـديث الآخـر، فقـال ﷺ:(أتحسـبون أن الشـدة في حمـل الحجـارة؟ إنمـا الشدة في أن يمتلئ أحدكم غيظا ثم يغلبه)(2)

قلت: تقصد أن نحمي تعاظم القوة بالتخلق.

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب.

قال: لا قوة بلا خلق .. فالتردي الخلقي أعظم ضعف.

قلت: أجل .. ولهذا ربط الله تعالى بين القوة والأمانة، فقال تعالى في قصة موسى ﷺ: قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ(القصص:26)

قال: ذلك صحيح .. فالقوة وحدها بدون أمانة ظلم وعتو،كما أن القوة بدون رأي وحكمة عجز وخور، كما قال تعالى مخبرا عن المجلس الاستشاري لبلقيس مبينا أن القوة الجسمية وحدها لا تكفي بدون قوة الرأي والتدبير: قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ(النمل:33)

لأن أي عمل يستدعي نوعا من القوة مناسبا لأدائه حتى أن ذا القرنين طلب عند بنائه السد أن يمدوه بقوة، كما قال تعالى: قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً (الكهف:95)

قلت: أجل .. انظر ما أجمل أدب ذي القرنين حين قدم فضل ربه على طلب المعونة.

قال: لقد جعل القرآن الكريم ذا القرنين نموذجا للمؤمن القائد القوي.

قلت: لقد رأيت الله تعالى يربط في القرآن الكريم بين الكتاب والقوة، فقد قال تعالى عن موسى عليه السلام عندما أعطاه ألواح التوراة: وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ(الأعراف:145).. وأمر يحي عليه السلام بنفس الأمر، كما قال تعالى: يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ(مريم:12) .. فما سر ذلك؟

قال: إن اللـه تعـالى يـأمر بتوجيـه القـوى المترفعـة نحـو الأخذ بالتكاليف والتقيد بها والتمسك بحبلها لأنها علامة القوة الحقيقية،ولا يمكن أن تؤدى أداء مثاليا إلا بالقوة.

قلت: فلم خص موسى ويحي ـ عليهمـا السـلام ــ بـالأمر بأخذ الكتاب بقوة وشدة وحزم؟

قال: ليس في الأمر تخصيص .. فالله تعالى يخاطب كــل فرد منكم باعتباره يحي وموسى.

قلت: لقـد لاح لي أن سـر ذلـك يرتبـط ببـني إسـرائيل، فأسـلوب تعـاملهم مـع أنبيـائهم وأوامـر ربهم، وهـو أسـلوب الاسـتهزاء والهـزل والتلاعب ومحاولـة الاحتيـال على أحكـام الله، وهو أسلوب صادر عن تصورهم للـه الـذي يمـتزج فيـه الـدين بالعنصـرية والـذهب والأهـواء، ولـذلك وردت الآيـات الكثيرة تخبر عن أمر اللـه تعـالى لهم بالأخـذ بالكتـاب بقـوة حتى أن الجبل رفع فوقهم كأنه ظلة،قـال تعـالى: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَـا الْجَبَلَ فَـوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِـعٌ بِهِمْ خُـذُوا مَـا آتَيْنَـاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(الأعــراف:171).. ولكنهم مع ذلك لم يرتـدعوا ولم يـنزجروا لأن شـراب العجـل الـذي يسري في قلوبهم ويغـذيهم بحب الـذهب يحـول بينهم وبين الطاعة ولو أرادوا الطاعة، قـال تعـالى: ﴿ وَإِذْ أَخَـذْنَا مِيثَـاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُـذُوا مَـا آتَيْنَـاكُمْ بِقُـوَّةٍ وَاسْـمَعُوا قَـالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَـمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(البقرة:93)

قال: هذا بعض الحق.

قلت: فما كل الحق؟

قال: كل الحـق أن يعتقـد كـل فـرد منكم أنـه المخـاطب الأول بــالقرآن الكــريم، فمــوازين اللــه لا تفــرق بين جنس

وجنس، ولا لون ولون.

قلت: عرفت القوة، فما علاقتها بالشهادة؟

قال: الناس تبع للأقوى .. فإن أردتم من الأمم أن تهتدي بهديكم، وتسير مسيرتكم، وتحلم بأن تستظل بلوائكم، فاستظلوا بظل القوة التي لا ترهب الأمم منكم، وإنما تجعلهم ينحنون محبة لكم، وشوقا إليكم.

العدل:

قلت: فما الوظيفة الثانية التي تتطلبها الشهادة؟

قال: العدل.

قلت: العدل مع الرعية؟

قال: لا .. العدل مع العالم .. فالعدل الحقيقي لا يعرف تنوع المكاييل، ولا يفرق بين الأمم.

قلت: أجل .. فقد قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (المائدة:8)، أي لا يحملنكم بُغْض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقا كان أو عدوًا.. ولكن كيف نؤمر بهذا، ونحن نؤمر في نفس الوقت ببغض الكافر؟

قال: لقد أمرتم ببغض كفره، لا ببغض لحمه ودمه وروحه.

قلت: فما الفرق بينهما؟

قال: الفرق بينهما عظيم .. هو كالفرق بين بغض الطبيب

لمريضه، وبغضه لمرضه .. فهل ترى من فرق بينهما؟

قلت: لا شـك في ذلـك .. فـالطبيب إن أبغض المـريض منعه نصحه، بـل لعلـه يحب اسـتمرار المـرض بـه .. أمـا إن أبغض مرضه، فإنه يتوسل بكـل مـا لديـه من صـنوف العلاج ليريحه من علته.

قال: فكذلك أمـرتم أن تفعلـوا .. وبـذلك يكـون العـدل .. فالعدل ينطلق من منابع النفس الطاهرة، وليس مجرد طلاء يتلاعب به القضاة والمحامون في محاكمكم.

قلت: ولكن قومي الذين طبعوا على البغض في الله قــد يأنفون من كثير مما ذكرت.

قال: فادعهم إلى إحياء السنة.

قلت: هم يتصورون أنهم يحيون السنة بذلك.

قال: سنة رسول الله ﷺ أم سنة اليهود والنصارى؟

قلت: وهل هناك سنة لليهود والنصارى حتى تتبع؟

قال: أجل .. فهم الذين يكيلون بالمكاييـل المختلفـة، أمـا أهل الله من المؤمنين، فإنهم لعبـوديتهم للـه، يتعـاملون مـع خلق الله بما أمرهم الله لا بما تأمرهم أهواؤهم .. ألم تسمع قولـه ﷺ:(دعـوة المظلـوم ــ وإن كـان كـافرًا ــ ليس دونهـا حجاب)(1)

قلت: أجل .. فما فيه مما نحن فيه؟

قال: النـبي ﷺ يـدلنا على تحقيـق العبوديـة للـه، بتسـليم خلق الله لله .. فمن أعظم الشرك أن نعتـبر أنفسـنا ديـانين مع الله.

---

(1) رواه أحمد.

قلت: لا أرى في الحديث ما ذكرت .. كل ما فيه هو أن دعوة المظلوم مستجابة حتى لو كان كافرا.

قال: والظلم بمعناه الشامل يدل على ما ذكرت .. أرأيت لو أن بعض الأبناء عق والده، فرحت أنت تسبه وتلعنه .. أيرضي ذلك والده؟

قلت: كلا .. فإن الأب مع بغضه لسلوك ابنه إلا أنه لا يحب أن يمس بسوء، أو يتعدى عليه من أي جهة.

قال: فنزه ربك عن شبه التشبيه .. وطبق هذا المثال على ما نحن فيه.

قلت: إن ما تذكره خطير يا معلم.

قال: هو شعاع من قوله تعالى: وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(سورة الحج: 68-69)، وقوله وهو يخاطب رسوله ـ ومعه كل مؤمن ـ في شأن أهل الكتاب: فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (الشورى:15)

قلت: هذه الآية تحتوي على سبع كلمات مستقلات، كل منها منفصلة عن التي قبلها، لها حكم برأسه.

قال: وكل كلمة منها تنبه إلى المعنى الذي تاه عنه قومك بالبغض الذي أساءوا فهمه.

قلت: فبم تأمرنا الكلمة الأولى؟

قال: بالدعوة .. فأنتم مكلفون بدعوة الناس، لا بالحكم

عليهم، أنتم دعـاة لا قضـاة، معلمـون لا محـامون، مربـون لا مدعون.

قلت: وبم تأمرنا الثانية؟

قال: بالاستقامة التامة الشاملة ..

قلت: فلم لم تذكر في هذا الموقف الاستقامة المطاقـة، كما قال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ (التغابن: 16)؟

قال: لأنك في موقف الدعوة إلى الله ينبغي أن تمثل مـا تدعو إليه بأحسـن صـورة .. وهكـذا الأمـة لا يمكن أن تـدعو الأمم إلى العدل، وهي ترزح تحت نيران الجور، ولا يمكن أن تـدعو إلى رحمـة المستضـعفين، وفقراؤهـا يتقوتـون من المزابل، وينامون على الطرقات.

قلت: وبم تأمرنا الكلمة الثالثة؟

قال: بعدم اتباع الهوى .. فلا تبيعوا الحق بإرضـاء بعضـكم لبعض.

قلت: لقـد رأيت بعض قـومي يـوزع درجـات الجنـة على اليهود والنصارى والمنافقين والفاسقين تأليفا لقلوبهم.

قـال: فمـا دام قـد ضـمن لهم الجنـة، فلأي شـيء يؤلـف قلوبهم؟.. هو يخـونهم ويخـدعهم ويغـرهم عن أنفسـهم .. لا ينبغي أن نبيع الحق بالأهواء .. فالحق أحق أن يتبع .. والعدل يتحقق بالصدق، لا بالخداع والكذب.

قلت: وبم تأمرنا الكلمة الرابعـة، والـتي نص عليهـا قولـه تعالى: ﴿ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾؟

قال: تأمر بمـا تسـمونه بالموضـوعية العلميـة .. فالعـدل يقتضي البعد عن الذاتية، وكل مـا يـؤدي إليهـا.. فقـد أمـرتم

بالإيمـان بكـل مـا يـأتيكم من اللـه، ولـذلك لا تتعـاملوا مـع المخالفين من منطـق أنكم أصـحاب الحـق المحتكـرين لـه، وإنما من منطق الباحثين عن الحق.

قلت: ولكننا أصحاب الحق.

قال: فرق بين أن تكون صاحب حق، وبين أن تحتكــره .. صاحب الحق هو الذي يرجع الأمر لأهله .. أما المحتكر، فهــو لا ينظر إلا إلى نفسه، وما يتطلبه هواه.

قلت: فما الكلمة الخامسة التي هي واسطة العقد؟

قال: قوله تعالى:﴿ وَأُمِرْتُ لأعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾، فالعدل ينطلق من النفس المؤدبة بـآداب العبوديـة، ولهـذا جـاء الأمـر فيهـا بهذه الصيغة، صيغة الإلـزام الألهي الـذي لا يـترك للنفس أي خيار.

قلت: فما الكلمة السادسة الـتي هي قولـه تعـالى:﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾؟

قال: هذا ما ذكرته لك في المثـال الـذي ناقشـتني فيـه.. فالله رب جميع الوجود، ومن الأدب مـع اللـه ألا نتعامـل مـع خلق الله من واقع استعبادنا لهم؟

قلت: كيف نستعبدهم، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا.

قال: الاستعباد لا يعـني فقـط مـا تتصـورونه من الـرق .. أعظم استعباد أن تعتقد الله ربا لـك وحـدك، بـل تتـأمر على ربك، فتأمره وتنهاه.

قلت: أنحن نفعل هذا؟

قال: ولكنكم لا تجسرون على قوله.

قلت: فما الكلمة الخامسة؟

قال: هي التي نص عليها قولـه تعـالى:﴿ لَنَـا أَعْمَالُنَـا وَلَكُمْ أَعْمَـالُكُمْ ﴾، وهي نتيجـة لمـا سـبق.. فالعاقـل من انشـغل بصحيفته عن صحائف غيره.

قلت: أجل .. فقد قال تعالى مبينا الموقف الصحيح للتعامل مع المخالفين:﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس:41)

قال: لو رأى غيركم منكم هذا التواضع لجلسـوا يتعلمـون على أيـديكم، ولكنكم أبيتم إلا أن تصـيروا حجبـا بين اللـه وخلقه.

قلت: فما الكلمة السادسة؟

قال: هي التي نص عليها قوله تعالى:﴿ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾

قلت: لقـد قـال مجاهـد في معناهـا: أي لا خصـومة بيننـا وبينكم، وقال السدي: وذلك قبل نزول آية السيف، وقد رجح ابن كثير هذا، فقال: وهـذا مُتَّجَـهٌ لأن هـذه الآيـة مكيـة، وآيـة السيف بعد الهجرة.

قال: أراكم تضربون الكتاب بعضه ببعض .. فتنسخون مـا تشاءون بما تشاءون .. كلام الله كله محكم ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيـلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيـدٍ﴾ (فصـلت: 42)

قلت: فما الكلمة السابعة؟

قال: هي الـتي نص عليهـا قولـه تعـالى:﴿ اللَّهُ يَجْمَـعُ بَيْنَنَـا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾

قلت: لقد ورد هذا في مواضع من القرآن الكـريم، فاللـه تعالى يقول في آية أخرى:﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ (سبأ:26)

قال: هذا أكبر ما يملأ قلوب العارفين حزنا وأسفا.

قلت: كيف ذلك؟

قال: اللـه يجمـع بين خلقـه جميعـا ليقتص للمظلـوم من ظالمه.

قلت: أجـل .. فقـد ورد في الحـديث قولـه ﷺ:(لتـؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقـاد للشـاة الجمـاء من الشاة القرناء تنطحها)(1)

قال: وأعظم ظلم لهم أن تحجبوهم عن الحق الـذي زين الله به الوجود، فيدخلوا جهنم الدنيا وجهنم الآخرة بسببكم.

قلت: أجـل .. لقـد وردت النصـوص بحفـظ حقـوق غـير المحاربين، فالرسول ﷺ يقول:(من ظلم معاهـدًا أو انتقصـه حقًا أو كلفه فوق طاقته أو أخـذ منـه شـيئًا بغـير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة)(2)، وفي عهـد النـبي ﷺ لأهـل نجران أنه (لا يؤخذ منهم رجل بظلمِ آخر)(3)

قال: بل ورد مـا هـو أعظم من ذلـك، فقـد قـال ﷺ:(من آذى ذِمِّياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة) (4) .. بل ورد ما هو أعظم من ذلك، فقـد قـال ﷺ:(من آذى

____

1) رواه مسلم وغيره.

2) رواه أبو داود والبيهقي .

3) أبو يوسف في الخراج:72.

4) رواه الخطيب بإسناد حسن.

ذميًا فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله)(5)

الرخاء:

قلت: فما الوظيفة الثالثة التي تجعلنا شهودا عدولا على الأمم من حولنا؟

قال: الرخاء.

قلت: أراك تذم الترف .. فكيف تجعل الرخاء ركنا من أركان الشهادة؟

قال: الترف رخاء الطغاة المتجبرين.. والرخاء ترف العبيد المتواضعين.

قلت: فكيف يكون وظيفة من وظائف الشهادة؟

قال: كيف يستطيع مدرب النمور والأسود أن يتسلط على قوى السبعية في النمر والأسد ليوجهها إلى اللعب واللهو .. فيجعل من ذلك الذي يخافه الناس على نفوسهم وسيلة رزقه التي يحافظ بها على حياته؟

قلت: ما أسهل ذلك ـ يا معلم ـ لقد عرف شهوات النمر والأسد، فراح يتلاعب به من خلالها.

قال: فكذلك من يحيط بكم من الأقوام، استعبدتهم الدنيا، ولن تجروهم إلى الله إلا بسلاسل الدنيا.

قلت: ولكن كيف يكون ذلك، وقد نهينا عن إكراه الناس على الدين.

قال: السلاسل لا تعني الإكراه .. وإنما تعني ما رأيته من أسلوب التعامل مع النمر والأسد.

---

5) رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن.

قلت: فما علاقة ذلك بالرخاء؟

قال: أكبر حجاب يحول بين أعدائكم، وتبصر الحـق الـذي جعله اللـه لكم مـا تقعـون فيـه من تخلـف وفقـر وضـعف .. فلـذلك كـان تقـدمكم وغنـاكم وقـوتكم هي السلاسـل الـتي تجعلهم يلتفتـون لكم، ويدرسـون سـر الرخـاء الطيب الـذي وهبه الله لكم.

قلت: ولكن الرخاء هو الذي وضعنا في هاوية التخلف.

قال: ذلك الترف .. لا الرخاء .. والترف عبوديـة للمـال .. أما الرخاء فإنـه لا يزيـد صـاحبه الفـاهم عن اللـه إلا عبوديـة لله .. أليس أهل الجنة في رخاء؟

قلت: أجل ..

قال: فهل حال ذلك بينهم وبين الله؟

قلت: كلا.

قـال: فحضـارة أهـل الجنـة حضـارة الرخـاء المـؤمن، فتشبهوا بها.

قلت: في نفسـي شـيء ممـا تقـول .. فلا ينبغي أن يقـاد الناس إلى الله بمثل هذا.

قـال: ألم يجعـل اللـه من سـهام الزكـاة سـهما للمؤلفـة قلوبهم؟

قلت: أجـل، فقـد قـال تعـالى: إِنَّمَـا الصَّـدَقَاتُ لِلْفُقَـرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَـامِلِينَ عَلَيْهَـا وَالْمُؤَلَّفَـةِ قُلُـوبُهُمْ وَفِي الرِّقَـابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَـةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (التوبة:60)

قال: أتدري ما سره؟

قلت: حتى يكفوا شرهم عن المسلمين.

قال: وحتى يعلموا من غنى المسلمين، وحسن أحوالهم ما يجعلهم يحنون لسلوك سبيلهم .. أليس فقراؤكم يحاولون تقليد أغنيائكم؟

قلت: أجل .. وقد عرفنا بعض ذلك.

قال: فاعتبروا بهذا .. لتضعوا المال الصالح في أيدي الرجال الصالحين الذين يمثلون عبودية الرخاء لله، كما مثلها سليمان وحضارة سليمان.

السماحة:

قلت: فما الوظيفة الرابعة من وظائف الشهادة التي يتوجب على أولي الأمر القيام بها ليكونوا أمثلة صالحة عن الإيمان وأهل الإيمان؟

قال: السماحة.

قلت: أحسبنا تكلمنا عنها في العدالة.

قال: السماحة خلق .. والعدالة شرائع .. وبالسماحة الخلقية يمكنك أن تجر من تشاء لما تشاء ..

بعد أن مررنا على جميع تلك الأبواب صـادفنا بـاب عظيم احتوى على جميع أصناف البهاء، فصحت: هذا بـاب الجنـة .. لا شك في ذلك .. لكنا لم نمرر على الصراط الـذي هـو أدق من الشعرة وأحد من السيف.

قال لي: لا .. هذا باب مدائن الدنيا .. ولكن ـ مع ذلك ـــ لا مـانع من أن تعتـبره بابـا من أبـواب الجنـة، ففي الـدنيا من روائح الجنة ما لا يشمه إلا الصديقون.

قلت: والصراط؟

قال: لقد مررت به.

قلت: أتقصد هذا الطريق الـذي سـلكناه، والأبـواب الـتي فتحت لنا؟

قال: أجل، فهو أدق من الشعرة، وأحد من السيف.

قلت: ولكنا كنا نسير فيه بسهولة ويسر.

قال: لأن النور كان معنا .. ولولا النور لتهنا عن طريقنـا .. ولخرجنا إلى أبواب جهنم الكثيرة.

قلت: أهناك إذن أبواب لجهنم تؤدي إليها تلك المسـارات التي رأيناها؟

قال: أجل، وهي التي سلكتها مدائن عـاد وثمـود وسـدوم وعمورية، ومدائن الشرق الآفل، والغرب الذي أراد أن يقتـل التاريخ.

قلت: أعرف عادا وثمـودا وسـدوم وعموريـة .. ولكـني لا أعرف المدينتين الأخيرتين.

قال: سيعرفهما أولادك .. ولعلهم يعتبرون بهما.

قلت: فكيف نفتح هذا الباب؟

قال: ككل الأبواب .. ندخله بفتحه.

قلت: ولكن أين المفاتيح؟

قال: المفاتيح هي الحقائق التي وعيتها أثناء مرورك على الصراط .. فهل وعيت ما قلت؟

قلت: نعم .. وعيته، ولله الحمد والمنة، ولك الشكر والفضل.

قال: سنرى.

قلت: ماذا؟

قال: إن كنت وعيتها بصدق، فسيفتح الباب بمجرد أن نقترب منه، فإن لم يفتح، فهذا دليل على أنك لم تكن صادقا في وعيك.

قلت: لا تخف يا معلم، فأنا واثق مما أقول .. فالمرارات التي عشتها في مدنيتي جعلتني لا أعي فقط ما قلنا، بل أحفظه، وأعيشه.

قال: ولكن .. ألم أخبرك أن الوعي الذي يتوقف على الذاكرة والحفظ لا يكفي وحده؟

قلت: تريد الحب والعزيمة.

قال: لا يكفي للتغيير أن تعرفوا ما لم تمتلئ قلوبكم ببذور الشوق التي تنبت ثمار العزيمة.

قلت: لا تخف يا معلم .. فإن لي عزيمة تفل الحديد.

قال: عزيمة على ماذا؟

قلت: عزيمة على الدعوة لما ذكرنا ونشره والتبشير به.

قال: لا يكفي كل ذلك .. لا يكفي الكلام.

قلت: وهل أملك غير الكلام .. لقد قلت لي: إن فأسك هو قلمك .. ولذلك سأسخره لهذا السبيل.

قال: القلم أداة من أدوات الحضارة .. ولكن الحضارة لا تقوم به وحده.

قلت: بماذا تقوم إذن؟

قال: بك.

قلت: ومن أنا؟

قال: الإنسان.

قلت: أعرف ضرورة الإنسان للحضارة، فلا حضارة بلا إنسان ..

قال: فتحضر أنت قبل أن يتحضر قلمك.

قلت: بماذا أتحضر.

قال: بالسلوك .. بالترفع .. بالتخلق .. بالعرفان .. فالحضارة ليست أشياء .. بل هي قيم ومبادئ.

قلت: أنا أتعلم على يديك ..

قال: أخاف أن تتصور أن ما ذكرته هو النهاية، فتكتفي به .. أو أخاف أن ترى جمال هذه المدنية، فتقرر الاستقرار فيها، وتكتفي بما عرفته كما اكتفيت مع كنوز الفقراء.

قلت: لا تخف يا معلم .. أعلم أن الطريق طويل، وهذه البداية .. وأعلم أن ملكوت الله واسع، ولن أستقر في

محـــل .. بـــل همـــتي تـــترقى إلى اللـــه، ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (لنجم:42)

قال: إن كنت قلت هـذا .. فـاقترب من بـاب المـدائن، فستفتح لك.

اقـتربت مـع المعلم من البـاب .. وبمجـرد اقترابنـا فتح على مدينة عظيمة .. لست أدي هـل كـانت في الأرض أم في السماء .. كل ما فيها جميل .. أشكال بناياتهـا تختلـف كثيرا عن سائر ما أعرفه من أشكال البناء.

سألت المعلم: ما أجمل هذه الحلل الـتي ترتـديها هـذه المدينـة، من المهندسـون الـذين بنوهـا، أم من الفنـانون الذين صمموها؟

قال: هـؤلاء مهندسـون من أهـل اللـه فتح اللـه عليهم، فصمموا هذه الأشكال البديعة، مستوحين لهـا من أشـكال الكون.

قلت: أين ناطحات السحاب؟

قال: لا يعرف أهل هذه المدينة التطاول في البينان.

قلت: أين مداخن مصـانعهم .. أليس في هـذه المدينـة مصانع؟

قال: بلى .. هي مملـوءة بالمصـانع .. بـل كـل بيت من بيوتها مصنع من المصانع.

قلت: فأين مداخنها؟

قال: لقد حـرص أهـل هـذه المدينـة على عـدم تلـويث الكون بأي ملوثات.

قلت: فما صنعوا معها؟

قال: هداهم الله، فخلصوا الصناعة من كل الملوثات.

قلت: كيف وصلوا إلى ذلك؟ .. دلني على هذا الاختراع .. فقومي محتارون مع الملوثات.

قال: قومك نظروا إلى كسبهم، ولم ينظـروا إلى كـون الله .. وما كان الله ليهديهم لشيء لم يهتموا به.

قلت: أتقصـد أن الطريـق إلى ذلـك هـو الاهتمـام والرعاية؟

قـال: أجـل .. لـو صـدقوا لوجـدوا .. لقـد صـدقوا في البحث عن الـذهب الأصـفر.. فوجـدوا الـذهب الأسـود والأصـفر .. ولـو صـدقوا في البحث عن طهـارة الكـون لوجدوها.

قلت: أين مـدارس هـذه المدينـة وجامعاتهـا .. فـإني لا أرى الطلبة يجتمعون حول أبواب المدارس والجامعات؟

قال: كل بيت من بيوت هذه المدائن مدرسة بحد ذاته، والعلم هنا يبذل بالمجان لكل الناس.. فأهل هـذه المدينـة كلهم طلبة.

قلت: والمساجد .. أين هي المسـاجد .. لا أرى المـآذن العالية، والقباب الفخمة؟

قال: كل هذه المدينة مسـاجد .. بـل هي كلهـا مسـجد لعبادة الله.

قلت: أقصد المواضع التي يلتقي فيها المصلون لينـالوا أجر الجماعة.

قال: في كل حي من أحياء هـذه المدينـة، بـل في كـل حـارة من حاراتهـا هـذه المسـاجد .. فهي مثـل دكـاكين البقالة لا ينبغي أن تخلو منها حارة، وإلا أصابها الجوع.

قلت: ولكـني لا أراهـا .. لقـد تعودنـا أن نضـع المـآذن الرفيعة على مساجدنا.

قال: ذلك لحبكم للتطاول .. فكل مأذنة تتطاول على أختها.

قلت: ومساجد هذه المدينة؟

قال: بسيطة كبساطة مسجد رسول الله ﷺ .. فأول ما يتعلم المؤمن التواضع والزهد يتعلمه في المساجد.

قلت: ولكن قومي يصرفون أموالا ضخمة على بيوت الله تعظيما لها.

قال: إن الله طلب منكم أن تعمروا بيوته بالخشوع والإيمان والذكر، لا بأصناف الزخارف التي تعبدونها.

قلت: والملاعب .. أين الملاعب الفخمة التي تتباهى دول العالم على تشييدها؟

قال: تلك سنة المترفين، وما كان لأهل مدائن السلام أن يتشبهوا بمدائن الصراع في تشييدها.

قلت: ولكن النصوص تحض على الرياضة، وتدعو إليها.

قال: النصوص تدعو إلى الرياضة .. لا إلى التفرج على الرياضة، ولا إلى الصراع من أجلها.

قلت: فكيف يمارس أهل هذه المدينة الرياضة؟

قال: في كل بيت من بيوت هذه المدينة محل خاص يجمع بين المسجد والملعب والمستشفى والمصنع والكثير من المرافق التي تملأ مدائنكم.

قلت: كيف تقول هذا؟ فما البيت إلا بيت .. وهو لا يعدو أن يكون محل أكل وراحة.

قال: لقد عرف أهل مدائن السلام أهمية البيت، فلذلك ملأوه بالمرافق الطيبة التي تعينهم على دينهم وحياتهم، ألم تسمع قوله تعالى: وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ

تَبَوَّءا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (يونس:87)

قلت: بلى .. فما فيها من العلم؟

قال: إن موسى ﵇ أرسل لبني إسرائيل ليخرجهم من عوالم الهوان التي ألفوها إلى عوالم أهل السلام .. والسلام كما يبدأ في النفس من النفس، يبدأ في المجتمع من البيت.

قلت: صدقت .. فإن من الناس من لا يجلس مع أهل بيته إلا قليلا .. شغله المجتمع والعلاقات الاجتماعية عن نفسه وأهله .. ولكن ألا يقضي هذا على الحياة الاجتماعية؟

قال: لا .. هذا يملأ الحياة الاجتماعية بالإيجابية، فلا يلتقي الناس إلا على العلم النافع، والعمل الصالح، والذكر الطيب.

قلت: ألهذا لا أرى النوادي والمقاهي هنا؟

قال: إن أكثر المقاهي التي تملأ شوارعكم سموم تهدم أعماركم، وتحطم حياتكم، وتنشر الخراب بينكم.

قلت: ولكن الكرم يقتضي وجودها، كما يقتضي وجود المطاعم..

قال: إن أردت هذا .. ففي كل بيت من بيوت هذه المدينة محال خاصة بالضيوف، ولكنهم يعمرونها بالذكر والعلم والعمل.

قلت: أيجتمع الضيوف على موائد العلم والذكر، لا الطعام والشراب.

قال: لا خير في طعام لا يحلى بالعلم، ولا يذاب بالذكر.

قلت: والجماعات والحركات، والطرق والتنظيمات، والأحزاب والنقابات .. أين مقارها، فإني لا أرى لها أي مقار .. أتراهم يكبتون الحريات؟

قال: وما المقاصد التي تأسس لها ما ذكرته من جماعات وتنظيمات .. فإن أهل هذه المدائن لا يرون في الأشياء إلا مقاصدها؟

قلت: النقد البناء والهدام .. والحفاظ على حقوق الخواص والعوام.

قال: فكل فرد من مجتمع هذه المدائن يقوم بهذا .. فهو ينقد ليصلح، ويهدم ما يفسد، ليبني على أساسه ما يصلح.

قلت: وجمعيات النساء والأطفال..

قال: وما دورها؟

قلت: الحفاظ على الحقوق المضيعة، وإرجاع ما اغتصب الرجال من حقوق النساء، وما اغتصب الكبار من حقوق الأطفال.

قال: مجتمع أهل السلام لا يقسم الناس على هذه الأسس، فهو ينظر إلى النساء والرجال والأطفال كإنسان، لا كأفراد أو أجزاء من الإنسان.

قلت: وكيف ينظر إلى الإنسان؟

قال: ينظر إلى الإنسان الخليفة العبد الذي رحل من الجنة إلى الأرض ليعمرها بعبادة الله، وينقل حضارة الجنة التي خرج منها إلى الأرض.

قلت: ألهذا أدخل الله الإنسان الجنة قبل أن ينزله إلى الأرض؟

قال: أجل .. لقد كانت فترة دخوله الجنة فترة استكشاف ليؤسس من خلالها العالم الجميل الذي خلقه الله له.

قلت: وجمعيات حقوق الحيوان والبيئة؟

قال: كل فرد من أفراد مجتمع السلام صديق ودود للكون، فالعلاقات بينهم في منتهى الرقة والجمال.

قلت: أيصادق أهل السلام الحيوانات؟

قال: والجمادات .. وكل ما خلق الله ..

قلت: لا أعرف من الصداقة إلا الصحبة التي تحتاج إلى المشاكلة، فأي مشاكلة بين الإنسان وبين ما ذكرت.

قال: أليس الكل مخلوقا لله، ويسبح الله، ويحن لمعرفته؟

قلت: بلى ..

قال: ألا يكفي كل هذا ليملأ حياتهم بالقواسم التي تربط بينهم، وتجعلهم جميعا على قلب واحد؟

قلت: بلى ..

قال: فانظر إلى الكون نظر العبد العابد يحول الله كل ذرة من ذراته صديقا ودودا يملأ حياتك بالأنس.

قلت: والأحزاب السياسية التي يتم بموجبها اختيار الحاكم؟

قال: لقد عرف سكان مدائن السلام قيمة الوحدة فيما بينهم، فلم يتفرقوا إلى أحزاب.

قلت: ولكن اختيار الحاكم يقتضي وجودها.

قال: الحاكم يعينه صدقه وسلامه وامتلاء قلبه بالرحمة.

قلت: ألا يتنافس الناس هنا على الحكم؟

قـال: إن الشـدائد الشـديدة الـتي يعانيهـا الحـاكم في مـدائن السـلام، وحيـاة الزهـد الـتي يعيشـها، جعلت أهـل السلام يحمدون الله على أن جعلهم رعية لا رعاة.

قلت: أليس لهم حاكما؟

قال: بلى .. وقد تقـدم إلى حكمهم من بـاب الإيثـار، لا من باب الأثرة.

قلت: أين الجرائـد، والمجلات، ووسـائل الاتصـال .. مـا لي لا أراها في هذه المدينة؟

قال: لهم كل ذلك .. ولكنهم لا يملئونها بـالفراغ واللهـو واللغو الذي تملئونها به.

قلت: فبم يملئونها إذن؟

قال: بالعلم النافع، والسلوك الرفيع، وبرفـع الهمم إلى الله.

قلت: أليست مكتوبة في أوراق كجرائدنا؟ .. فإني أرى أرض المدينة نظيفة من أي ورق.

قال: لقد ابتكـروا وسـائل كثـيرة أغنتهم عن كثـير ممـا يملأ حياتكم بالعبث والتلوث.

قلت: ووســائل التنقــل من الســيارات والحــافلات وغيرها .. فإني لا أكاد أرى طرقا كطرقنا.

قال: لقد هداهم الله، فـاخترعوا من وسـائل النقـل مـا يحفـظ جمـال الحيـاة والطبيعـة، فلم يجرحـوا الحقـول بالطرقــات، ولم يخربــوا الأنهــار بالجســور، ولم يلوثــوا الأجواء بالدخان القاتل.

قلت: فما هي التقنيات التي وصلوا بها إلى ما وصلوا؟

قال: بتقنية الذي عنده علم من الكتاب.

قلت: تقصد صاحب سليمان ﷷ الذي قال:﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾(النمل: 40)

قال: أجل.

قلت: ألم يكن ذلك كرامة له؟

قال: لو كان ذلك كرامة له ما ذكر الله أنه ممن أوتي من علم الكتاب.

قلت: أي كتاب ذكر فيه هذا؟

قال: كل ما تراه من علوم من علم الكتاب.

قلت: والمحاكم .. أين المحاكم؟ .. تلك الدور التي ينشر فيها العدل.

قال: أو يباع فيها العدل بالمزاد.

قلت: في أرضنا قد يحصل هذا .. وأنا أسألك عن مدائن السلام.

قال: في هذه المدينة .. كما في كل مدائن السلام يجتمع الناس على الخبراء من أهل الاختصاص، ممن توفر فيهم العلم والتقوى والسلام، ولهؤلاء محل خاص، هذا المحل هو قلب هذه المدينة النابض.

قلت: ما اسمه؟

قال: الجامع.

قلت: الجامع عندنا هو المسجد الذي تقام فيه الجمعة.

قال: كذلك هنا .. تقام الجمعة الجامعة في الجامع .. حيث يجتمع أهل المدينة جميعا كل أسبوع.. وفي هذا الجامع توجد كثير من المرافق التي تتفرق في مدائنكم.

قلت: مثل ماذا؟

قال: مثل الاستشارات الشرعية، والتربوية، والاجتماعية، والعلمية، وفيه يفصل في الخلاف الذي قد يقع، ونادرا ما يقع.

قلت: فبم يفصل بينهم؟

قال: لديهم أساليب كثيرة في ذلك، ستراها في حينها، فلا تعجل.

قلت: أليس لديهم سجونا؟

قال: الوقت أغلى عند أهل هذه المدائن من كل شيء، فلذلك لا يحرمون المخطئين منه.

قلت: فماذا يفعلون معهم؟

قال: يدلونهم على كيفية تصحيح أخطائهم

قلت: فعلمني علوم ذلك.

قال: ستعرفها عند رحلتك لعيون الطهارة .. فلا تعجل.

قلت: إن ما ذكرته من الجامع يستحيل تحقيقه في مدائننا، فهي من السعة بحيث لا يكفيها أي محل.

قال: وأكثر مشاكلكم بسبب تعقد مدنكم.

قلت: ومدائن أهل السلام؟

قال: صغيرة بسيطة.

قلت: نحن نفخر بالمدن الكبيرة.

قال: وتتعذبون بها.

قلت: ولكنها تكبر تلقائيا.

قال: يضخمها صراعكم .. أرأيت العائلة التي يكثر أولادها ويكبرون هل يظلون مع أسرهم يضيق بعضهم على بعض؟

قلت: كلا .. بل يلتمس كل واحد منهم بيتا خاصا يؤسس على أساسه حياته.

قال: وهكذا فعل أهل مدائن السلام .. كلما أحسوا بأن مدينة ستكبر، وتضيق فيها الحياة انتقلوا إلى غيرها، وأسسوا غيرها.

قلت: فكيف اهتدوا إلى هذا الحل؟

قال: لقد سمعوه من قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ (النساء:97)

قلت: ولكن هذا خاص بالمستضعفين، وهي تدعوهم إلى الهرب ممن يستضعفهم.

قال: لقد سمعوا معها قوله تعالى:﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾(العنكبوت:56)، وقوله تعالى:﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(الزمر:10)

قلت: صدقت .. فما أجمل الحياة في المدن الصغيرة، وما أبسطها .. إن أكثر العقد سببها تضخم المدن.

قال: لو علموا عواقب الإسراف وشموليته لما وقعوا فيما وقعوا فيه.

قلت: أهذا من الإسراف؟

قال: ألم تعلم أن الإسراف يشمل جميع الحياة، وجميع أسباب الحياة.

قلت: بلى .. لقد عرفنا ذلك في مستشفى السلام .. ذكرتني بالمستشفيات .. أين المستشفيات؟

قال: لقد زرت مستشفى السلام، وهو مستشفى من مستشفيات مدائن السلام.

قلت: والشرطة .. لا أرى شرطة في المدينة.

قال: كل أهل هذه المدينة شرطة.

قلت: ومن يحمي حاكمهم؟

قال: عدله.

قلت: وكيف يثبت عدله إن لم يتخذ شرطة وسجونا؟

قال: يثبتها بسلوكه.

قلت: والفقراء .. أين الفقراء؟ .. وأين ملاجئهم؟

قال: سكان هذه المدائن كلهم فقراء .. وكل هذه المساكن ملاجئهم.

قلت: فمن يتصدق عليهم؟

قال: من افتقروا إليه؟

قلت: الله؟

قال: لو افتقروا إلى الخلق ما وهبهم الله هذه المدائن.

قلت: أهذه المدائن كسب كسبوه أم هبة وهبوها؟

قال: الهبات لا تعطى للكسالى.

قلت: فهل لهذه المدينة من أعداء يتربصون بها.

قال: لقد كان لهم أعداء كثيرون؟

قلت: فكيف انتصروا عليهم؟

قال: بحصون تحصنوا بها.

قلت: فما هي؟ .. دلني عليها، فما أحوج المستضعفين من قومي إلى التحصن من أعدائهم الذين يتربصون بهم.

قال: سنقوم برحلتنا إلى هذه الحصون في رحلتنا القادمة.

قلت: هل سنرحل في الدرس القادم إلى (حصون المستضعفين)؟

قال: أجل .. فقد انتهينا من مفاتيح المدائن.

هذا الكتاب

هذه الرواية عبارة عن رحلة يقوم بها الراوي بصحبة معلمه [معلم السلام] ليخرج من المتاهة التي وقع فيها، والتي ترمز للتخلف وكل القيم الناتجة عنه والمرتبطة به.. وقد أعانه معلمه على ذلك بسبب معرفته بالأبواب التي تنقذه من المتاهة، ومعرفته بالمفاتيح التي تفتحها، إلى أن يصل الراوي أخيرا بصحبة معلمه إلى مدائن السلام.

وهي تحاول أن تضع الحلول المختلفة لعلاج ظاهرة التخلف انطلاقا من استبصار سنن الله في الآفاق والأنفس، والتي تضمن تفاصيلها القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، ولهذا تحاول أن تستلهم منهما القيم المختلفة التي تخرج بالأمة من التخلف، وتعيدها إلى وعيها، وإلى بناء المدائن العادلة التي كلفت ببنائها.